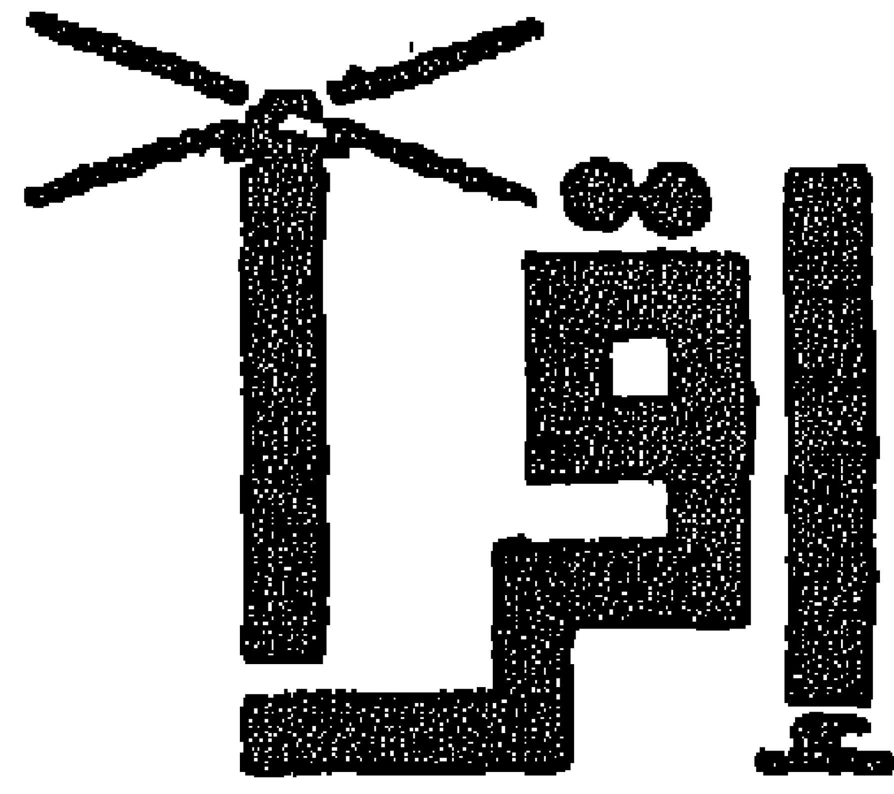
اقرأ

دكتور حسين مؤنس

دراسات فى ثورة ١٩١٩

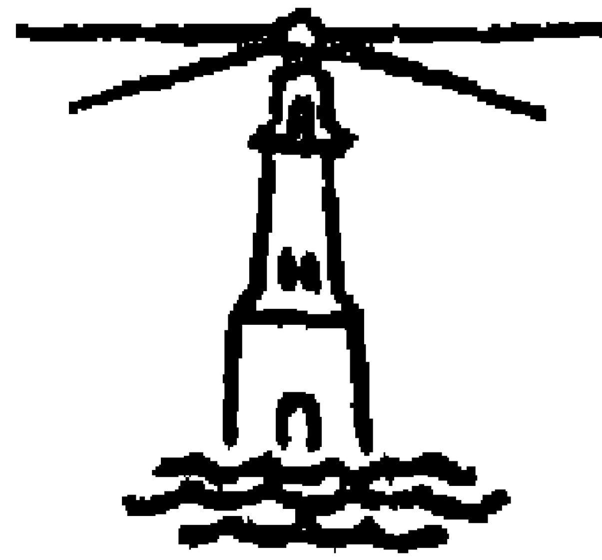
عدد ممتاز





تصدر في أول كل شهر

رئيس التحرير : أنيس منصور



دار المعارف بمصر



دكتور حسين مؤنس

دراسات في ثورة ١٩١٩

اقرأ ٤١٨
دار المعارف بمصر

(اقرأ – ٤١٨)

الغلاف للفنان جميل شفيق

الناشر : دار المعارف بمصر – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة . ج . م . ع .

بين يدى الكتاب

كثيرون هم إخوانى من أهل التاريخ الحديث الذين أنكروا علىّ إقدامى على الكلام فى موضوع هو من صميم اختصاصهم ، ورأوا فى ذلك لوناً من التدخل غير المقبول ، فى عصر يقوم فيه العلم على التخصص . . ومادام للتاريخ الحديث أربابه ، فما شأن مؤرخ الإسلام هذا ! وتاريخ مصر الحديث يوغل فيه ؟ . .

وأبدأ فأقول إنهم على الحق فى هذا الكلام ، وأثنىّ فأعتذر إليهم عن اقتحام محرابهم والجرأة على الصلاة فيه ، فنحن فعلا فى زمن تخصص دقيق ، وما كان ينبغى لمثلى أن تكون له قدم فى ميدان تاريخ العرب الحديث . .

ولكننا — معاشر المؤرخين — نغادر اليوم — شيئاً فشيئاً — عصر التخصص الدقيق هذا ، بعد أن تبين لنا أنه لا ينفع المؤرخ فى كثير . لأن التاريخ البشرى كله ميدان واحد ، وتاريخ العرب كله جزء لا يتجزأ من هذا الميدان الواسع . وتاريخ مصر — بالذات — باب واحد مترابط الفقرات ، ومن العسير — فى يومنا هذا — أن تكون مؤرخاً متمكناً من تاريخ الإسلام وحضارته ، إلا إذا كنت على علم وثيق بالتواريخ العالمية القديمة والوسطى والحديثة . لأن تاريخ الإسلام لم يدر على جزيرة نائية منعزلة وسط المحيط ، وإنما هو يدور فى جزء من العالم هو مركز الاتصال بين أقطاره ،

وشعوب الإسلام ولدت وعاشت فى قلب الدنيا ووسط شعوب الدنيا كلها ، ولا يستطاع فهم الجزء فهماً صحيحاً إلا إذا عُرف الكل معرفة جيدة .

أقول هذا وأنا أعرف مثلا أن ج . ب . بيورى مؤرخ العصور القديمة كان أستاذاً فى التاريخ الحديث ، وأن يعقوب بوركهارت مؤرخ النهضة الأوربية كان أستاذاً فى التاريخ القديم ، وأن محمد شفيق غربال شيخ شيوخ مصر الحديثة له مؤلف ممتاز عن تاريخ مصر القديمة . وذلك كله راجع إلى أن ميدان التاريخ لا يقبل التخصص إلا من قبيل توزيع العمل ، فأنا أدرس تاريخ الإسلام ، ولكنى أقرأ فى تاريخ العالم كله ، وقبل أن أكتب هذه الدراسات قرأت قراءة واسعة فى تاريخ اليابان ، لأقارن بين نهضة شعبها ونهضة أمة العرب ، ولأعرف لماذا كان توفيق اليابانيين أكبر بكثير مما وصلنا إليه نحن العرب .

فإذا قبل منى أهل التاريخ الحديث هذا الاعتذار وأجازوا هذا التبرير ، بادرت أؤكد لهم أننى ما أردت بهذه الدراسات أن أوسع لنفسى مكاناً بينهم ، وإنما أردت — فحسب — أن أدون آراء ونظريات ومعلومات عن تاريخ مصر الحديث تجمعت لى مع الزمن ، ورأيت من الخير أن أدونها ، فقد يكون فيها نفع لبعض الناس .

يتضمن هذا الكتاب أربع مجموعات من الدراسات عن ثورة ١٩١٩ ، التى تعتبر حادثاً فاصلا فى تاريخ مصر وأمة العرب جميعاً ، ولكل مجموعة منها فكرة رئيسية أو نظرية محددة اجتهدت فى شرحها وتوضيحها .

فالمجموعة الأولى خصصت لدراسة طبيعة ثورة سنة ١٩١٩ ، والتعرف

على رجال الجيل العظيم الذى قام بها أو نشأ فى أحضانها . وهو جيل جدير بالإعجاب حقًّا ، ضم الزعيم السياسى والعالم القانونى والأديب المبدع والشاعر المجيد والفنان الأصيل والاقتصادى الضليع والطبيب البارع والمهندس القدير ، جيل عظيم حقًّا يبدو لناظره وكأنه جيش لجب أخرجته مصر لتشق به طريقها إلى الحرية والنهوض . وأنت لا تدرى كيف نجموا كلهم دفعة واحدة ، وطفروا من ظلام ماض راكد ليجددوا شباب مصر الخالدة فى كل ميدان . والرأى الذى ذهبت إليه وحاولت أن أثبته فى فصول هذه المجموعة هو أن شعب مصر تجمع على نفسه خلال عصور الظلام التى مرت به ، واحتفظ بقواه كاملة ، حتى إذا أتيحت الفرصة المواتية ، تفتح هذا الشعب الأصيل ، وأخرج هؤلاء العباقرة ليشقوا له الطريق . وقد لاحظت أن جانبًا كبيرًا من أولئك الرجال خرجوا من بطون الريف ، أى من صميم التربة المصرية ، وخروجهم على هذه الصورة يؤكد لنا حقيقة جهدت فى إثباتها ، وهى أن شعب مصر صلب خصب قادر دائماً على تجديد نفسه وصنع الحضارات . وعند التدقيق نتبين أن هذا الشعب الطيب هو الذى صنع جيل سنة ١٩١٩ ، ولم يكن هذا الجيل أو أحد من زعمائه هو الذى صنع الثورة . وبينت كذلك كيف أن هذا الجيل أنهض أمة العرب كلها بعد ذلك ، وحاولت – على قدر ما استطعت – أن أبحث عن سر ظهوره ، ومدى ما قام به من عمل مازلنا نعيش على آثاره إلى اليوم .

والمجموعة الثانية تبحث فى موضوع نصيب الأقباط فى ثورة ١٩١٩ ونهضة مصر الحديثة ، وقد اجتهدت فيها أن أدلل على أن اتحاد شعب

مصر المسلم والقبطى كان السبب الرئيسى فى إنهاض مصر العظيمة وإخراجها إلى عالم الحرية والنور ، وأن كلا منهما تقدم فى بسالة وإيثار فقدم لمصر خير ما استطاع . وبدون هذا الاتحاد ما كان يمكن لمصر أن تحقق خطوة على طريق التحرير .

والمجموعة الثالثة تبحث فى أعمال الفدائيين المصريين ، الذين كان الناس يعتبرونهم – إلى حين قريب – مجرمين سياسيين ؛ حتى عبد الرحمن الرافعى حمل عليهم وتبرأ من أعمالهم ، وماهم – فى الواقع – إلا أبطال يرجع إليهم أكبر الفضل فى توفيق ثورة ١٩١٩ .

والمجموعة الرابعة تدور حول نظرية جديدة أيضاً ، وهى أن تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ وكل ما فعلته بريطانيا بعده كان له هدف واحد : هو فصل السودان عن مصر ، وتحويله إلى مستعمرة بريطانية خالصة .

فالمجموعات الأربع تقوم على أربع نظريات .

ولست أزعم – بطبيعة الحال – أن هذه النظريات كلها صواب ، ولكننى بذلت جهدى على كل حال ، وحاولت أن أبعث فى دراسات تاريخ مصر الحديثة روحاً جديدة ، أو قل حركة جديدة ، تخرجه عن الروتينية القاتلة التى تكاد تستبد بميدان البحث التاريخى كله عندنا .

وهذه الصفحات كلها ، ما هى – فى الحقيقة – إلا سطور من الحب لمصر . . وطننا الأعز ، مهد الحضارات . . كتبتها فى ساعات من الأسى ، دون أن يخامرنى الشك لحظة واحدة – فى أن هذا البلد الأعز سيخرج من سواد الليل الرابض إلى ضوء الغد الباهر ، بالحب وبالعمل وبالجهد وبالتضحية .

هذه الصفحات – إذن – تحية لمصر ، وتحية لكل من يحبها ويعمل لها ، وتحية لجيل جديد يسير بهذا الوطن مشتركاً مع رجال أمة العرب جميعاً – إلى المستقبل السعيد . بإذن الله . .

وبينما كنت أراجع التجارب الأخيرة من هذا الكتاب قامت حرب رمضان ١٣٩٣ / أكتوبر ١٩٧٣ ، وإذا بالمقاتلين المصريين الذين خرجوا من بطون الريف ، يقومون بأعمال من البطولة تفوق كل ما قلته وفصّلته فى هذا الكتاب ، ورأى الناس أبناء مصر يعصفون بعدو لئيم مستأسد ، ويقتحمون النار والموت فى سبيل مصر الخالدة ، فيكتبون فى تاريخ الحروب الحديثة صفحات جعلت عباقرة الحرب فى الدنيا كلها يراجعون آراءهم ونظرياتهم التى دارت عليها أفكارهم عن الحروب الحديثة والعدة لها .

وقد كان بعض أهل التاريخ يحسبون أننى جاوزت الحد فى الكلام عن شعب مصر وما استطاع أن يحققه سنة ١٩١٩ ، فرأوا فى أكتوبر ١٩٧٣ أننى – فى الحق – لم أقل إلا القليل ، وأتت الحوادث تثبت ما ذهبت إليه من أن المصرى العادى الذى غضب على بريطانيا وثار فى وجهها من نصف قرن ، قد زعزع أركان إمبراطوريتها وأنذرها بالسقوط ؛ كما أن جنود مصر الذين عبروا القناة حملوا إلى الدنيا بشرى الخلاص من نكبة إسرائيل ووهم الصهيونية . وكما صنع جيل سنة ١٩١٩ شيئاً يشبه المعجزة ، فكذلك جيل ثورة ١٩٥٢ صنع شيئاً آخر هو فى ذاته فتح فى تاريخ البشر ، وها هى ذى شعوب إفريقية قد تفتحت أعينها على العالم الجديد ، فأقبلت تسعى إلى مصر وأمم العروبة ، ليعمل الكل –

معاً – على بناء عصر جديد تنبأ بشيء منه المؤرخ الإنسانى ذو النظر العميق آرنولد توينبى .

* * *

وقد أعاننى كثيرون بما لديهم من العلم ، أخشى أن تخوننى الذاكرة فأنسى بعضهم ، ولكنى لابد أن أذكر الأخ الأديب حلمى مراد الذى بادر فأعاننى بكل ما عنده ، وتلميذى محمد خلاف الذى ظل يوافينى بالكتب ومقالات الصحف ، وصديق العمر مصطفى عبد المجيد الذى والى هذا الكتاب بعمله وجهده .

ومن محاسن الصدف أننى كنت أكتب هذه الفصول فى الكويت أيام كان الأستاذ العلامة الدكتور عبد العزيز كامل مديراً لجامعتها ، فكنت أعرض عليه بعض ما أنتهى إليه فيقوم بيننا حوله حوار ، وقد أفدت من آرائه وأنظاره كثيراً ، وهو فضل لابد أن أسجله بين يدى هذا الكتاب بالشكر والتقدير .

وأختم هذه السطور بالشكر للأخ الكريم أنيس منصور الأديب الكاتب العالم المبدع رئيس تحرير مجلة « آخر ساعة » ، الذى فتح لى صفحاتها لأنشر على الناس هذه الدراسات ، ولا أعدو الواقع إذا قلت إنه صاحب الفضل الأول فى تشجيعى على المضى فيها .

وسلام من الله على كل من يكرمنى بقراءة هذه الصفحات ، وتحية لدار المعارف التى تفضلت بنشر هذا الكتاب .

والحمد لله سبحانه ، وهو ولى التوفيق .

الكويت ، ديسمبر ١٩٧٣ حسين مؤنس

الفصل الأول

جيل ثورة ١٩١٩

أستطيع أن أقول – على قدر علمى بالتاريخ العالمى – إن ثورتنا سنة ١٩١٩ على الاحتلال الإنجليزى لمصر ، كانت ثانى ثورة فى إفريقية وآسيا على الاستعمار الأوربى .

الثورة الأولى كانت ثورة اليابان فى أوائل القرن العشرين ، وهى تختلف عن الثورة المصرية اختلافاً شاسعاً ، فإن ثورة اليابان لم تكن ثورة على احتلال فعلى قائم ، وإنما كانت ثورة على تدخل أجنبى أمريكى إنجليزى مهين . ثم إن اليابان كانت – إلى أواسط القرن الثامن عشر – بلداً مستقلا ، لم يتعرض من قبل للاحتلال الأجنبى الذى يمتص خيرات البلاد وينال من العزة القومية ، وكان يقودها إمبراطور إقطاعى هو الشوجان ، وأمراء إقطاعيون كلهم من رجال الحرب المعروفين بالساموراى ، أضف إلى ذلك أن بلاد اليابان ذات طبيعة جبلية وعرة ، وجوّها شديد قاس على الأجنبى وجزائرها كثيرة ، ومن ثم فإن المطامع الأوربية والأمريكية لم تتمكن من تنفيذ مآربها هناك ، وإنما ظلت تطرق الباب دون نجاح كبير . وأتيح لأهل اليابان – فى أثناء ذلك – أن يعيدوا تنظيم بلادهم ، وينشئوا حكومة حديثة وجيشاً نظامياًّ كفيلا بحماية البلاد . فلما حاول الأمريكيون التوغل فى اليابان وجدوا الأمر عسيراً عليهم كل العسر ، ومن ثم سارت ثورة اليابان السياسية والدستورية والعسكرية والعلمية

فى طريقها دون عقبات تذكر . وفى أوائل القرن العشرين كانت اليابان قد أعدت نفسها لمواجهة المطامع الغربية ، بل استطاعت الانتصار على روسيا سنة ١٩٠٤ ، وقفز بها هذا النصر إلى مصاف الأمم الكبرى .

أما ثورتنا سنة ١٩١٩ ، فقد قامت فى بلد أنهكته من قرون طويلة موجات من العدوان والاستغلال الخارجى ، جعلت الناس يتصورون أن شعب مصر قد نام نومة الأبد ؛ وإذا قرأنا ما كتبه لورد كرومر فى كتابه المخجل عن « مصر الحديثة » ، وجدنا ذلك الاستعمارى القارح يكتب عن شعب مصر وكأنه شعب من شعوب العصور الغابرة ، لا أمل فى نهوضه إلا بالقدر الذى يسمح به كرم الإنجليز .

ولكن شعب مصر هذا هو الذى عصف بكرومر نفسه عندما تيسرت له السبل ، وبعد سنوات قلائل ، وعندما خرجت بريطانيا منتصرة من الحرب العالمية الأولى ، ورجالها يشعرون ويتصرفون وكأنهم سادة الأرض ، نهضت مصر نهضة ما كان يتوقعها أحد ، وقامت بثورتها فى وجه المستعمر الذى كان يحسب نفسه لا يقهر ، وما أسرع ما وجدت إنجلترا نفسها أمام شعب ذى قوة وعزم ، يرفضها رفضاً ويصر على طردها من بلاده طرداً ، ويؤكد للدنيا أن وجود بريطانيا فى مصر ، وأن الاستعمار الأوربى كله — تبعاً لذلك — نكبة لابد أن تزول ، حتى تستطيع شعوب العالم أن تسير فى طريق التقدم .

وقاد الثورة سعد زغلول ، ذلك الفلاح الذى خرج إلى الدنيا من قرية خافية فى بطن الريف هى إبيانة (مركز قوة بمديرية الغربية إذ ذاك — محافظة كفر الشيخ اليوم) ، ووقف من فطاحل السياسية البريطانية

موقف الند للند ، وأثبت للعالم أن مصر استيقظت وعقدت العزم على أن تستعيد مكانها بين الأمم . وبدأت معركة التحرير المريرة لامع بريطانيا فحسب، بل مع أوربا والغرب كله، فسيرى القارئ فيمايلي من الصفحات أن أوربا كلها – لا بريطانيا فحسب – كانت تحتل مصر وتتعاون على خنق صوت الحرية فى صدرها . .

تلك هى أهمية ثورة سنة ١٩١٩ فى مصر ، فقد استنقذت من عالم الضياع شعباً من أعرق شعوب الأرض هو شعب مصر ، وكان نجاح مصر فى ثورتها بداية ثورة آسيا ثم إفريقية على السيادة الغربية ، أى أنها كانت – فى الحقيقة – فتحاً لعصر جديد فى تاريخ الإنسانية كلها .

(١)

ثورة ١٩١٩

ميلاد مصر من جديد

كيف نعرف الوزن الصحيح لثورة ١٩١٩ ؟

فى محاولة صادقة ، وساذجة أيضاً ، لتقدير ثورة سنة ١٩١٩ ودورها فى تاريخ مصر العام ، قال عبد الرحمن الرافعى – مؤرخ الحركة القومية المصرية – فى نهاية الجزء الثانى من كتابه القيم عن هذه الثورة (٢ / ٢٤١) : « . . . فأول قاعدة يصح أن نتخذها أساساً للبحث فى مبلغ نجاح أية ثورة أو عدم نجاحها ، هى تعرف الحالة التى كانت عليها البلاد قبل الثورة ، والحالة التى وصلت إليها بعد الثورة ، وهل تقدمت أو تأخرت ، وما علاقة الثورة بهذا التقدم أو التأخر . . »

وهذا مذهب سليم ، وعلمى إلى حد كبير ، يمكن أن نطمئن إليه فى تقدير الحوادث التاريخية وتقييم أعمال الرجال : فإذا أردت أن تعرف القيمة الحقيقية لأى حدث من أحداث التاريخ ، فافترض أنه لم يحدث ، ثم تصور مسيرة التاريخ بدونه ، وقارن بين الحالتين ، يتضح لك قدر هذا الحدث وأهميته بصورة قريبة جداً من الصحة .

خذ مثلين معروفين :

يحدثونك فى تاريخ مصر بشىء يحسبونه هاماً يسمى بالدولة

الطولونية ، أنشأها مغامر عسكرى تركى الأصل عربى الثقافة هو أحمد ابن طولون ، حكم مصر ١٥ سنة (٨٦٨ - ٨٨٣) وخلفه أربعة من أبنائه وأحفاده حكموا مصر إلى سنة ٩٠٥ ، فاستمر عمر الدولة كلها سبعاً وثلاثين سنة . . .

وهم يقولون لك إن هذه الدولة بدأت فى تاريخ مصر عصراً جديداً ، وأنها افتتحت عصور الاستقلال والحياة القومية ، وما إلى هذا القول الذى يثقلون به كتب التاريخ . .

ولكنك إذا سألت ماذا كانت مصر قبل أحمد بن طولون ؟

لكان الجواب : ولاية عباسية . .

- وماذا كانت حالها بعد دولة آل طولون ؟
- أيضاً ، ولاية عباسية . .
- وماذا كان حال مصر قبلهم ؟
- بؤساً وشقاء . . .
- وبعدهم ؟
- أيضاً ، بؤساً وشقاء . .
- وفى أيامهم ؟
- بؤساً أكبر ، وشقاء أشد . .
- إذن ، ما هو دور أحمد بن طولون فى تاريخ مصر ؟
- لا دور . .

قلها وأنت مطمئن . .

- وما أهمية الدولة الطولونية كلها فى تاريخ مصر العام ؟

– أيضاً ، لا أهمية . .

تستطيع أن تقرأ تاريخ مصر دون أن تذكر آل طولون ، فلا تلاحظ أنك فقدت شيئاً . .

خذ مثلا آخر :

فى سنة ١٨٩٩ نشر قاض ومفكر مصرى – هو قاسم أمين – كتاباً صغيراً عنوانه « تحرير المرأة » .

ولم يكن قاسم أمين بالثائر العنيف ولا بالمتمرد على النظام العام ، وإنما كان رجلا هادئا دمث الخلق مستقيماً ، ومصرياً صادقاً واسع الثقافة عاطفياً ، عاش حياته القصيرة (١٨٦٥ – ١٩٠٨) كما عاش أى قاض نزيه آخر فى أيامه . ولكن قاسماً كان ينطوى فى نفسه الهادئة على بحر متلاطم الأمواج من العواطف من كل نوع ، فقد كان واحداً من جيل الوطنيين العاطفيين الذين عشقوا مصر عشقاً ملك عليهم نفوسهم . . كان قلبه يزخر بحب مصر وحب امرأة أخرى لا يعلم أحد من أمرها شيئاً ، حتى قيل عندما توفى فجأة سنة ١٩٠٨ إنه انتحر . .

هذا الكتاب الصغير الذى نشره هذا القاضى المتوقد الذهن سنة ١٨٩٩ ، أثار فى مصر وبلاد الإسلام كلها ثورة كبرى ، مزقت حجب الظلام والظلم التى نشرها مجتمع متدهور على نساء المسلمين جميعاً قروناً طويلة ، فحرمهن من كل حقوق البشر وجعلهن جميعاً فى مراتب الخادمات أو الغانيات ، ولا مكان لهن خارج هذا النطاق . .

هذا الكتاب الصغير هاجم حجاب المرأة وظلم المرأة وهوان المرأة ، وطالب لها بحقها فى العدل والكرامة والعزة ، وأظهر للمسلمين مقدار

جريمتهم فى حق مجتمعهم وأمتهم ودينهم ، بما كانوا يتمسكون به من قهر النساء ظلماً وعدواناً ، مخالفين لما يقرره الدين الحنيف . .

أثار الكتاب عاصفة كبرى هزت شجرة الحياة المصرية هزاً عنيفاً ، فتساقط منها ورق كثير كان قد مات وجفّ من زمن طويل . وما إن تساقط هذا الورق حتى أخرجت شجرة الحياة المصرية — والعربية بالتالى — ورقاً جديداً ، ثم زهراً يانعاً ، تغير معه منظر تلك الشجرة تغيراً حاسماً . .

وبعد قليل أخرج قاسم أمين كتابه الثانى « المرأة الجديدة » ، فقضى به على كل أمل كان الرجعيون يتمسكون به للحجر على نصف الأمة الإسلامية ، باسم الشرف الوهمى والتقاليد التى كانت قد تساقطت مع ما سقط من أوراق الشجرة العتيقة . .

وخرجت نساء مصر إلى الحياة العامة فى استبشار وأمل ، وسرن فى الطريق بقدم ثابتة ، ولم يجرؤ أحد من المعارضين بعد ذلك على الوقوف فى طريق الحياة الذى شقه قاسم أمين . .

وعندما توفى قاسم سنة ١٩٠٨ كان منظر المجتمع المصرى يختلف كل الاختلاف عن منظره قبله : دبت فيه قوة جديدة ، وسرت فيه روح شابة وليدة . .

صارت مصر بعد قاسم أمين غير ما كانت قبله . .

وهذه المقارنة تعطيك الوزن الصحيح لقاسم أمين ، كما أعطتك المقارنة الأولى الوزن الصحيح لأحمد بن طولون ودولته الذائعة الصيت . .

هذا المقياس السليم تستطيع الاعتماد عليه فى تقدير ثورة ١٩١٩ وجيلها ، ومقامها ومقامهم فى تاريخ هذا البلد العزيز . .

من عالم الضعف والذل واليأس
إلى عالم القوة والعزة والأمل . .

لا شك فى أن مصر وعالم العرب كانا قبل سنة ١٩١٩ يختلفان كل الاختلاف عن مصر وعالم العرب بعدها . .

قبل ١٩١٩ ، كان الاستعمار والذل والاستسلام والمحاولات الضعيفة للخروج من قبضة اليأس المحتوم كالقدر . .

وبعد ١٩١٩ ، يبدأ السير الحثيث الواعى فى طريق النهوض والأمل ، ويجرؤ الناس على الاحتلال بعد أن تحدوه فى قوة ، وتعرضوا لرصاصه وسجونه ونفيه : فلم يرهبهم الرصاص ولا السجون ولا النفى ، وهان فى نظرهم السلطان ورجاله ، بعد أن تبينوا أنهم ليسوا إلا عبيداً للاستعمار وأدواته . .

والذى حدث أن ثلاثة من أهل مصر توجهوا إلى دار « المعتمد البريطانى » السير ريجينالد وينجيت Sir Reginald Wingate فى صباح ١٣ نوفمبر ١٩١٨ ، وقالوا له إن الأوان قد آن للبحث فى مصير مصر ، وإنهم يضعون المسألة أمامه لأنهم أبناء مصر ومصيرها مسئوليتهم . .

وفهم الرجل أنهم يطلبون الاستقلال لوطنهم ، وأنهم يريدون أن يسافروا إلى أوربا لعرض قضية بلادهم على مؤتمرات الصلح ، التى كان الاستعداد لها يجرى على قدم وساق .

وكان يرى أن مصير مصر مسألة الإمبراطورية البريطانية وحدها ، فهى بلد تحت الحماية الإنجليزية أى جزء من أملاكها وأراضيها . .

ولهذا رفض السماح لهم بالسفر ، وقال إنه ليس لهم الحق فى الكلام

باسم مصر ، فما هم إلا ثلاثة من أعضاء الجمعية التشريعية المعطلة . .

فسارع الثلاثة إلى أخذ توكيل من الشعب ليتكلموا باسمه ، وسارع الشعب فأعطاهم التوكيل بالإجماع ، واعتبرهم « وفداً » موكلا منه للكلام باسمه والمطالبة بحريته .

وفى حفل اقامه حمد الباسل فى ١٣ يناير ١٩١٩ ، خطب سعد زغلول رئيس ذلك الوفد خطابه التاريخى الأول ، الذى قرر فيه حق مصر فى الاستقلال الكامل ، وتصميم الأمة كلها على الحصول على ذلك الاستقلال .

وفى خطابه الثانى فى قاعة جمعية الاقتصاد والتشريع فى ٧ فبراير ١٩١٩ أعلن سعد بطلان الحماية بطلاناً تامًّا ، وقرر أن الشعب يرفضها ويطلب الاستقلال ، وأنه وزملاءه موكلون من الشعب للسعى فى تحقيق هذا المطلب العزيز .

وفى ٢ مارس ١٩١٩ كتب الوفد إلى السلطان فؤاد يطلب إليه أن يؤيد شعبه ، فتخلى السلطان فؤاد عن شعبه . .

وفى ٦ مارس ١٩١٩ تلقى الوفد إنذاراً من المعتمد البريطانى يطلب إلى رجاله أن يكفوا عن سعيهم للاستقلال . .

وفى ٨ مارس اعتقل الإنجليز سعداً وثلاثة من صحبه وأخذوهم إلى ثكنات قصر النيل ، وفى اليوم التالى أرسلوهم منفيين إلى مالطة .

وما علم الشعب باعتقال رجاله حتى انفجر بركان الثورة فى ٩ مارس ١٩١٩ .

فريقاً بعد فريق ، خرج أهل مصر يتحدّون الإنجليز ، غير مبالين بالضرب والاعتقال والسجن ، ولا بالموت . . وسقط منهم الألوف شهداء

وهم يهتفون لمصر . .

لقد قدر عبد الرحمن الرافعي شهداء الثورة المصرية بنحو ثلاثة آلاف ، غير ألوف أخرى أكثر جرحوا وسجنوا وعذبوا . .

وكان هؤلاء الشهداء من كل نواحي مصر : من بور سعيد ودمياط والإسكندرية إلى أسوان ، من مدنها وقراها ، من طلابها وموظفيها وعمالها ومزارعيها ، رجالها ونسائها . .

وتبين الإنجليز أن سلاحهم الوحيد – وهو القوة – لم يعد ينفع ، فتأكدوا أنهم أمام شعب عنيد يأبى أن يتراجع . .

وبدأ الإنجليز فى التراجع . . فأفرجوا عن سعد وأصحابه المنفيين فى مالطة يوم ٧ أبريل ١٩١٩ . .

وكان هذا أول نصر حقيقى كسبه المصريون بدمائهم . .

لقد خطوا الخطوة الأولى فى طريق الاستقلال . .

وبدأ الكفاح المرير فى سبيل الحرية . . كفاح شاق حافل بالتضحيات ، ولكنه كفاح رجال يشحذ الهمم ويقوى النفوس ويزيد العيون بصراً والقلوب وعياً . .

وهذه هى أهمية ثورة ١٩١٩ ، وذلك هو دورها فى تاريخنا . .

فقبل ١٩١٩ ، كانت مصر وأمة العرب تسيران سيرا بطيئاً هادئا نحو الموت . . بعد ١٩١٩ ، انفتح أمام مصر – ثم أمة العرب طريق الحياة ، وهو طريق طويل عسير ، حافل بالنكبات والمآسى ، ولكنها مآس ونكبات على طريق السلامة : مآس تنفع وتعلم ، وإن كانت تؤلم وتعطل المسير . .

قبل ١٩١٩ كنا نجاهد لكى نوجد . .

كانت إنجلترا – صاحبة السيادة على بلادنا – تقول إننا غير موجودين . .

منذ الاحتلال البريطانى فى سبتمبر ١٨٨٢ ، كانت مشكلة المعتمدين البريطانيين[1] هى : كيف يمكن الاحتفاظ بمصر بدون المصريين ؟ !

بعد موت مصطفى كامل سنة ١٩٠٨ ، وخروج محمد فريد من مصر ، واضطراره إلى حياة النفى فى أوربا بعيداً عن وطنه . عقاباً له على حبه إياه ، خيل إلى الإنجليز أنهم نجحوا أخيرًا فى إخراج المصريين من الميدان ، حتى كان يوم ١٣ نوفمبر ١٩١٨ والحديث التاريخى الذى دار بين ممثلى مصر وممثل الاحتلال فى البلاد .

لقد كانت دهشة وينجيت كبيرة وهو يصغى إلى سعد زغلول وعبد العزيز فهمى وعلى شعراوى وهم يتحدثون إليه عن مصر وحقوقها . .

وتستوقف النظر فى ذلك الحديث السطور التالية :

على شعراوى : إننا نريد أن نكون أصدقاء للإنجليز صداقة الحر للحر ، لا صداقة العبد للحر . .

وينجيت : إذن فأنتم تطلبون الاستقلال ؟ !

---

(١) هم على التوالى : الجنرال جارنت وولزلى ، ثم السير إيفلين بيرنج (لورد كرومر) ، ثم الجنرال إلدون جورست ، ثم الجنرال هوراتشيو هربرت كيتشنر ، ثم الجنرال جون ج . ماكسويل ، ثم المستر ميلن تشيتام ، ثم الجنرال هنرى مكماهون ، ثم الجنرال السير ريجينالد وينجيت ، ثم الجنرال إدموند هنرى هاينمان أللنبى .

سعد : ونحن أهل له ، وماذا ينقصنا ليكون لنا استقلال مثل باقى الأمم المستقلة ؟ . .

وينجيت : ولكن الطفل إذا أعطى من الغذاء أزيد مما يلزمه أصيب بالتخمة !

هنا ، فى هذه السطور القليلة من الحوار ، نرى الفرق الهائل بين مصر كما كان يريدها الإنجليز ، ومصر كما أرادها أهلها . .

هذه السطور تعين لنا نقطة النهاية لقرون طويلة من ضياع مصر والمصريين ، ونقطة البداية لوجودها ووجودهم . .

إنها تعين ميلاد مصر من جديد . .

ولكن ، ما هى ثورة ١٩١٩ ؟

فى المؤلفات الإنجليزية التى كتبت من أيام الاحتلال إلى يومنا هذا ، يحاذرون أن يستعملوا كلمة ثورة Revolution فى وصفها . .

يقولون إنها هياج (أو هوجة) Agitation ،

أو قلاقل Disturbances

أو تمرد Mutiny

أو عصيان Rebellion

أو فورة Revolt

أو أعمال عنف Acts of Violence

وقد يستعملون لفظى تظاهرات Demonstrations أو إضرابات Strikes

ولكن لا يستعملون لفظ « ثورة » . .

هذا اللفظ يستعملونه فقط عند التحدث عن ثورات الحرية الغربية ،

كالثورة الفرنسية وثورة اليونان على تركيا . .

حتى المؤرخ اليونانى الأصل « فاتكيوتس » الأستاذ اليوم بجامعة لندن ، يستعير لغة السادة الإنجليز ، فلا يتنازل باستعمال لفظ « ثورة » للتعبير عن قيام الشعب المصرى على الإنجليز سنة ١٩١٩ ، ولكنه يستعمله فى الكلام عن ثورة يوليو ١٩٥٢ ، لأنها لم تكن – فى رأيه – ثورة على الإنجليز أو العرب ، بل ثورة مصريين على مصريين . .

والحقيقة أن ثورة ١٩١٩ ثورة حقيقية من ثورات الحرية ، قام بها أهل مصر – فى جرأة وقوة وعن إيمان – فى وجه دولة مستعمرة غاصبة ، وكان هدفهم تحرير بلادهم وطرد المستعمر منها وإنقاذ أمتهم من الضياع . .

وقد قاموا بها فى وقت لم تكن هناك أمة فى إفريقيه وآسيا لتجرؤ على أن تناقش الإنجليز مجرد مناقشة ، بل كان رجال الحكم فى مصر يحمدون الله على حماية الإنجليز لبلادهم . .

وعندما ألقى سعد زغلول خطابه المشهور فى قاعة جمعية التشريع والاقتصاد فى ٧ فبراير ١٩١٩ وقال كلمته المشهورة : « فى سنة ١٩١٤ أعلنت بريطانيا حمايتها على مصر من تلقاء نفسها ، بدون أن تطلبها الأمة أو تقبلها ؛ فهى حماية باطلة لا وجود لها قانوناً ، بل هى ضرورة تنتهى بنهاية الحرب ولا يمكن أن تبقى بعدها دقيقة واحدة » – عندما تحدى سعد القوة البريطانية بهذه الصراحة ، ريع السلطان فؤاد روعاً شديداً ، وأصيب الإنجليز بما يشبه الذهول . وفى هذه اللحظة بالذات ، خرجت الأمة المصرية من غفلة القرون الماضية إلى وعى الحاضر ووضوح رؤية المستقبل . .

ووصل هذا النداء إلى قلب كل مصرى ، حتى سمعه الفلاحون فى بطون القرى ، فنهضت مصر كلها - أمة عزلاء من السلاح ، قوية بالحق - فأعلنت نهاية الاحتلال البريطانى . .

وبالفعل ، لم يعد الاحتلال إلى قوته وهدوئه واطمئنانه بعد ذلك أبدًا . .

ولقد تعثرت الأمة المصرية بعد ذلك كثيراً فى الطريق ، وأصيبت بنكسات أليمة ، ولكنها لم تعد إلى الوراء ، أبداً .

وبينما كنا فى نوفمبر ١٩١٩ نسعى إلى مجرد إسماع صوتنا ، أصبحنا فى فبراير ١٩٢٢ نرفض تصريحاً إنجليزيًّا يعطينا استقلالا مشروطاً بتحفظات . .

وبينما طرب لذلك التصريح السلطان فؤاد ، وأسرع فجعل نفسه ملكاً صاحب جلالة ، وتقدم يزف البشرى بذلك إلى الأمة ، كانت الأمة ترفض الاستقلال الزائف ، وترفض الملك وترفض جلالته أيضاً ، وتقرر أنها ستواصل السير ، لأنها لم تصل إلى هدفها الحقيقى وهو الاستقلال التام

ولا تقف أهمية تلك الثورة عند التغيير النفسى الهائل الذى أدخلته على روح هذا الشعب ، ونقلها إياه من الضعف والهزيمة والاستسلام إلى القوة والإيمان بالنصر والتحدى ، بل إنها أطلقت القوة الكامنة فى نفوس الشعب ، فظهر - فى كل ميدان تقريبًا - رجال عباقرة جددوا حياة مصر ، وفتحوا أمام شعبها آفاق العمل والإنشاء واسعاً عريضاً .

مثلها فى ذلك مثل كل الثورات الكبرى : الفرنسية والأمريكية والروسية وغيرها .

هذه الثورات كلها كانت معارك حياة ، وكما بدأت كل ثورة منها عصراً جديداً فى تاريخ الإنسانية ، فكذلك ثورة ١٩١٩ بدأت فى تاريخ الأمة العربية والقارة الإفريقية عصرًا جديدًا .

فعلى هدير ثورة مصر أفاقت الأمة العربية ، وعرفت اتجاهها الصحيح بعد دوران طويل فى الفراغ . .

الثورة المصرية والثورة العربية

ولكى تتضح هذه النقطة أمامنا ، نقف هنيهة لنقارنها بالثورة العربية التى سبقتها بقليل .

وأعتقد أنه يجدر بنا – فى هذه المناسبة – أن نلقى نظرة سريعة على تلك الثورة العربية ، التى تلاقت مع ثورتنا على طريق النضال .

الثورة العربية ولدت – أول الأمر – كحركة فكرية ، ثم تحولت فى أثناء الطريق – إلى حركة سياسية ، بعيدة تماماً عن معنى الثورة الشعبية الشاملة .

ولدت هذه الثورة فى صورة نهضة فكرية فيما بين سنتى ١٨٣٠ و ١٨٤٠ ، أى فى أثناء الحكم المصرى للشام . صاحب الفضل فيها هو إبراهيم ابن محمد على فاتح الشام وحاكمه خلال هذه الفترة . لقد تحول هذا التركى إلى مصرى عربى وهو يعمل مع جنوده المصريين فى مصر ، وعمل دائماً على تشجيع المصريين على النهوض والحلول محل الأتراك فى قيادة الدولة المصرية الناشئة . عندما بدأ العمل فى الشام ، طافت بذهنه فكرة إنشاء دولة عربية تحل محل الدولة العثمانية .

اتبع إبراهيم فى الشام سياسة حرة ، ووضع حداً لعسف الأتراك بعرب الشام ، فأنشأ فيه المدارس وفتح أبوابه للمدارس الأجنبية ، فبدأ العلم الحديث يدخل أرض الشام ، كما دخل أرض مصر قبل ذلك بسنوات .

وعندما أرغمت مصر على التخلى عن الشام وعاد إبراهيم إلى مصر سنة ١٨٤١ ، لم يعد الشام ولاية تركية كما كان الحال قبلا . بدأت قصة اليقظة العربية ثم النهضة والحركات الفكرية ودعوات التحرر ، وظهرت عبقريات بطرس البستانى وإبراهيم اليازجى وأضرابهما من رواد اليقظة الفكرية العربية فى ربوع الشام .

وبعد ذلك سارت الحركة فى طريقها فى بطء بقية القرن التاسع عشر ، متخطية عقبات بعد عقبات .

وتولى السلطان عبد الحميد عرش آل عثمان سنة ١٨٧٦ ، وبدأ عصره الحافل بالتطورات فى كل بلاد الإمبراطورية ، بما فى ذلك العربية منها . ولكن هذا المستبد الشرير الذى لم يخل من عبقرية — دفع بحركة النهوض العربى دفعة قوية إلى الأمام ، فسياسته العربية الإسلامية التى انتهجتها من سنة ١٨٧٨ ، فتحت أمام العرب ميدان العمل السياسى بعد أن كان محرماً عليهم . وسواء أفعل عبد الحميد ذلك عن حسن نية أم عن سوء طوية ، فقد أصبح من العرب وزراء وحكام ومشيرون . وارتفعت اللغة العربية — للمرة الأولى — إلى مستوى اللغة التركية فى الأعمال الرسمية للدولة . وعندما عزل فى سنة ١٩٠٨ ، كانت حركة العروبة قد أصبحت حقيقة واقعة : كان العرب قد وضعوا أقدامهم على سلم التحرر ، وأصبحوا شركاء لآل عثمان فى السلطان .

ومن أسف أن العرب ورجال الاتحاد والترقى لم يفهم أحد منهما الآخر ، ووقع الخلاف وسوء الظن بين الجانبين ، ربما نتيجة لدسائس يهود سالونيك – وكان تأثيرهم على رجال الاتحاد والترقى عظيماً – وليس مصادفة أن هذه الحركة ولدت فى سالونيك .

ووقع الصراع العنيف بين الترك الجدد والعرب الجدد ؛ ثم قامت الحرب العالمية الأولى ، وأدرك رجال تركيا أنهم بحاجة إلى عون العرب .

وكان من الممكن أن تكسب الحركة العربية لنفسها كسباً مؤكداً من ظروف الحرب وما قبلها ، لو لم تظهر جماعة المغامرين الطامعين ، الذين كسروا مسيرة الحركة العربية وأرادوا تحويلها إلى مؤامرة لوضع الحسين بن على شريف مكة وأولاده على عرش يؤيده الإنجليز . ولقد أيدهم – مع الأسف – نفر من قادة العرب ، ما بين مخدوعين وطامعين ..

هنا نجد الحركة تتحول من حركة أمة عربية إلى حركة أسرة : رجل وأولاده أرادوا أن ينشئوا لأنفسهم عرشاً – أو عروشاً – وصمموا على أن يستخدموا جهود العرب جميعاً – فى تحقيق هذا الهدف الأنانى ، الذى لا يكسب العرب من ورائه شيئاً . .

وبينما نجد الذين نهضوا للكلام باسم مصر أبناء فلاحين من صميم الريف . . نجد الذين اغتصبوا الحركة العربية ووجهوها لخدمة مصالحهم أسرة طامحة من عرب الحجاز ، هم الحسين بن على وأولاده . .

وبينما كان سعد وأصحابه يطالبون لأمتهم بوطنها . . كان الحسين ابن على يطالب بعرش لنفسه . .

وبينما لجأ سعد وأصحابه إلى الحصول على توكيل رسمى من الأمة

المصرية للتحدث باسمها فى طلب الاستقلال . . نجد الحسين بن على يسعى للتفاهم مع الجنرال السير هنرى مكماهون المعتمد البريطانى فى مصر لكى تنصبه بريطانيا حاكماً على العرب . .

وبينما كان سعد وأصحابه رجال جد وعزم وعقل وعلم وإيمان . . نجد الحسين بن على وأولاده – ربما باستثناء فيصل – رجال مكر ومناورة وجلافة وذكاء فطرى ، يذكرنا بجبابرة حكامنا فى العصور الوسطى ، الذين هووا بنا إلى درك سحيق . .

لهذا كان من الطبيعى أن يخدعهم الإنجليز والفرنسيون ، ومن المؤكد أن معاهدة « سايكس – بيكو » السرية ما كانت لتعقد لو أن المتحدثين باسم العرب فى ذلك الحين كانوا ممثلين صادقين للأمة العربية ، لا أفراد أسرة من المغامرين كانوا يسعون لإنشاء ملك خاص لهم على حساب إخوانهم فى الدين . .

ومن الغريب أن الحسين بن على وابنه عبد الله كانا فى غاية التشدد وسوء الظن مع الأتراك ، وأما مع الإنجليز فكانا – وكل رجالهما – يثقون فيهم ثقة لا حد لها[1] ، وتركوا لهم – يا للعجب ! – أمر وضع حدود الدولة العربية التى ظنوا أن الإنجليز سينشئونها ويرفعونهما على عرشها . .

---

(١) انظر التقرير السرى الذى كتبه السير مارك سايكس فى القاهرة فى ١٤ يوليو ١٩١٥ ، وتحدث فيه عن مشروعات تقسيم الأملاك العثمانية فى آسيا وعن آراء بعض زعماء العرب فى القاهرة . نشره لأول مرة د . مكى شبيكة فى كتابه القيم « العرب والسياسة البريطانية فى الحرب العالمية الأولى » ، بيروت ١٩٧٠ ، ص ١٣٢ وما بعدها ؛ وانظر بصفة خاصة الفصل الذى عنوانه « اتصالات بريطانيا مع العرب » ، ص ٥٦ وما يليها .

ثم كان الانقلاب الدموى على الأتراك فى أثناء الحرب . . يوم وقع هذا الانقلاب فى العاشر من يونيو ١٩١٨ ، وهاجم الشريف حسين ورجاله الحامية التركية فى مكة مستعينين بأسلحة ومدافع إنجليزية ، تقرر مصير الخلافة العثمانية وقضى على آمال العرب بالضياع . .

نعم . وعندما وقفت قوات فيصل بن الحسين بن على إلى جانب قوات الجنرال أللنبي ضد الأتراك ، ضاعت فلسطين . . لقد ظن فيصل أنه كسب عرشاً عندما دخل دمشق وأعلن نفسه ملكاً عليها فى أول أكتوبر ١٩١٨ ، ولكنه نسى أن عمله هذا أدى إلى هلاك ٣٥ ٠٠٠ جندى وضابط تركى ، هلكوا فى الفيافى الممتدة من المدينة إلى دمشق عطشاً وجوعاً وتخطفهم البدو ، ونتيجة لهذا تمكن الجنرال أللنبي من دخول القدس دخول الظافرين وبينما كان الشريف حسين وأبناؤه يحكمون على إخوانهم فى الدين بالموت - كان الجنرال أللنبي يعلن فى القدس : « اليوم انتهت الحروب الصليبية ! » .

عقب دخول أللنبي القدس وصلت أول بعثة صهيونية إلى أرض فلسطين ، للشروع فى تنفيذ وعد بلفور الذى كان قد صدر فى ٢ سبتمبر ١٩١٧ . كان القائم بالعمل فى القدس ضابطاً شاباً (يومئذ) هو رونالدستورز . وصل حايم وايزمان إلى القدس وأخذ يلقى الأوامر إلى رونالدستورز ، ولما احتج رونالد عزلته بريطانيا وأقامت فى القدس أول معتمد لها : اليهودى الصهيونى هربرت صمويل ، وبدأت عملية تسليم فلسطين لليهود . .

هل بالغنا عندما قلنا إن فلسطين ضاعت يوم انقلب الشريف حسين على الأتراك فى العاشر من يونيو ١٩١٨ ؟

وهكذا ، لكى يكسب عرشاً فى دمشق ضاعت فلسطين . .
وليت العرش دام !
أى مأساة !

على خلاف ذلك : لقد نبعت الثورة المصرية من صميم مصر ، وسارت فى خط محمد عبده الفلاح المصرى الأصيل . لم تتحول عن ذلك الخط أبداً . حاول عباس حلمى أن يستغلها لحسابه ، واجتهد فى خداع مصطفى كامل ، ولكن مصطفى كامل لم ينخدع ، أما الشيخ على يوسف فانخدع وانتهى دوره فى القضية المصرية . ثم صبت هذه الثورة – آخر الأمر – فى أرض مصر ، فكانت ثورة ١٩١٩ وجيلها الذى نهض بمصر وعالم العرب بعد ذلك نهضة كبرى .

أما الثورة العربية فقد نبعت من صميم العرب ، ولكن مغامرى الحجاز اغتصبوها وحالفوا الإنجليز وانقلبوا على إخوانهم المسلمين فى وسط المعركة ، فضاع أمرهم ولم تصبّ ثورتهم فى أرض العرب ، بل فى تيار الإمبراطورية البريطانية وحليفتها الصهيونية . .

وكل مصائب العالم العربى بعد الحرب الكبرى ، نشأت عند ذلك الاغتصاب الذى كسر مسيرة الحركة العربية كسراً لم تلتئم بعده . .

لقد واصل سعد ومن معه عمل عرابى ومحمود سامى البارودى ومصطفى كامل ومحمد فريد ومحمد عبده . . ولم يواصل مغامروا الحجاز عمل عبد الرحمن الكواكبى أو غيره من مفكرى النهضة العربية . . ولهذا كانت ثورة ١٩١٩ دفعة إلى الأمام ، أما الثورة العربية التى قادها شريف مكة فقد كانت نكسة قاسية إلى الوراء . .

لقد قال سعد زغلول فى خطبة ألقاها فى ١٩ سبتمبر ١٩٢٣ : « لست خالق هذه النهضة كما قال بعض خطبائكم . لا أقول ذلك ، ولا أدعيه ، بل لا أتصوره . . إنما نهضتكم قديمة ، تبتدئ من عهد مؤسس الأسرة المالكة محمد على ، وللحركة العرابية فضل عظيم فيها ، وكذلك للسيد جمال الدين الأفغانى وأتباعه وتلاميذه أثر كبير ، وللمرحوم مصطفى كامل باشا فضل غزير فيها أيضاً ، وكذلك للمرحوم محمد فريد بك » .

خط واحد مستقيم . .

قارن بهذا الكلام ذلك الانكسار المحزن الذى صادفته الثورة العربية عندما اغتصبها وانحرف بها مغامر الحجاز وأولاده ، ومن انخدع بهم مثل رشيد رضا . لقد كتب السير هنرى مكماهون المعتمد البريطانى فى مصر ملاحظات دونها فى مذكرة سرية حررها سنة ١٩١٥ ونشرها د. مكى شبيكة فى كتابه الآنف الذكر (ص ٢٢٧) ، وفى هذه المذكرة تقرأ العبارة التالية : « . . ويشير الشريف – بتحديد ووضوح أكثر مما ورد فى رسائله السابقة – إلى موضوع الخلافة ، وأنه هو أحق بها من غيره ، ولكنه يود أن يركز سلطته الزمنية قبل أن يدعى للخلافة ، ويذكر مرة أخرى أنه سيسعى لمنع مهدى الصومال من الاستمرار فى التمرد على بريطانيا » . .

أى خادع مخدوع ! وأى خادم مخلص للإنجليز ! . . هل كان

يخطر بباله وهو يمنى نفسه بأحلام الخلافة أنه يمهد الطريق لتسليم فلسطين للصهيونيين ؟

كان يعلم !

وبين أيدينا اليوم وثائق لا شك فيها ، متبادلة بين شريف مكة هذا وأولاده ، فيها تفاهم واتفاق مع الصهيونيين على هذا المصير !

(٢)

الفلاحون : لا ملائكة ولا شياطين . .
ولكنهم قوة هائلة ينقصها قائد . .

عندما وضعت الحرب العالمية الأولى أوزارها ، ساد مصر كلها شعور عام بالخوف من المصير . . كان هناك شعور بأن شيئاً ما ينبغى أن يعمل ، ليمنع الإنجليز وعملاءهم من أن يقضوا على مصر قضاء مبرماً . .

هناك من يقولون : إن فكرة الثورة ولدت وعاشت فى أوساط محددة ضيقة من المتعلمين الطامحين إلى السلطان ، ومن الأثرياء وأنصاف الذين جمعوا أموالهم أيام الاحتلال وفى أثناء الحرب العالمية الأولى ، وأن هذا الرخاء كان الحافز الرئيسى للمصريين على التحرك والاستجابة لنداء الثورة . .

هناك وجه من الصدق فى هذه الملاحظة ، لأن الحركات القومية فى حاجة إلى شىء من الرخاء والحرية لتولد وتنمو . .

ولكننا ينبغى أن نلاحظ – فى الوقت نفسه – أن هذا الرخاء كان محدوداً جداً ، ومحصوراً فى دائرة ضيقة من المصريين .

أما الذى كان عاماً وشاملا ، فهو الفقر والشعور بالظلم والضياع . .

فإن الاحتلال الإنجليزى اصطنع طبقة رخيصة من الناس ليحكم

بها وعن طريقها . . طبقة تتكون من نفر من المتعلمين فى العاصمة وبعض المدن ، ونفر من الأثرياء وأنصاف الأثرياء ، ممن سمحت لهم سلطات الاحتلال بتملك مساحات من الأرض الزراعية – كبيرة أو صغيرة – وساعدتهم على استغلالها واستثمارها بمشروعات الرى التى اهتموا بها اهتماماً كبيراً .

ومن هؤلاء – أيضاً – نفر نهضت بهم سلطات الاحتلال إلى الوظائف الكبرى ، وسمحت لهم باستغلال نفوذهم فى الإثراء بصور شتى ، وبهذا أصبح الكثير من رجال الحكم صنائع للاحتلال ورجاله وأدواته ، ومعظم الوزراء ووكلاء الوزارات والمديرين والمحافظين ومن إليهم ، ممن تقلدوا الوظائف الرئيسية منذ دخول المحتلين حتى نهاية الحرب العالمية الأولى ، يدخلون فى هذه الطبقة . .

وهذه الطبقة لم تشارك فى الثورة قطعاً ، ولا هى تعاطفت معها ، وإنما هى أشاعت فى البلاد رخاء ملحوظاً كان من العوامل التى ساعدت على قيام الثورة ؛ فإلى جانب كبار الموظفين نشأت قاعدة أوسع من الموظفين صغاراً وكباراً ؛ وهؤلاء جميعاً كانوا يجرون فى فلك الكبار ويقلدونهم .

وإلى جانب كبار الملاك فى الريف نشأ عدد كبير من صغار الملاك وأوساطهم من الأذكياء وذوى النشاط والتطلع ، فكثر فى البلاد المياسير والمساتير .

ونهض إلى جانبهم كثيرون من أهل الحرف ممن تعلموا على أيدى رجال الجاليات الأجنبية ، وبخاصة الإيطاليين والأرمن واليونانيين . وظهرت فى البلاد طبقة من أصحاب الصناعات الحديثة ، مثل حياكة

الثياب والنجارة والسباكة والأعمال الميكانيكية والكهرباء وتسيير ماكينات الرى وحلج القطن والقاطرات البخارية ، وغير ذلك مما لم يكن منه بد لتسيير البلاد فى الطريق الحديث . وقد كثر هذا الطراز من العمال فى القاهرة والإسكندرية وبور سعيد والإسماعيلية والمنصورة وغيرها من العواصم ، ومنهم من تمكن بجهده من إنشاء ورش أو محلات تجارية أو محالج .

وقد كانت الحرب فرصة كبرى لهؤلاء جميعاً فربحوا وتمول كثيرون منهم ، وساعدهم على ذلك ثبات الجنيه المصرى وقوته الشرائية ، وسهولة التعامل به مع الخارج دون قيد أو شرط ، فتدفقت المنتجات الخارجية على البلاد بغزارة ، وتكاثرت الدكاكين الحديثة فى الشوارع الجديدة ، وانتقل مركز الحياة فى مدينة القاهرة من الغورية وتحت الربع والمغربلين والفحامين ، إلى شارع محمد على وشارع عبد العزيز وميدان العتبة الخضراء . وبعد الحرب والثورة مباشرة سينتقل هذا المركز مرة أخرى ، إلى ميدان الأوبرا وشوارع بولاق وعماد الدين والمناخ وقصر النيل وما إليها .

هذه الانتقالات رموز على تطور شامل كان يجرى فى البلد كله ، لأن الانتقال من الغورية وتحت الربع إلى شارع محمد على وشارع عبد العزيز ، كان معناه انتقال القيادة الاقتصادية من وكالات الغورية وحى الأزهر إلى محلات حديثة المظهر والطبيعة ، وانتقال عجلة القيادة من أيدى أصحاب القفاطين والعمائم من التجار ، إلى أيدى الأفندية لابسى الطرابيش أو أنصاف الأفندية ، وكلنا نعرف هيئة التاجر أو صاحب الورشة ذى الجبة والقفطان والطربوش والحذاء الحديث ،

فهذا – ولا شك – نصف أفندى ، وهو طراز يدل على تحول اجتماعى واقتصادى أيضاً .

جيل جديد لعصر جديد

وأهم من هؤلاء جميعاً ، كان أبناؤهم الذين ذهبوا إلى المدارس وتخرجوا فيها ، وتوظفوا بعد البكالوريا مباشرة ، أو درسوا فى مدارس الطب والمهندسخانة والمعلمين والقضاء الشرعى ودار العلوم والحقوق وما إليها ، فهؤلاء كانوا ظاهرة اجتماعية وقاعدة عريضة للعمل السياسى االاقتصادى . والأجيال الأولى من هؤلاء هم الذين أيدوا مصطفى كامل ، وتحمسوا وتأثروا بكلامه البالغ العمق الشديد الإخلاص ، ولكن مشاركتهم له اقتصرت على مجرد السماع والتأثر ، لأن ظروفه لم تسمح له بأن يقودهم إلى أبعد من ذلك .

نعم إنه كان يهاجم الاحتلال ويطالب بالاستقلال التام ، ولكنه لم يوضح لأتباعه كيف . . فلكى يتحرك الناس ينبغى أن يعرفوا كيف يتحركون ، لابد أن نرسم لهم الخطوات الأولى على الأقل ، وأهم من ذلك لابد أن يعرفوا إلى أين ، ومن يقود المسير . .

هذه الطبقة الجديدة من الشباب ، ما بين تلاميذ وخريجين ، كانوا يحسون تماماً بمحنة بلادهم عندما انتهت الحرب ووقعت الهدنة واقترب موعد مؤتمرات السلام ورسم خريطة جديدة للدنيا . كانوا يشعرون بذلك ، ولكن كان ينقصهم القائد الذى يستطيع تحويل الخوف إلى عمل ، والغضب إلى إرادة ، ويقود المسير .

هذه الطبقة الجديدة من الشباب ، مابين تلاميذ وخريجين ، كانوا

يحسون تماماً بمحنة بلادهم عندما انتهت الحرب ووقعت الهدنة واقترب موعد مؤتمرات السلام ورسم خريطة جديدة للدنيا . كانوا يشعرون بذلك ولكن كان ينقصهم القائد الذى يستطيع تحويل الخوف إلى عمل ، والغضب إلى إرادة ، ويقود المسير . .

وقد عجزت كل الهيئات العاملة فى الميدان السياسى – إذ ذاك عن أن تقوم بذلك العمل ، فأما الحزب الوطنى فقد كان نشاطه – فى مجموعه – عملية بكاء وتحسر وتخويف للشعب ، ومطالبة بالجلاء هى أقرب إلى الصلوات والدعوات منها إلى العمل السياسى الإيجابى . .

ولقد كان مصطفى كامل شخصية فاتنة ، وكان زعيماً مخلصاً ما فى ذلك شك ، وكان حبه لمصر يفوق كل تصور ، ولقد استطاع بفروسيته وبلاغته أن يغرس فى قلوب المصريين فكرة ضرورة إجلاء البريطانيين عن بلادهم ، ولكنه لم يقل لمواطنيه كيف يستطيعون ذلك ، لأن رؤية الهدف لا تغنى عن البحث عن الطريق إليه ، بل إن هذه الرؤية تصبح عذاباً إذا لم يجد الإنسان طريقاً يوصله إليه . نرى ذلك بوضوح فى حياة محمد فريد خليفة مصطفى كامل ، فقد كان يرى الهدف ولكنه لا يعرف الطريق إليه ، فكانت حياته لذلك – عذاباً طويلا . .

وقد تنبه مصطفى كامل إلى ذلك قبيل وفاته ، فأنشأ الحزب الوطنى فى ٢٢ أكتوبر ١٩٠٧ ، وبذل جهداً كبيراً فى تنظيمه وترتيب تحرير جريدته « اللواء » ؛ ولكنه لم يعش بعد ذلك طويلا ، إذ توفى فى فبراير ١٩٠٨ ، أى بعد إنشاء حزبه بأربعة أشهر فحسب ، توفى فى ريعان شبابه تاركاً لخلفه محمد فريد التركة الحزينة التى وصفناها .

ولقد تولى تحرير « اللواء » بعد ذلك عبد العزيز جاويش ، وهو من الزعماء الذين يخلقون من المشاكل أكثر مما يحلون . كان جاويش — مثل رشيد رضا والكثيرين من زعماء العرب فى ذلك العصر — يعتقد أنه يحل المشكلة إذا وصفها وصفاً بليغاً ، وقد كاد هذا الرجل — بتعصبه — أن يغرق البلاد فى بحر من الفتن ، ولكن عقلاء الأمة تداركوا الأمر لحسن الحظ .

فى الوقت نفسه تقريبا أنشئ حزب الأمة ، أو حزب الأثرياء والمياسير ونفر من المعلمين ، والكثيرون من هؤلاء جمعوا أموالهم وطغوا على السطح أيام الاحتلال ، فلم يكن لديهم — لهذا — مسوغ عميق لكراهيته أو العمل الحثيث للقضاء عليه سريعاً ؛ أولئك هم جماعة محمود سليمان باشا وحسن عبد الرازق باشا وأحمد لطفى السيد باشا ، ومن إليهم ممن شاركوا غيرهم من معاصريهم الإحساس بالخوف على المصير ، وفكروا فى الاستقلال ورسموا لأنفسهم طريقاً إليه ، طويلا وصريحاً فى الوقت نفسه ، طريقاً لا يفرض عليهم تضحيات ولا مواجهات ، وإنما هم يتكلمون فقط كلاماً معقولا ، خلاصته أن مصر المستقلة ينبغى أن تكون دولة حديثة ، متعلمة ومنظمة على الطريقة الغربية ، وأن الاستقلال يأتى نتيجة لارتقاء شعب مصر إلى هذا المستوى ، وإذن فليس علينا إلا أن نجتهد فى تعليم الشعب وترقيته وتنظيمه ، حتى يصل إلى المستوى المطلوب فيشتقل من تلقاء نفسه . .

ومن الحق أن نقرر أن آراء رجال حزب الأمة — كما عبر عنها كاتبهم أحمد لطفى السيد فى « الجريدة » — كانت آراء جريئة وتقدمية ،

فقد نادوا بضرورة وضع دستور للبلاد ، والحد من سلطان الخديو ، ودعوا إلى إقامة الحكم كله على أساس النظام النيابي . وقد نفر الخديو عباس حلمي من هذه الآراء ، وأحس أنها أثقل على قلبه من نداءات مصطفى كامل العنيفة المتشددة ، ولهذا عادى حزب الأمة ، ولكنه لم يستطع أن يفعل شيئاً ، لأن الحزب ورجاله كانوا – إلى حد ما – يحظون بتأييد سلطات الاحتلال . .

لهذا لجأ الخديو إلى إنشاء حزب خاص به سماه حزب الإصلاح الدستوري ، واستخدم فى إنشائه الشيخ علي يوسف وجريدته « المؤيد » . .

ولا يمكن القول إن علي يوسف كان مفكراً وطنيًّا ممتازاً ، ولكنه – دون شك – كان شخصية قوية ، لها أبعادها ولها دورها فى تاريخ الصحافة المصرية . .

ولقد كان على عداء مع مصطفى كامل والحزب الوطنى ، وكان – أحياناً – يهاجم الاحتلال وينقده ، ولكنه كان حريصاً – دائماً – على أن يظل على وفاق مع المعتمد البريطانى من ناحية و« عطوفة أفندينا » من ناحية أخرى . .

وعطوفة أفندينا هذا – عباس حلمى الثانى – كان مواطناً تركيًّا وموظفاً بريطانياً على عرش مصر ، ولهذا كان – دائماً عنصراً غريباً على مسرح السياسة المصرية ، وأنت تشعر دائمًا – وكأنما هو ممثل ضل طريقه إلى مسرح آخر ورواية أخرى . .

هؤلاء – جميعاً – كانوا فى واد ، وكتلة شعب مصر فى واد آخر . . حقًّا كان الحزب الوطنى أقرب الجميع إلى كتلة الشعب ، لمهاجمته

الإنجليز ومناداته بالجلاء ، ولكن عواطفه العثمانية كانت تسدل حجاباً بينه وبين الفلاح المصرى ، الذى كان ينفر من كل ما هو « عثمانلى » . وهنا نجد أن رجال حزب الأمة - برغم أرستقراطيتهم وزواج حزبهم العرفى بالاحتلال - كانوا أقرب إلى ذلك الفلاح . فهم يتحدثون مثله عن مصر والمصريين ، وعن الزراعة والأرض والأسعار ، والكثيرون منهم - مثله - فلاحون يتكلمون مثله بالصعيدية أو البحراوية ، وإن كانوا - طبعاً - أغنى منه بكثير . .

ولكن هذه الأحزاب - جميعاً - كانت تقوم بضجتها فى ركن صغير جداً من المسرح المصرى : كان أتباع الحزب الوطنى آلافاً قليلة من الأفندية وطلبة المدارس العالية المتحمسين ، أما أتباع حزب الأمة فلم يكونوا ليبلغوا بضع مئات ، وكانت « الجريدة » - لسان حال حزبهم - أهم وأبعد أثراً من الحزب نفسه ، لأنها كانت صحيفة ثقافية تقوم بالدور الذى سيقوم به « السياسة الأسبوعية » فيما بعد ، وهى مجلة صدرت عن حزب الأحرار الدستوريين وريث حزب الأمة . أما حزب الإصلاح الدستورى فكان مشروع رجل واحد ، رجل مغامر جرىء ذكى عرف كيف يشق لنفسه طريقاً وسط بحر ملئ بالمخاطر والمتاعب ، وهذا الرجل هو على يوسف .

كان رجال هذه الأحزاب جميعاً يتحاورون ويصخبون فى شبه غرفة واسعة ، وكان الشعب يسمع أصداء هذا الصخب ، وربما رأى خلال النوافذ والشرفات هؤلاء الأشخاص يروحون ويجيئون ، ولكنهم كانوا بعيدين عنه ، يلقون إليه بالتحية من حين إلى حين ، ولكنهم لا يلتقون به إلا فى النادر . .

الإدارة ، أداة من أدوات الاحتلال

أما الذين كان يراهم دائماً ويحس بوطأتهم باستمرار فرجال الحكومة ، وخاصة المحصل والمحضر وشيخ الخفر وضابط النقطة وشيخ البلد ، ورجال السلطة الذين كانوا يجمعون الأنفار للتجريدة أو للخدمة ، ويستولون على المواشى والجمال والمحاصيل ، وهؤلاء جميعاً كانوا فى نظر الفلاح زبانية جهنم ، الموكلين بامتصاص دمه ومصادرة بهيمته والحجز على محصوله وأخذ ابنه وخراب بيته . وهؤلاء جميعا – ومثلهم جيش جرار من موظفى الحكومة – لا رحمة عندهم ولا إنسانية ، وظيفتهم الأساسية اعتصار دم الفلاح ، وعيونهم مفتوحة إلى كل ما يملك مهما قل ، حتى العنزة الهزيلة التى ترعى فى الفناء ، والدجاجة المريضة التى تقتات بالنفايات أمام الدار ، وكيلة الذرة التى يطعم منها عياله ، هؤلاء كانوا يطاردونه ويتعقبونه منذ الأزل ، وقد انضاف إليهم فى أيام الإنجليز مفتش الرى والمساح ، ومقاول أنفار العونة واليونانى أو اليهودى أو المالطى الذى يطوف بالريف يبحث عن الفلاح المرهق المعسر ، ليشترى منه قنطار القطن بسبعة عشر ريالا ، كان الفلاح يقبضها لأنه لا يستطيع انتظار ٤٢ ريالا ، تعطيه إياها الحكومة ثمناً للقنطار ولكن بعد إجراءات مرهقة طويلة ، وربما أخذ هذه الريالات القليلة ليدفعها رشوة لمقاول أنفار السلطة ، لكى يترك له ابنه الوحيد فلا يبلغ عنه « نقطة » البوليس . .

عن متاعب هذا الفلاح ما كان أحد من اللاعبين على مسرح لسياسة يقول شيئاً ، كان رجال الحزب الوطنى يتحدثون عن الاستقلال

التام فى مجتمعاتهم ، ولكن ندر أن خرج واحد منهم إلى قرية ليرى مأساة بلاده الحقيقية ، وكان رجال حزب الأمة يكتبون عن العدالة الاجتماعية ، أما رجالهم فى الأرياف فينزلون الويلات بالفلاحين ليأتوهم بالأموال التى ينفقونها فى التصييف فى أوربا كل سنة . . أما رجال الحكومة ورجال السلطة – من رئيس النظار حسين رشدى باشا إلى كاتب شونة البنك الزراعى (الإنجليزى) – فقد كانوا يعاملون الفلاح على أنه مخلوق من حجر أو من خشب لا يحس ولا يشعر . .

وذلك العبء كله حمله الفلاح فى صمت

ولكن الفلاح نفسه كان يشعر أنه إنسان كامل وليس مخلوقاً من حجر أو خشب ، ولكنه كان يائساً تماماً من أى لون من ألوان الإنصاف ، بل لم تكن هناك وسيلة لإيصال صوته لأحد ، ثم إنه كان عاجزاً عجزاً مطلقاً عن الدفاع عن نفسه أمام هؤلاء الأعداء الكثيرين ، لأن الدفاع يكون بأحد أمرين : العلم أو السلاح ، أو كليهما . فأما العلم فلم يكن له إليه سبيل ، ولا أحد ينور ذهنه أو يأخذ بيد ابنه إلى المدرسة ؛ وأما السلاح فقد حرّموه عليه من قرون طويلة . وبتوالى الظلم واليأس تجمد الفلاح مكانه ، وأصبح لا يهتم كثيراً لما يجرى عليه أو حوله ، ولهذا لم يفهمه أحد ، ومرت القرون وهو على حاله وفقره وما يعانيه من الظلم والآلام .

غير أن الفلاح عندما جمد فى مكانه طوى نفسه على مافيها من كل خير وشر ، ومن الحق أن نقرر أن هذه النفس الفلاحية كان فيها خير كثير وإنسانية ذات عمق ، تستتر خلف ما كان يبدو للناس منه من بلادة وجمود ذهن وبعد عن تيار الحياة وعزوف عن القتال .

فهذا الفلاح نفسه ، عندما جنده محمد على فى النصف الأول من القرن التاسع عشر ، أثبت أنه جندى ممتاز قادر على كسب المعارك الكبرى . ولقد سار بالفعل – عندما وجد قادة قادرين – فاتحاً حتى وصل إلى منابع النيل وحدود الحبشة وبلغ ساحل المحيط الهندى ، وفى يوم ما وصلت فيالق الفلاحين إلى الخليج العربى ورفعت راية مصر عليه .

ومن بطولة الريف ظهر – فى الفترة التى نتحدث عنها – أعاظم الرجال الذين غيروا وجه مصر عندما أتيحت لهم الفرصة : من هنالك خرج رفاعة رافع الطهطاوى وعلى مبارك وأحمد عرابى وعلى طلبة ومحمد عبده وسعد زغلول ومحمد محمود ومصطفى النحاس وعباس محمود العقاد وطه حسين وأحمد لطفى السيد وعبد العزيز فهمى وعبد الرزاق السنهورى وعلى إبراهيم وغيرهم من رجال الجحفل اللجب الذى صنع مصر الحديثة وتكون منه جيل سنة ١٩١٩ الذى نتحدث عنه .

والحق أن الملايين التى كانت تعيش فى الأرياف – فى المدن والقرى على السواء ، لأن مدن الريف لم تكن إذ ذاك إلا قرى كبيرة – كان باطنها أحسن بكثير من ظاهرها – بعكس السادة الحاكمين فى أيام الاحتلال من الشراكس والألبان والأتراك ، ممن كان وجودهم كله فى ظاهرهم ، إذ لم يكن لهم باطن على الإطلاق . ولسنا نبالغ مبالغة المغرقين فى امتداح الفلاحين ممن يصورونهم وكأنهم ملائكة ، لأن الحق أنهم لم يكونوا لا ملائكة ولا شياطين ، وإنما نحن نقول الحق عندما نؤكد أن نفوسهم انطوت على قوة ضخمة ، كفيلة بتغيير اتجاه تاريخ مصر إذا وجدوا من يقودهم قيادة صحيحة ، وكانت فيهم ملكات كثيرة كامنة مستعدة

للتفجر والانطلاق إذا وجدت إلى ذلك سبيلا .

ولقد قست حكومات عصر الاحتلال على هذا الفلاح قسوة بالغة ، ولكنها – حتى قيام الحرب العالمية الأولى – لم تبلغ فى ذلك مبلغ المماليك أو الأتراك ، فقد أتاحت لكل فلاح أرضاً يزرعها ويكسب منها معاشاً لا بأس به ، وتركت له ماشيته وحماره وجملة . . ولا شك أن أحوال الفلاحين استقرت وهدأت بعد طول فوضى واضطراب ، ومن سنة ١٨٩٠ إلى سنة ١٩١٤ تحسنت أحوال الفلاحين تحسناً حقيقيًّا ، واقتنى الكثيرون منهم الأراضى ، ورخيت أحوال القرى وامتنع عنها الكثير من صنوف المظالم الماضية ، لمجرد زوال طبقة اللصوص التى كانت تخدم مصالح المماليك والأتراك وباشوات عصر إسماعيل .

ونشأت قبل الحرب طبقة من مياسير الفلاحين أرسلوا أولادهم إلى المدن وإلى العاصمة لكى يتعلموا ، وهذه الطبقة كانت المورد الغنى للشباب الذين سينهضون بعبء ثورة سنة ١٩١٩ ، ومنهم سيكون الرجال الذين سيوجهون إلى الاحتلال الإنجليزى اللطمة الكبرى عندما يستجيبون لنداء الثورة ويلبون داعي سعد زغلول ورجاله .

وقد كان كرومر وجورست يزعمان أن الاحتلال أحسن إلى الفلاحين ، وأنهم معترفون بفضله ؛ وقد وقع كرومر فى فى ذلك الخطأ لأنه تكوّن فى مدرسة الإداريين الإنجليز فى الهند ، وكان فى الهند – بالفعل – طبقات من الفلاحين يرون أن الإنجليز حماتهم من أبناء جلدتهم ، الذين كانوا يسومونهم سوء العذاب من مئات السنين . ولكن مصر هى مصر ، والهند هى الهند ، ولكل بلد طبيعته وتكوينه .

وعندما قامت الحرب كشف الاحتلال عن وجهه البشع

وهؤلاء الفلاحون الذين تحسنت أحوال بعضهم وبدأوا يخرجون من ظلمات العصور الماضية ، هم الذين شعروا فى أثناء الحرب العالمية الأولى أنهم بلا ناصر ولا معين . فقد عدا عليهم رجال الحكومة وسلطة الاحتلال عدواناً غاشماً ، فجمعوا الأنفار بالقوة وسخروهم لصالح الاحتلال ، وجمعوا المحاصيل واشتروها بأبخس الأثمان ، واستولوا على المواشى والخيل والحمير والجمال بالثمن الذى فرضوه . وبينما كانوا يعانون هذا الظلم لم يتحرك لنصرتهم أحد ، لا رجال الحزب الوطنى ولا فلاسفة حزب الأمة ولا أصحاب البيان ممن كانوا يحررون صفحات المؤيد والأهالى ، وتطلعت نفوسهم إلى زعيم يتصدى للدفاع عنهم وإيقاف الظلم الواقع عليهم .

والحق أن مصر فى أواخر الحرب العالمية الأولى كانت مجتمعاً حزيناً خائفاً معذباً ، ولكن كل قطاع من سكانه كان يعانى آلامه وحده : الفلاحون يفقدون شيئاً فشيئاً القليل الذى جمعوه فى سنوات الهدوء القليلة الماضية ، وتلاعب الإنجليز والتجار الأجانب بأسعار القطن بدأ يقضى على ما حصله شيوخ القرى وأعيان الريف من أموال ؛ وأهل الحرف فى المدن ضاق بهم العيش لقلة الموجود من البضائع وغلاء أسعاره وقلة النقود فى أيدى الناس ؛ والأفندية – موظفو الحكومة – حل بهم الفقر لارتفاع الأسعار وقلة المرتبات ؛ وأهل الحكم من باشوات الشركس

والألبان والأتراك قاربت أيامهم النهاية ، بسبب دخول العنصر المصرى ديوان الوظائف الكبرى، وكان كرومر قد شرع فى ذلك من أواخر القرن الماضى ، ربما لأنه تبين أن طراز الوزراء الذى عرفته البلاد منذ بداية الاحتلال ، كان طرازاً عاجزاً قليل الجدوى ولا يصلح مع مرور الزمن لخدمة مصالح إنجلترا أو مصر ، إنما هم قوم زائفون هامشيون ، كل قيمتهم فى مناظرهم وألقاب عائلاتهم من مثل « حب الرمان » إلى « كعب الغزال » .. مع خلوهم من أى عاطفة قومية من أى نوع . .

وعظمة السلطان ؟ . .

حتى السلطان الذى عينه الإنجليز لم يكن سعيداً بالوضع . .

فأما حسين كامل فكان أميراً غير متوازن الشخصية ، وكان بعيداً كل البعد عن حقائق الوضع فى البلاد وفى العالم ، وقد أحاط نفسه بحاشية من « أبناء الذوات » ، ونجح فى أن يبدو سلطاناً ولكنه فشل فى أن يكونه . .

ثم جاء أحمد فؤاد ، وكان ثعلباً ماكراً لا يهتم إلا بما يعود عليه هو نفسه بالخير ، وقد فاجأته الحركة الوطنية مفاجأة تامة ، وظل حتى وفاته لا يفهمها ، لأنه عقد عزمه من أول الأمر على ألا يفهمها . . وربما اعتقد أن ذلك من لوازم السلطنة ، ومن لوازمها الرئيسية عنده المال فانصرف إلى جمعه ، وخلال السنوات القليلة الأولى لسلطنته أثرى ثراء فاحشاً ، مستخدماً نفوذه تارة وعدداً من الأجانب ممن يعملون فى سوق الأوراق المالية والشركات التجارية تارة أخرى ، ومعظم هؤلاء كانوا من الإيطاليين

ثم اليونانيين والفرنسيين .

وعندما انتهت الحرب وعقدت الهدنة ، وبدأت الاستعدادات لمؤتمرات الصلح ، واستولى الخوف من المصير على أهل مصر جميعاً ، لم يكن هناك إنسان مطمئن وسعيد إلا أحمد فؤاد ؛ وقد كدرت الثورة صفو حياته وأدخلته فى مشاكل ما كان ليفكر فيها ، ولكنه – مع ذلك – أفاد منها بصفته رأس المصريين ، فصار ملكاً بعد أن كان سلطاناً ، ولم يخجل عندما صدر تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ من أن يعلن الأمر إلى الأمة بقوله فى بيان أذاعه فى ١٥ مارس ١٩٢٢ : « لقد منّ الله علينا بأن جعل استقلال البلاد على يدنا ، وإنا لنبتهل إلى المولى عز وجل بأخلص الشكر وأجمل الحمد على ذلك » . .

تلك – فى اختصار – كانت صورة أرض المعركة . .

شرارة الثورة . .

فى الساعة الحادية عشرة من صباح الأربعاء ١٣ نوفمبر ١٩١٨ ، تمت المقابلة المشهورة بين سعد زغلول وعبد العزيز فهمى وعلى شعراوى – الذين رأوا أنهم يمثلون الشعب المصرى – والسير ريجنالد وينجيت معتمد بريطانيا فى مصر ، وبدأوا معه حواراً تاريخياً عن مستقبل مصر بعد الحرب .

كانت الحماية البريطانية التى أعلنت على مصر يوم ١٨ ديسمبر ١٩١٤ – إجراء مؤقتاً قامت به بريطانيا بالقوة ، لتأمين نفسها ولتمكين جيوشها وجيوش حلفائها من النصر فى الحرب .

وفى سبيل ذلك التأمين وذلك النصر ، تحمل شعب مصر الكثير

من التضحيات والخسائر والآلام .

وانتهت الحرب ، وكان لابد أن تنتهى الحماية معها ، وتنتهى بذلك التضحيات والخسائر والآلام .

والغريب فى الأمر أن ممثل بريطانيا اندهش عندما تبين أن أولئك المصريين إنما أتوه ليتحدثوا إليه فى مستقبل بلادهم ، واندهش أكثر عندما تبين أنهم يفكرون فى الاستقلال . .

والواقع أن الانجليز – منذ أن احتلوا بلادنا فى سبتمبر ١٨٨٢ – رسموا سياستهم على أساس أن مصر ستظل إلى الأبد من أملاكهم ، فوجهوا كل اهتمامهم إلى تكوين شعبها تكويناً يجعله دائماً خادماً لمصالح الشعب الإنجليزى ، فقضوا على كل العناصر الوطنية والمعارضة ، وسلموا إدارة البلاد إلى باشوات الشركس والألبان والأتراك ، يعاونهم المستشارون الإنجليز ، وجعلوا سلطان مصر موظفاً لديهم ، وفتحوا أبواب البلاد على مصاريعها للأجانب ، وتوسعوا فى منحهم الامتيازات حتى تكون هذه الجاليات عماداً من أعمدة وجودهم ، وليجعلوا من حماية الأجانب تعلة يتذرعون بها للبقاء . وعندما قامت الحرب أسرعوا بهذه العملية وثبتوا أركان النظام الذى أوجدوه ، وهو نظام يقوم على إلغاء وجود الشعب المصرى بحيث لا يبقى منه ظاهراً للعيان إلا ما يبرر الوجود الإنجليزى .

من هنا كانت دهشة المعتمد البريطانى ، فقد كان يحسب أن « مصر المستقلة » هذه شىء قد انتهى ولم يعد له وجود . .

وأولئك الرجال الثلاثة الذين أتوا إليه يحدثونه عن مستقبل مصر ، كانوا – هم أنفسهم – إلى الأمس القريب يخدمون فى ظل الاحتلال

والحماية ، ويتعاملون مع الإنجليز على أنهم السادة فى مصر دون منازع . .

وعندما رفض السير ريجنالد وينجيت أن يصرح لهم بالسفر إلى أوربا ، لعرض قضية مصر على مؤتمرات الصلح ، كان يحسب أنه على حق ، وأن موضوع مصر هذا مسألة بريطانية داخلية ، يكون الحديث فيها بعد أن تنتهى مؤتمرات الصلح من عملها ، فهذه مؤتمرات دولية لا شأن لها بمشكلة مصر مع إنجلترا ، التى لا تعدو أن تكون مشكلة إنجليزية محصورة بين الحكومة البريطانية وبعض رعاياها .

وقد أيدته الحكومة البريطانية فى ذلك ، بل رفضت السماح لحسين رشدى وعدلى يكن بالسفر إلى إنجلترا للتفاهم مع رجال الدولة البريطانية على مستقبل مصر ، وكان أولهما رئيس وزراء مصر الذى خدم الاحتلال بإخلاص طوال فترة الحرب ، وثانيهما كان وكيل الجمعية التشريعية الذى عينته الحكومة .

وفى أثناء ذلك تساءل الإنجليز عن الصفة التى يتحدث بها أولئك الثلاثة عن مصر وشعبها . .

ولا شك فى أن سعداً – بصفته الوكيل المنتخب للجمعية التشريعية – كان له الحق فى الكلام باسم الأمة ، وكذلك زميلاه على شعراوى وعبد العزيز فهمى .

ولكنهم رأوا ضرورة الحصول على توكيل من الأمة يفوضهم فى التكلم باسمها ، فبدأت حركة جمع التوقيعات من بقية أعضاء الجمعية التشريعية ومجالس المديريات وذوى الرأى والمكانة فى البلاد ، ومن أراد التوقيع على صيغة التوكيل من أبناء مصر .

وتسارع المصريون فى العاصمة والأقاليم إلى توقيع التوكيلات ، واعتبرت الجماعة نفسها « وفداً » مختاراً من الأمة للحديث بأسمها والمطالبة باستقلالها . .

وهنا تبرز شخصية سعد زغلول . .

إلى ذلك الحين كان سعد زغلول واحداً من ثلاثة ، قرروا أن يواجهوا دار الحماية البريطانية ليتحدثوا إلى رجالها فى مستقبل بلادهم ، وبعد ذلك بقليل أصبح واحداً من سبعة انضم إليهم – فيما بعد – أعضاء آخرون .

وبعد ذلك بشهرين ، فى ١٣ يناير ١٩١٩ برز سعد زغلول من بين هؤلاء جميعاً بخطاب ألقاه فى اجتماع دعاء إليه حمد الباسل باشا أحد أعضاء الوفد . هذا الخطاب انتقل بالحركة كلها من مجرد طلب إلى بريطانيا للسماح لنفر من المصريين بالتحدث عن مستقبل مصر فى المجال الدولى ، إلى مطالبة صريحة بالاستقلال التام وإنكار للاحتلال والحماية واعتبارهما أمرين باطلين . وللمرة الأولى تردد النداء بأن مصر مستعدة لبذل ما يتطلبه استقلالها من الضحايا .

لقد وجدت البلاد قائداً يعرف كيف يخاطب المستعمر فى جرأة ووضوح ورباطة جأش . .

وتوالت من نواحى البلاد دلائل التأييد .

وفى ٧ فبراير ١٩١٩ ألقى سعد خطاباً آخر فى دار جمعية الاقتصاد والتشريع ، ألقاه تعقيباً على المستر برسيقال المستشار بمحكمة الاستئناف الأهلية عن مشروع قانون للعقوبات كانوا يعدونه إذ ذاك ، وفى هذا الخطاب قال سعد الكلمة التى أيقظت مصر كلها وأوقفتها على قدميها ووضعت

زعامتها فى يده : « فى سنة ١٩١٤ أعلنت إنجلترا حمايتها على مصر من تلقاء نفسها ، بدون أن تطلبها الأمة المصرية أو تقبلها ، فهى حماية باطلة لا وجود لها قانوناً ، بل هى ضرورة من ضرورات الحرب تنتهى بانتهائها ، ولا يمكن أن تعيش بعد الحرب دقيقة واحدة » .

هذه الخطبة كانت صيحة المعركة ، فقد هزت هذه العبارة كيان مصر هزاً عنيفاً وهيأتها لخوض المعركة . .

فمن هو سعد زغلول الذى ردد هذه الصيحة فتزلزلت هذه الحواجز جميعاً وحولت الشعب المصرى كله إلى إرادة ، وجعلته فى لحظة واحدة يحطم ألف حاجز وحاجز : حاجز الاحتلال البريطانى ، وحاجز أهل الحكم من باشوات عهد الاحتلال ، وحاجز السلطة التى ابتكرها الإنجليز وجعلوا منها قيدا ثقيلا فى أقدام المصريين ، وحاجز الأفندية البيروقراطيين الذين درجوا على تقديس جناب المعتمد البريطانى وعطوفه ناظر النظار وسمو الخديو ، وحاجز المصالح والجاليات الأجنبية التى كانت قد أصبحت سرطاناً متشعباً يستشرى فى جسد الأمة كلها ؟ . .

من هو هذا الرجل الذى أطلق هذه الصيحة التى حولت غضب الشعب ، وأعطى إشارة المعركة ؟

(٣)

ثورة ١٩١٩

فجرت كوامن العبقرية فى كيان مصر

إلى حين قريب ، كنا نظن أننا نعرف عن سعد زغلول كل شيء . .

بعد عشرات الكتب التى نشرت عنه – من كتاب عباس محمود العقاد المبدع ، إلى كتاب محمود يوسف زايد الممتع عن كفاح مصر فى سبيل الاستقلال (بالإنجليزية ، بيروت ١٩٦٥) – كنا نظن أننا صرنا نعرف عن سعد زغلول كل شيء، وأن تحديد دوره فى تاريخ مصر لم يعد مشكلة . .

ولكن مذكرات سعد ، التى وضعت منذ حين قريب تحت تصرف الباحثين ، ألقت ضوءاً جديداً ساطعاً على شخصية سعد وعصره ، وأطلعتنا على نواح كانت خافية من شخصيته ، جعلتنا نقدره بأكثر مما كنا نفعل ، ونفهم دوره فى تاريخنا على نحو يختلف تماماً عما كان يحسبه أحسن من كتبوا عنه ، وهو صديقه ورفيقه وكاتبه عباس محمود العقاد ، وهو أيضاً من فحول جيل ثورة ١٩١٩ . .

وقد استخدم هذه المذكرات ونشر فقرات منها أخيراً باحث شاب هو عبد الخالق محمد لاشين ، فى بحث جامعى له عن دور سعد فى السياسة المصرية حتى سنة ١٩١٤ (دار المعارف بالقاهرة ، ١٩٧١) .

ولكن هذه الدراسة وفهم مؤلفها لما قرأ من مذكرات سعد وغيره من معاصريه ينبغي أن تؤخذ فى حدودها ، وهى أنها دراسة شاب فى طريقه إلى التكون ، لم يصل بعد إلى القدرة على سبر أغوار رجال من طراز سعد زغلول . .

فهو يقرأ – مثلا – عبارة لسعد يشكو فيها من زوجته ، فيقول إن العلاقة بينهما لم تكن على ما يرام . .

ويجد أن سعدًا يقول إنه كان – فى فترة ما – يضيق ذرعاً بالمصريين ، فيقول إن سعداً لم يكن يحب المصريين . .

ويجده – فى أحيان – يعامل الإنجليز برفق ، فيقول إنه كان يعامل الإنجليز بأحسن مما كان يعامل مواطنيه . .

وإذا وجد أن سعداً يتفق – فى بعض آرائه – مع ما كان يراه الإنجليز ، قال إن سعدًا كان أداة من أدوات تنفيذ السياسة البريطانية فى وزارة المعارف . .

وإذا رآه يوافق على تعيين مدير إنجليزى للبعثة المصرية فى إنجلترا – برغم مطالبة بعض الصحف بأن يعين فى هذا المنصب مصرى – قال إن سعدًا كان يفضل الإنجليز على المصريين . .

يقول هذا ناسياً أن سعدًا كان المصرى الذى طالب بحق مصر بقوة لم يعرفها الإنجليز قبل ذلك قط ، وأنه هو الذى أيقظ بصوته الجهورى مصر كلها من سباتها وسار بها فى طريق القوة والنهوض . .

وقد فاته أن يلاحظ أن اختلاف الرجل مع زوجته مرة أو مرات لا يعنى أنه لم يكن معها على وئام ، وأن غضب سعد على مواطنيه كان

يمثل فترة يأس سوداء مرت به عندما وصلت حياته إلى طريق مسدود فيا بين ١٩٠٧ و ١٩١٢ : كان قد وصل إلى الوزارة والثروة والجاه والمكانة ووقف بعد ذلك لا يدري ماذا يصنع ، وانتابته أزمة نفسية شديدة ، فكره الحياة وكره نفسه حتى ردد فى مذكراته أن الموت أولى بمن كان في مثل حاله . .

وفات المؤلف كذلك أن يفترض أن سعدًا ربما كان يرى – بالفعل – أن مدير البعثة فى إنجلترا في ذلك الحين كان من الأفضل أن يكون إنجليزيًّا ، أو أنه لم يجد مصريًّا يثق من أن فيه القدرة على القيام بهذه المهمة .

وفاته كذلك أن سعدًا رجل ضخم له شخصيته وأسلوبه فى النظر إلى الأشياء ولا يمكن تقليل تصرفاته بما يراه شاب على عتبة الحياة يظن الناس كلهم مثله : لا يفكر إلا فى الحصول على الوظائف والترقي وكسب رضا من يظن أن بيدهم أمره . .

وسعد – عندما كان يكتب هذه المذكرات – لم يكن يخطر بباله أن سيكون يومًا ما زعيم بلده بغير منازع ، فهو كان يكتبها لنفسه على عادة الكثيرين من الناس ، وهو – لهذا – لا يكذب فيها . فإن الإنسان لا يكذب على نفسه ، ويكفي الرجل فخرًا أنه صارح نفسه بأخطائه دائمًا ، وسجل على نفسه عيوبه وهفواته ، ولام نفسه لومًا شديدًا فى أكثر من موضع ، وقد كان مستطيعًا أن يرفع من هذه المذكرات أجزاء كثيرة تعيبه ، بعد أن أصبح زعيم البلاد والعدو الأكبر للإنجليز ، ولكن الرجل ترك ما كتب كما هو غير مكترث لما يقوله الناس ، وهذه لمحة من قوة الشخصية

وسلامتها لا تخفى على أحد . .

ونحن – الآن – نقرأ مذكرات سعد ونفهم أن صفحاتها تمثل أطواراً فى تطور الشخصية الزغلولية ونضجها ، وهى تصور كذلك حالات نفسية عابرة وغير عابرة – لا يعدم الإنسان مثلها فى مذكرات نابليون وبسمارك وتشرشل ، فأولئك الرجال تتطور آراؤهم ويزدادون نضجاً وحكمه مع الأيام طوال حياتهم تقريباً ، وهذا – فى الغالب – مظهر من مظاهر عبقريتهم ؛ وهم – بهذا – يختلفون عن الرجل العادى ، فهذا يبلغ أقصى نضجه العقلى سريعًا ، ثم يجمد ذهنه بعد ذلك إلى آخر حياته .

ومن هذا القبيل أيضاً إنكار المؤلف على سعد اهتمامه بتدريس اللغة الإنجليزية فى المدارس – إلى جانب العربية طبعاً – ويغيب عن خاطره أن سعداً كان يصدر فى ذلك عن تجربته الشخصية ، فهو نفسه لم تتفتح أمامه السبل ، ولم يصل إلى ما وصل إليه ، إلا بعد أن تعلم لغة أجنبية وأتقنها . ومن حسن الحظ أن كل المخلصين من جيل سعد ، كانوا يرون أن تعلم اللغات الأجنبية هو الجسر الذى ينبغى أن يمد ليعبر عليه شعب مصر إلى العصر الحديث ، ولم يكن سعد ولا أحمد لطفى السيد ولا قاسم أمين يخشون على مصير اللغة العربية إذا تعلم الشباب – جنباً إلى جنب معها – لغة أوربية ؛ وكانوا فى ذلك على رأى جيته الشاعر الألمانى الأكبر ، عندما سأله شاب أن يدله على أحسن الطرق لإتقان الألمانية فنصحه بأن يتعلم الفرنسية ، فأعاد الشاب السؤال فأعاد جيته الجواب ، علماً بأن اللغة تغتذى بغيرها أحسن مما تغتذى بنفسها .

ودليل ذلك أن أحسن جيل أتقن اللغة العربية هو بالذات الجيل الذى كان فى المدارس فما بين ١٨٩٠ و ١٩١٠ ، وأين لنا جيل مثل جيل طه حسين والعقاد والمازنى وسلامة موسى ومحمد حسين هيكل وتوفيق دياب وتوفيق الحكيم وطبقتهم ؟ . . وعندما جرفنا الحماس للغة العربية فى الأجيال التالية ، وحددنا مجال اللغة الأجنبية ، ضعفت العربية بل وصلت إلى المستوى المحزن الذى نحن فيه اليوم . ومؤلف الكتاب نفسه يصحح أوراق طلابه ، ويرى بنفسه مقدار علمهم بلغتهم العربية نتيجة للحنان الجاهل عليها . .

إن مذكرات سعد نفسها تدل على أن ذهنه وقلبه كانا مشغولين بمشاكل التعليم انشغالا عميقاً ، يدل على أنه لم يكن يعمل فى الوزارة كمجرد وزير ، بل كمواطن يخدم وطنه بكل صدق وإخلاص . فهو يعرض آراءه فى صراحة تامة ، ويناقش خصومه ويحمل عليهم فى مذكراته ، كأن الأمر كان نجوى نفسه . وقد كان خصومه الذين يدبجون المقالات فى نقد سياسته — من أمثال عبد العزيز جاويش ومحررى « اللواء » — أبعد ما يكونون عن الحكمة وفهم الظروف . وهؤلاء أيضاً هاجموا قاسم أمين وقضوا عليه ، وعبد العزيز جاويش كاد بتهوره أن يوقع مصر فى فتنة دينية نحمد الله على أن نجّى منها البلاد .

لا نقول هذا دفاعاً عن سعد ، فإن أمثال سعد قد تقررت مكانتهم فى التاريخ بجهدهم وعبقريتهم لابدفاع الناس عنهم . وقد مضى سعد وانقضت أيامه ، وما كنا يوماً وفديين أو أتباعاً لأى حزب ، وإنما هو رجل حمل راية مصر — يوماً ما وخاض بها معارك مجيدة ، ولهذا فنحن نحبه كما

نحب أحمد عرابى ومصطفى كامل ومحمد فريد وجمال عبد الناصر وكل المجاهدين المخلصين ممن صنعوا تاريخ هذا البلد ، وربما كان أحبّهم إلى نفوسنا أولئك الجنود المجهولون الذين ماتوا فى سبيل مصر فى ميادين المعارك وفى ضجيج المظاهرات وصمت السجون والمستشفيات .

حياة سعد : قطاع فى المجتمع المصرى قبل الثورة

ولد سعد زغلول فى قرية إبيانة مركز فوة (بمحافظة كفر الشيخ الحالية) فى بيت لأحد المياسير ، إذ كان أبوه الشيخ إبراهيم زغلول من أعيان القرية . كان ميلاده فى أوائل يونيو ١٨٥٦ أى فى عصر إسماعيل ، وتعلم فى الكتاب وحفظ القرآن وهو صغير ، لأن أسرته كانت تريد له أن يصير فى سلك الشيوخ ، فيتعلم تعلماً دينياً تقليدياً ، فى حين أرسل أخوه فتح الله زغلول – الذى غير اسمه بعد إلى أحمد فتحى زغلول – إلى المدارس المدنية ؛ وبعد سنوات يصبح سعد شيخاً يدرس فى الأزهر .

ويدخل الشيخ سعد الشاب فى زمرة أتباع محمد عبده ، ويصبح من أقرب تلاميذه إليه . وفى الخامس من أكتوبر ١٨٨٠ يصبح سعد مساعداً للشيخ محمد عبده فى تحرير الوقائع المصرية ، ويدخلان بها معاً عصراً من التجديد . هنا يترك سعد صفوف الأزهريين ويدخل فى سلك الأفندية ، موظفى الحكومة لابسى البذلات والطرابيش . .

وفى سبتمبر ١٨٨٢ يصبح سعد أفندى ناظراً لقلم القضايا بمديرية الجيزة .

وفى ٢ أكتوبر ١٨٨٢ يفصل من وظيفته عقاباً له على اشتراكه فى الثورة العرابية .

وفى أبريل ١٨٨٣ يدخل عالم المحاماة ، وكانوا – إذ ذاك – لا يشترطون للعمل بها مؤهلات دراسية . .

ثم يقبض عليه بتهمة الاشتراك فى جمعية سرية ، ويظل فى السجن إلى ٣٠ أكتوبر ١٨٨٣ ، بعد أن حبس مائة يوم وخمسة أيام .

نتيجة لهذا السجن ، فقد سعد أهليته للوظائف الحكومية . .

أغرب ما فى سعد هذه القوة الهائلة التى يتخطى بها العقبات ، وهذه القوة كانت تعتمد على خلقه المتين وإرادته التى لا تقهر ومثابرته التى لا تكل . فهذا الرجل الذى وقف فى الطريق موصوماً بوصمة السجن وهو فى الرابعة والعشرين من عمره ، يعود إلى المحاماة وينطلق فى طريقه صاعداً السلم الاجتماعى فى قوة وسرعة . بعد أربع سنوات فقط نجده على رأس المحامين فى أيامه ، بل تختاره الحكومة عضواً فى لجنة شكلت لتنقيح قانون العقوبات . .

وهنا نجده يتردد على صالون الأميرة نازلى فاضل ، ثم يصبح وكيلا لأعمالها حتى يتحدث الناس بقرب زواجه منها ، وفى سنة ١٨٩٢ يعين فى وظيفة نائب قاض بمرتب قدره ٤٠ جنيهاً فى الشهر .

فى ذلك الحين كان سعد قد أصبح رجلا موسرًا يمتلك نحو ٤٠٠ فدان كسبها من عمله فى المحاماة ، وفى سنة ١٨٩٦ يبنى لنفسه قصراً فى شارع الإنشا بالقاهرة .

وفى السنة نفسها يتزوج الآنسة صفية مصطفى فهمى ابنة رئيس

الوزراء ، وبزواجها منه دخلت التاريخ ، فالسيدة صفية زغلول ستصبح يوماً ما – وعن جدارة – أم المصريين . .

وفى السابعة والثلاثين من عمره يبدأ فى دراسة القانون فى جامعة باريس ، وفى التاسع من يوليو ١٨٩٧ يحصل على ليسانس الحقوق . .

هنا نجد سعداً يشارك فى كل أمر جليل يجرى فى البلد ، ويصبح من الشخصيات الكبرى ، بل محور الحياة العامة فى أيامه . .

وفى ٢٨ أكتوبر ١٩٠٦ يصبح ناظراً – أى وزيراً – للمعارف . .

وفى هذه الوزارة يخوض أولى معاركه مع الإنجليز ، ويشتد الصراع فيضطر إلى ترك وزارة المعارف إلى وزارة الحقانية سنة ١٩١٠ .

وفى ٣١ مارس ١٩١٢ يستقيل من الوزارة .

* * *

مررنا هذا المرور السريع بحياة سعد إلى سنة ١٩١٢ ليرى القارئ – كيف اخترق هذا الرجل – بجهده وملكاته – طبقات المجتمع جميعاً حتى وصل إلى القمة . .

ولم يكن هذا الصعود عادياًّ ولا سهلاً ، ولا هو اتصل دون صعوبات ، فقد لقى سعد فى طريقه الفصل والسجن .

بدأ ابن مزارع ، ثم أصبح أزهرياًّ ، فعضواً فى حلقة محمد عبده الإصلاحية ، ثم أصبح أفندياً ، فمحامياً . .

وهذا الثائر المصلح الذى يتهم بالاشتراك فى جمعية إرهابية ، ويسجن سنة ١٨٨٣ ، يتزوج ابنة رئيس الوزراء – قمة هرم الأرستقراطية

ورجال الحكم من طبقة الشركس والأتراك والألبان – وكان ذلك سنة ١٨٩٦ . .

وفى كل مرحلة من هذه المراحل كان سعد زغلول زعيماً لأهل المرحلة . . . حتى الوزارة ، أصبح عندما وصلها أهم الوزراء . .

أزمة سعد وأزمة مصر .

فى أواخر أيام سعد فى وزارة المعارف ، وطوال خدمته فى وزارة الحقانية ، كان يعانى أزمة نفسية نستطيع أن نسميها أزمة الطريق المسدود . .

صاعداً من أسفل السلم ، وصل إلى أقصى ما كان يطمح إليه المصرى فى تلك الأيام . . حطم كل الحواجز الاجتماعية ، ووصل إلى الوزارة والسلطان والجاه ، ومع ذلك أحس بأنه لم يصل إلى شىء . .

كان يخوض المعارك العنيفة مع الإنجليز وأذنابهم فى وزارة المعارف ، ومع ذلك فقد كانت جرائد اللواء والأهالى والجريدة تحمل عليه فى عنف وتتهمه بمعاونة المستعمر . . لقد تركت الصحف كل زملائه الوزراء من أبناء الشركس والألبان والأتراك ، ووجهت هجومها إليه وحده . . لماذا ؟ ! . . كان هذا يحيره ويضيق صدره ، وكان يتعجب من محررى هذه الصحف – ما بين رجال الحزب الوطنى ورجال حزب الأمة – كيف يجيزون لأنفسهم أن يتهموه بمحاربة اللغة العربية ، وما هو إلا فلاح عربى مصرى أزهرى . .

ضيق سعد يظهر فى صورة سخط على مواطنيه . . أحس أنه يسعى لخيرهم ، وهم يسعون لهدمه . . مثل هذه الأزمة ملأت نفس بسمارك أيام

كان يعمل سفيراً لبروسيا فى باريس : كان شديد الطعن على البروسيين والضيق بهم . . كتب الأمير برنارد فون بولوف Bernhardt Von Bullow فى مذكراته يقول إن القيصر فردريك ويليام ، عندما استدعى بسمارك ليجعله مستشاراً لبروسيا ، قال له : « . . ولكنك أيها الأمير أوتو إدوارد ليوبولد بسمارك تهاجم البروسيين فى عنف ، فماذا يضايقك منهم ؟ » فأجاب : « نعم ، لأنهم لا يضعون أنفسهم فى الموضع الذى يستحقونه ! . . » فقال القيصر : « والآن ؟ . . » فأجاب : « الآن ستضعهم جلالتكم وخادمكم المخلص فى مكانهم على خريطة أوربا ! » فقال القيصر : « حسناً ، ولنسر على مهل . . . »

يحدثنا سعد فى مذكراته عن ثورته على موظفيه فى الوزارة فيقول : « . . وكل موظف خاطبنى كنت أعنفه وألومه لوماً شديداً على تخوفه منى وانكماشه عنى وانبساطه لدانلوب ، ولعنت كل من لاقيت منهم لعنات شديدة ، ومما قلت لهم : إنكم لم تساعدونى على القيام بواجباتى ، بل تجتهدون فى عرقلة مساعىّ . اعلموا أنكم إذا استمررتم على هذه الطريقة فلن تنالوا منى إلا العقاب الشديد . إنى الآن صبرت ، ولكن لكل شيء حداً . قلت ذلك بأعلى صوتى وبأشد انفعال »[1] . وهذا يفسر لنا سبب غضبه على بعض مواطنيه فى هذه الحقبة من حياته .

بل إنه يقف حائراً أمام شعوره هذا نحو مواطنيه ، فيكتب فى مذكراته بتاريخ ١٥ / ٧ / ١٩٠٩ ، وكأنه يعتذر لهم فيما بينه وبين نفسه : « . . ولا أستطيع أن أفسر سبب الاشمئزاز الذى أشعر به عندما أقابل بعض مواطنىّ ،

(١) كان ذلك فى فبراير ١٩٠٨ . رواه عبد الخالق لاشين ، ص ٢٤٢ .

هل سببه التأثير السيئ الذى خلفه عندى نقد بعض الجرائد المعادية والسيئة النية ، أو لأنى أتذكر العبء الثقيل الذى كنت أتأوه من حمله فى بلدى »[1] .

وفى هذه الظروف نجد اندفاع سعد نحو القمار والتدخين شديداً ، فهو يلعب القمار حتى يخسر معظم ثروته ، ويدخن بشراهة ، « ويزج الدخان فى صدره زجا » ، وهذه كلها مظاهر للرغبة فى تحطيم النفس ، وذلك بدوره ناشئ من اليأس ، يأس الإنسان عندما يحسب نفسه وصل إلى آخره الطريق ثم يتبين أنه لم يصل إلى شىء . .

المال لم يرض مطالب نفسه فمضى يبدده بصورة يخجل هو منها ، والوزارة لم يجن منها إلا الألم والتعب والشعور بنكران الجميل . فهذا الرجل – الذى كان يملك فى سنة ۱۹۰۳ فوق الأربعمائة فدان ، علاوة على بيته الذى بناه فى شارع الإنشا وكلفه فوق الأربعة آلاف جنيه – يكتب فى مذكراته فى ۲٥ مارس ۱۹۱۲ : « . . أصبحت منقبض النفس ضائق الذرع . ولم أنم ليلى ، بل بت طوله تساورنى الهموم والأحزان ، وأتنفس الصعداء على مافرط منى من اللعب وضياع الأموال التى جمعتها بكد العمل وعرق الجبين وصيرورتى فى حال سيئة . ولقد كان يجب علىّ – خصوصاً فى هذه الأيام التى تزعزع فيها مركزى – أن أكف عن ذلك

---

(۱) رواه أيضاً عبد الخالق لاشين ، ص ۲۳٦ . وأعتقد أنه مترجم عن الفرنسية ، وكان سعد يضع فى مذكراته أحياناً عبارات فرنسية . والترجمة على عهدة المؤلف ، وقد لاحظت عنده قصوراً واضحاً فى معرفته بهذه اللغة .

حفظاً للبقية الباقية منه ، واتقاء أن أصير إلى ما أنا فيه من الضيق الشديد ، لأنى صرت مديناً »[١] .

وتزداد أزمته النفسية بعد خروجه من الوزارة ويهون فى نظره كل ما وصل إليه ، فيكتب فى مذكراته فى ديسمبر ١٩١٢ : « . . إن من أعظم المشوقات (للوزارة) المرتب ، وهو — فى الحقيقة — مبلغ عظيم ، ولكنى لم أنتفع منه بشيء ، ولم أستشعر بأن ضخامته وسعت علىّ من ضيق أو رفعتني من ضعة أو زادتنى بسطة فى الملك أو لذة فى العيشة . . فأكلى هو أكلى لم أزد عليه ، ولم أتأنق فيه صنعاً ، ومركبى لم يتغير ، وملكى نقص ٢٠٠ فدان ، وحملت ديناً بعد أن كان جيبى عامراً بالمال » . وقال قبل ذلك بصفحات : « . . والله يعلم أن الوظيفة لم تكسبنى جاهاً ولم أبحث عن أن أستفيد منها بشيء سوى حسن الأحدوثة والعمل لخير الناس ، ولكنى لم أوفق إلى ذلك ، لأن أيدى النظار — فى الحقيقة — مغلولة بغلّين ومرهونة بفعلين : شهوات السلطة السياسية وسياسة الدولة المحتلة ، وإرضاء كل منهما صعب على صاحب الذمة والضمير . . ولقد أردت — فى كثير من الأحيان — أن أوسع من ذمتى وهممت أن أميت ضميرى ، فلم أفلح ، بل كنت كلما حاولت ذلك ضاق خناق الذمة وثار الضمير ، وتشددت فى الأمر كثيراً . . »[٢] .

ويبلغ به اليأس إلى درجة أنه يكتب فى سبتمبر ١٩١٦ : « . . يحسن

---

(١) رواه عبد الخالق لاشين ، ص ٢٣٣ .

(٢) نفس المصدر ، ص ٢٣٩ .

بالذى فقد أصدقاءه ، ولم يكن له ولد يرجوه ، ولا امرأة يعشقها ، ولا وطن يسعى فى رفع مقامه ، ولا آخرة يعمل لها . . أن يرحل عن هذه الحياة ! »[١].

إن سعداً يشكو هنا من ضياع كل شىء ، ويتألم لأنه لا يجد له وطناً يخدمه . لأن الظروف القائمة لاتسمح بخدمة هذا الوطن . .

ثم وجد نفسه وعرف طريقه

والفكرة القائمة وراء هذا التفكير ، أو الشىء الضائع الذى كان يبحث عنه هو وطنه ، ولهذا نجده – بعد خروجه من الوزارة – يتجه اتجاهاً جديداً جداً ، اتجاه ترشيح نفسه للجمعية التشريعية . وهنا يبدأ سعد حياة جديدة ، فهو يتزعم المعارضة ويتحدث فى حرية عن مصالح الوطن والناس . . هنا نرى سعداً فى طريقه ليجد وطنه ، « ليسعى فى رفع مقامه » . . وفى الطريق إلى وطنه وجد نفسه . .

وكذلك كانت الأمة المصرية نفسها تبحث عن نفسها فلا تجدها ، كانت مضيعة بين سلطة الاحتلال ومطامع الخديو واستغلال أهل الحكم ونهب الأجانب . .

هنا ، تحت سقف هذه الجمعية ، عرف سعد طريقة وتحدث بحرية لم يكن يستطيعها وهو وزير .

لقد لامه بعض خصومه .[٢] لأنه لم يطالب بالاستقلال ولا فكر فى

---

(١) نفس المصدر ، ص ٢٤١ .

(٢) ومن أولئك الخصوم السيد عبد الخالق لاشين مؤلف الكتاب الذى اعتمدنا عليه فى رواية فقرات من مذكرات سعد ، لم يجد هذا المؤلف فى سعد لمحة واحدة من خير =

الدستور أيام كان وكيلا للجمعية التشريعية ، ولكن هل المطالبة بالاستقلال والدستور تكون فى جمعية صغيرة محدودة المجال تسيطر عليها الدولة ؟ إن طلب الاستقلال ينبغى أن يوجه إلى المحتل فى وجهه ، ويطلب من المجتمع العالمى كله ، وهذا ما فعله سعد فى وقته عندما انتهت الحرب وترددت فى الدنيا صيحات الحرية وحقوق الشعوب وتقرير المصير . هنا يتخطى سعد كل الحواجز ويقتحم الطريق المسدود فيزيل سدوده ، هنا تنتهى أزمة سعد وأزمة مصر ، فيندفع فى طريقه – والأمة معه – إلى آفاق بعيدة ودنيا جديدة ، آفاق الصراع فى سبيل الوطن ودنيا الأمم الحرة المناضلة . .

بعد خطاب سعد فى دار حمد الباسل ، وخطابه فى جمعية التشريع والاقتصاد السياسى ، انفتح باب الثورة على مصراعيه .

وكانت عملية جمع التوكيلات للوفد نداء للأمة كلها لدخول الميدان ، وقد دخلته بصورة ما كان يتوقعها أحد . .

لأن المنادى كان يجمع فى شخصه خصال طبقات مصر كلها ، فهو ابن فلاح ، وأزهرى ، وأفندى ، ومحام ، وقاض ، وكاتب ، وفقيه ، ومستشار ، ووزير ، ونائب عن الشعب . . كل ذلك كأنه سعد فى حياته ، فلكل قطاع من قطاعات الأمة نصيب من كيانه ، وبهذا النصيب استجاب إليه كل قطاع . وهو رجل مكتمل الشخصية ،

= أو حسن نية أو صدق أو إخلاص : وهذا الموقف المغالى فيه غريب من شاب المفروض أنه يكتب بحثاً علمياً . ولا نعتقد أن سعداً تجرد من كل فضيلة على هذا النحو ، حتى ذكاء سعد يراه المؤلف دهاء ومكراً . .

واسع التجربة ناصع السيرة . .

والأمم – بطبعها – تحس بمن يحبها فتستجيب له وتلقى بثقتها بين يديه ، وتحس بمن لا يحبها الحب الصادق الوفى فتنصرف عنه ؛ وصاحب هذه الملاحظة الحكيمة هو المؤرخ الجليل محمد شفيق غربال .

ولقد استجابت الأمة لنداء سعد استجابة كاملة ، بعد خطبته فى دار جمعية التشريع والاقتصاد السياسى فى ٧ فبراير ١٩١٩ .

حتى حسين رشدى – ذلك الأرستقراطى الذى عاش عمره كله على كرسى من ذهب ، والذى استدعاه لورد كرومر من باريس ليحكم مصر باسم الاحتلال ولصالح الاحتلال – حتى هذا الرجل تحرك بعد طول ركود ، وأيد نداء سعد واستقال فى ٢ ديسمبر ١٩١٨ احتجاجاً على الإنجليز ، وقد رفض السلطان فؤاد – أى الإنجليز – قبول استقالته ولكنه أصر حتى قبلت فى أول مارس ١٩١٩ . وجرى البحث حثيثاً عن رجل ميت الضمير ، ليتولى تأليف وزارة جديدة تؤيد المحتل ، فيما رآه من أنه لا ضرورة لسفر ممثلى الشعب المصرى إلى أوربا ، لعرض قضية بلادهم على مؤتمرات الصلح ؛ وكان هناك كثيرون من أهل الحكم التقليدى مستعدين للقبول ، لأنهم ليسوا مصريين أو لأنهم لا يشعرون بأنهم مصريون ؛ لكنهم خافوا غضبة الأمة ، وكانت الغيوم قد أخذت تتراكم فى السماء . .

ولم يتحرك عظمة السلطان ، برغم الخطاب الذى وجهه إليه الوفد ؛ وكان من المستحيل أن يتحرك أحمد فؤاد ، لأنه كان مشغولا إذ ذاك باستكمال مظاهر عظمته ، وأهمها تكديس المال العريض . .

وفى ٦ مارس أنذرت السلطة العسكرية البريطانية رجال الوفد بالعقاب الشديد إذا هم استمروا فى نشاطهم : دعاهم الميجر جنرال واطسون ووزع عليهم الإنذار وتلاه عنه أحد مساعديه ، وعندما أرادوا الكلام قال لهم عبارته المشهورة : « لا مناقشة ! » ، وانصرف . .

وفى ٨ مارس نفى سعد وثلاثة من زملائه هم : حمد الباسل ومحمد محمود وإسماعيل صدقى – إلى مالطة . .

وفى اليوم التالى لاعتقالهم – ٩ مارس – بدأت الثورة . .

بدأت بإضراب الطلبة ، وكان أول المضربين طلاب مدرسة الحقوق وبعض المدارس العالية .

وفى اليـوم التالى – ١٠ مارس ١٩١٩ – امتد الإضراب والمظاهرات حتى شملت الأزهر وكل مدارس القاهرة .

وفى أعقاب الطلاب سارت جماهير الشعب الغاضبة ، ولم تستطع هذه الجماهير ضبط عواطفها فحدث بعض التخريب والتحطيم . .

وفى ذلك اليوم سقط أول شهداء الحرية ، وهما مواطنان أحدهما شاب والآخر غلام ، وجد عبد الرحمن الرافعى اسميهما فى سجل وفيات قسم السيدة زينب وموصوفين فيه بأنهما مجهولان . وقد أصاب عبد الرحمن الرافعى فى ملاحظة أنهما رمز على شهداء معركة الحرية المصرية المجهولين ، وما أكثرهم . .

كانت هذه الاستجابة الشعبية لنداء الحرية استجابة طبيعية صادرة عن نفوس مخلصة ، فما رتب للإضراب أحد ولا دعا للمظاهرات داع ، وإنما هى الفورة النفسية الشعبية استجابت من تلقاء نفسها للنداء .

ويوماً بعد يوم ، امتدت نيران الثورة فشملت كل شيء فى مصر : لقد عرفت مصر طريقها وسارت فيه ، وإنه لمما يملأ النفس إعجابًا بهذه الأمة أنها خرجت عزلاء تماماً ، لتواجه مستعمراً غاضباً مدججاً بالسلاح دون أن تهاب الموت ، وما خذلت أمة تحدت الموت دون خوف . .

فى كل يوم كان الألوف يخرجون ليواجهوا الموت فى سبيل مصر ، معظم أولئك الذين خرجوا من بيوتهم فى الصباح للهتاف باسم مصر ، ماتوا شهداء أو ضربوا أو سجنوا أو فصلوا من وظائفهم أو شردوا من بلادهم . .

ولكن فى اليوم التالى خرج آخرون غيرهم ، وساروا فى طريق مصر وهتفوا وتحدوا الموت . .

وتعطلت المواصلات ، ثم أضرب الموظفون عن العمل ، ثم المحامون ، ثم المحامون الشرعيون ، ثم عمال العنابر . وتوقفت عجلة الحياة فى مصر . .

وفى ١٦ مارس ١٩١٩ كانت مظاهرة السيدات . للمرة الأولى فى تاريخ العرب والمسلمين تخرج النساء إلى عرض الطريق مطالبات بالحرية لأمهن مصر ، وأبدين من البسالة ما هز وجدان المواطنين . .

وكتبت كبيرات نساء مصر احتجاجاً يفيض بالصدق والعاطفة والقوة ، وقدمته لممثلى الدول الأجنبية فى مصر . .

وكانت وجهة المظاهرات كلها بيت الأمة ، بيت سعد زغلول . .

وماذا كان يطلب المصريون فى بيت الأمة وقد خلا من صاحبه ؟

دون شعور كانوا يتجهون نحو وجهة واحدة : من هنا صدر النداء ، وفى هذا الطريق نسير . .

وابتداء من ١٢ مارس ١٩١٩ بدأت جماعات من أهل القرى تقطع خطوط سكة الحديد . لم يكن القصد التخريب قطعاً ، وإنما هى وسيلة لإسماع الصوت والمشاركة . عندما يقطع الخط الحديدى فى موضع تضطرب المديرية ، ويبلغ الأمر دار المعتمد البريطانى وقائد قوات الاحتلال ؛ وهذا هو المهم .

ونشطت السلطة العسكرية فى عقاب القرى التى قطع أهلها خطوط سكة الحديد ، وأنذرت بمحاصرة كل قرية تفعل هذا وإحراقها بأهلها . .

وبرغم ذلك تقطعت المواصلات ، ووجد المحتل نفسه وجهاً لوجه أمام أمة بأسرها تعلن عليه العصيان وتطالبه بالخروج من البلاد .

وكلما اشتدت السلطة العسكرية فى إجراءاتها ، ازدادت الثورة عمقاً واتساعاً وعنفاً واندلاعاً . .

وفى ١٧ مارس ١٩١٩ كانت المظاهرة الكبرى التى سارت فيها القاهرة كلها بالفعل ، مدينة بأسرها خرجت عزلاء لتواجه المحتل وتعلنه بأنها تريد الحرية ولا شىء إلا الحرية . .

هذه المظاهرات كلها لم يكن يرتبها أحد . كان الناس يتلاقون ويتجمعون دون سابق موعد . كانوا يستجيبون لنداء مصر من تلقاء أنفسهم . كان قادة الجماهير يتلاقون فى مقهى أودار أو فناء مدرسة أو ميدان أو عند الجامع الأزهر . . ويبدأ أحدهم الهتاف فيتجمع الناس ، ثم يقف أحدهم خطيباً فيهاجم المستعمر وينادى بالحرية ، ولا ينتهى الخطاب حتى

يكون الألوف قد تجمعوا ، ويبدأ المسير والهتاف . .

ويدهش الإنسان إذ يقرأ أن الجماهير نظمت « بوليساً وطنياً » له شاراته الخاصة، للمحافظة على نظام المظاهرات ، والحيلولة بين العناصر المخربة غير المسئولة والاندساس فى صفوف المتظاهرين . .

وخرج الجنود الإنجليز عن هدوئهم ، وانطلقوا يعبرون عن حقدهم على المصريين بالانقضاض على المقاهى ، وضرب الجالسين فيها ضرب عشواء دون حساب . .

وشملت الحركة مصر كلها : القاهرة والإسكندرية وبور سعيد ودمنهور ورشيد وطنطا وبركة السبع وقلين ودسوق وسمنود وزفتى وكفر الشيخ والمحلة الكبرى وشبين الكوم ومنوف وتلا والمنصورة ودمياط وميت غمر والفيوم والواسطى وإطسا والمنيا وأسيوط وديروط ودير مواس وجرجا وقنا وأسوان . . مصر كلها . .

فى كل مظاهرة كان يسقط شهداء وجرحى ، وقد قدر عبد الرحمن الرافعى عدد شهداء هذه الفورة القومية الكبرى بثلاثة آلاف ، لم يخل من دمهم الزكى بلد من بلاد مصر . .

واهتزت بريطانيا لهول الثورة الشاملة ، وعزلت السير رجينالد وينجت فغادر مصر فى ٢١ مارس ، وعينت مكانه الجنرال إدموند هنرى هاينمان أللنبى معتمداً بريطانياً ونائباً للملك ، فوصل إلى مصر فى ٢٥ مارس ١٩١٩ ، وبدأ سياسة القمع والعنف والمذابح . .

واستمرت الثورة غير عابئة بنائب الملك . . فما كان للمذابح من أثر إلا أن تزيد الثورة اشتعالا ، وتثبت أن بقاء المحتلين مستحيل . .

انطلق جنود الإنجليز يفتكون بالمصريين العزل – أحياناً دون مبرر على الإطلاق ، كالهجوم على عرس وإطلاق النار على الناس . ووقعت مذابح العزيزية والبدرشين فى ٢٥ مارس ١٩١٩ ، حيث انقض الجنود الإنجليز على أهل القرى فى منتصف الليل ، وأخرجوهم من بيوتهم ورموا نفراً منهم بالرصاص ، وحدث مثل ذلك فى نزلة الشوبك . .

وفى ٧ أبريل ١٩١٩ أعلن أللنبى إخفاقه أمام ثورة الشعب ، وصدر قرار الإفراج عن سعد وصحبه المنفيين فى مالطة .

وكان ذلك أول نصر تكسبه مصر فى معركة الحرية بعد قيام ثورة ١٩١٩ .

وبالإفراج عن سعد وصحبه دخلت الثورة فى عهد جديد .

ولسنا هنا بسبيل حكاية أحداث الثورة ، فهذا ليس موضوع هذا الفصل ، ويستطيع القارئ أن يتتبعها فى سلسلة كتب عبد الرحمن الرافعى عن الحركة القومية فى مصر ، وهو راوية أمين ومؤرخ مصرى ، تابع فى صدق ودأب – يدعوان إلى الإعجاب – تقليد مدونات تاريخ مصر ، التى بدأت بعبد الرحمن بن عبد الحكم . .

والمهم لدينا أن هذه الثورة كانت هزة عنيفة صدرت من أعماق مصر كلها ، فأما الذين كانوا أيقاظاً من أبنائها فقد ساروا فى طريق الحرية الجديد ، وأما الذين كانوا نياماً فقد نهضوا وأخذوا مكانهم فى ركب النهوض . .

أفاقت مصر إلى نفسها من نوم القرون ، وتفجرت كوامن القوة فى كيانها فى صور شتى ، فلم تبق ناحية من نواحى النشاط إلا شملها النهوض والتجديد .

وتجلى للناس أن كيان مصر كان ينطوى على عبقريات وملكات صافية خلاقة فى كل ميدان ، وكأنما كانت مصر مارداً فى قمقم حبيساً من عشرات القرون ، فلما زال السداد خرج المارد وحجب عين الشمس ، وقلب أرض مصر وأرض العروبة كلها رأساً على عقب . .

وهذا المارد هو جيل ثورة سنة ١٩١٩ ، ممن فجرت الثورة كوامن العبقرية فى كيانهم ، فأتوا بكل عظيم من الابتكار عجيب . .

(٤)

رجال المعركة

فجرت الثورة كوامن العبقرية فى كيان مصر ، وأخرجت للدنيا عباقرة فى كل مجال من مجالات الحياة القومية ، حتى تلك التى ما كان يخطر على البال أن مصر تبدع فيها ، كالاقتصاد وشئون المال وأعمال المصارف : ظهر جيل من الاقتصاديين يقودهم محمد طلعت حرب فأنشأوا بنك مصر وشركاته تباعاً .

وبينما كان سيد درويش – ذلك الشيخ الإسكندرى الذى لم يقرأ النوتة فى حياته قراءة صحيحة – يلحن أغانى للثورة ورجالها ويتطلع إلى تلحين الأوبرا ، وهى شيء مختلف جداً عن طبيعة الموسيقى العربية ، موسيقى الطرب الاستاتيكى الجنسى ، وكان سيد درويش يخطو هذه الخطوة التى لا تصدق ، كان محمود مختار يستلهم تماثيل أجداده ليطلع على الناس مثالا عبقريًّا : طاوياً القرون القهقرى ملتمساً روح مصر الخالدة ، وباحثاً عن الإزميل الذى تركه جده المثال المصرى القديم من قرون طويلة ليتابع به عمله . .

وبينما كان أحمد شوقى ينظم مدائحه الباردة الضعيفة النبض قبل الثورة ، إذا بحرارة الثورة تسرى إليه فتدب فى شعره حرارة لم يعهدها هو نفسه ، ويخطو – وهو شاعر القصر المترف المدلل – ليقول من أعماق

نفسه شعراً قومياً قوى النبض . يجمع فيه قوة نفسه وعبقريته الشاعرية كلها ، وتعود الثورة بالشعر العربى إلى مستويات أبى تمام والبحترى والمتنبي وأبى العلاء . .

ومن صميم الريف ، من نواحى السنبلاوين تخطو نحو القاهرة شابة ذات صوت جميل لتغنى وتنشد المواويل والمدائح النبوية ، ويجرفها مد الثورة فإذا بها تسمو فوق كل مستوى عرفه الإنشاد العربى من قبل ، وتخطو على مسرح الحياة العربية مثلا فريداً للمغنية ، يختلف عن المطربة القديمة البدينة الغانية اللعوب ، وتتجلى للناس مطربة العصر الحديث – أم كلثوم إبراهيم – فى ثوب منشدة ذات مستوى فنى وإنسانى رفيع . .

وفى عالم الطب تظهر أسماء على إبراهيم وسليمان عزمى ومحمد صبحى وعلى رامز وإبراهيم فهمى المنياوى وجورجى صبحى ونجيب محفوظ وغيرهم كثيرين ، ممن ارتفعوا بالطب المصرى إلى أعلى مستويات العصر . .

ومن روما عاد إلى مصر سنة ١٩٢٢ شاب وسيم عامر القلب بالفن وحافل الرأس بالطموح لينشئ مسرح رمسيس ، وتبدأ أسطورة يوسف وهبى التى صنعت لفن التمثيل والمسرح فى مصر عالماً فنياً متدفق الحيوية فياضاً بالخلق والإبداع . وفى الطريق الذى شقه مسرح رمسيس يظهر مسرح فاطمة رشدى ومسرح الريحانى ، وتتألق أنوار شارع عماد الدين باهرة تجتذب الألوف كل ليلة . .

ومن صميم الصعيد أقبل طه حسين ، شاباً ريفياً أزهرياً ، يتحسس طريقه فى صعوبة وعسر ، كأنه يشق بعصاه نفقا فى جبل شامخ أشم ،

ويشق لمصر وأم العروبة كلها طريقاً واسعًا من العلم والفهم وحرية الفكر والثقافة والفن الأدبي .

ومن قلب أسوان يقبل عباس محمود العقاد ، شاباً نحيلا يتوقد ذكاء وعزماً وموهبة وعزة ، فينضم إلى موكب سعد زغلول ، ويمسك القلم ويكتب ، فيتجلى عن كاتب من أعاظم الكتاب والمفكرين فى تاريخ العرب كله . .

وهذه مجرد طلائع وأمثلة . . والقائمة طويلة ، والمجالات التى فتحها جيل ثورة ١٩١٩ تشمل نواحى الحياة القومية كلها . .

خصائص جيل ثورة ١٩١٩

ورجال هذا الجيل ليسوا كلهم من عمر واحد ، بل إن أعمارهم ليست متقاربة فى كثير من الأحيان . فبعضهم – مثل سعد زغلول – ولدوا فيما بين سنتى ١٨٥٦ و ١٨٦٠ ، وبعضهم الآخر ولدوا أوائل هذا القرن ، ولكنهم جميعاً يشتركون فى أمر واضح هو أنهم كانوا كلهم فى سن العمل والجهد والكفاح عندما قامت الثورة ؛ أو فيما بين سنتى ١٩١٩ و١٩٢٥ بتحديد أوسع شمولا ، يستوى فى ذلك من كان منهم بين هذين التاريخين فى سن العشرينيات مثل توفيق الحكيم (ولد ١٩٠٣) ومحمد عوض محمد (١٩٠١) وإبراهيم ناجى (١٨٩٨) ومحمود طاهر لاشين (١٨٩٧) ومحمود تيمور (١٨٩٤) وأحمد رامى (١٨٩٢) وزكى مبارك (١٨٩١) وإبراهيم عبد القادر المازنى (١٨٩٠) – أو من كان أكبر من ذلك بقليل أو كثير مثل عباس محمود العقاد (ولد ١٨٨٩)

وعلى عبد الرازق (١٨٨٨) وسلامة موسى (١٨٨٨)ومحمد حسين هيكل (١٨٨٨) وأحمد أمين (١٨٨٧) ومصطفى عبد الرازق (١٨٨٢) وأحمد لطفى السيد (١٨٧٢) وأحمد شوقى (١٨٦٨) . .

كل أولئك إما أدركتهم الثورة وهم فى عنفوان نشاطهم ، فتأثروا بها وأخذتهم فى تيارها وبدأت فى عملهم عهدًا جديداً ، أو وقعت وهم بعد فى مطالع سنوات العمل والإنتاج فرسمت لهم طريق العمل ووجهت إنتاجهم كله وأعطته طابع الثورة والتجديد . .

ويستوى فى هذا أيضاً من عمل على إيقاد شرارة الثورة ، ومن مهد لها أو حمل رايتها فى أدوارها الأولى (من أمثال سعد زغلول وعبد العزيز فهمى وعلى شعراوى وأحمد لطفى السيد) ، أو دخل ميدانها فى أدوارها التالية (مصطفى النحاس وسينوت حنا وواصف غالى وعبد الحميد أبو هيف وغيرهم) ، ومن عمل فى الميدان السياسى مباشرة ، أو عمل بروح الثورة فى ميدان آخر من ميادين النشاط القومى بعد ذلك ؛ فإن هؤلاء – جميعاً – يدخلون فى اتجاه واحد ، هو اتجاه خدمة مصر والعمل على تحريرها وتحرير شعبها ، والنهوض بها وإعلاء شأنها بين الأمم . . . وإلى جهود هؤلاء جميعاً – يرجع الفضل فيما وصلت إليه مصر من تقدم واضح على غيرها من البلاد التى كانت خاضعة للاستعمار (وهى معظم إفريقيا وآسيا) خلال العشرينيات والثلاثينيات من هذا القرن العشرين . .

والحق أن مصر أصبحت – بفضل جهود هذا الجيل – فى طليعة أمم الشرق كلها ، أصبحت المثل الذى تحتذيه وتسير فى طريقه الأمم الأخرى . وخلال هذه الفترة برزت القاهرة كمركز من أكبر مراكز التحرر

فى العالم ، وإليها وفدت جماعات المجاهدين والمطالبين بالحرية لبلادهم ، فاتخذوها مركزاً لنشاطهم وجهودهم للتحرير ، مستفيدين من الحرية النسبية التى كسبها شعب مصر نتيجة لثورة ١٩١٩ .

* * *

وإذا نحن تأملنا سير أعلام ذلك الجيل وما قاموا به من جهود – أيًّا كان ميدان نشاطهم ، فى السياسة أو الطب أو الأدب أو العلوم أو الفنون الجميلة – تبينّا أنهم يمتازون بخصائص واضحة أهمها :

* أولا : الحب العميق الصادق لمصر ، والاعتزاز الشديد بها وبحضارتها وماضيها وفضلها ، والإيمان الراسخ بأنها لابد أن تتحرر تحرراً كاملا وتعود إلى طليعة أمم العالم .

هذا الإيمان بمصر نجده عند الزعماء السياسيين فى تصرفاتهم وخطبهم ، ونجده عند أهل الثقافة فى كتاباتهم ، ونجده عند أهل القانون فى أبحاثهم ودراساتهم ، ونجده عند رجال الطب والعلوم وعند رجال الفنون على السواء .

فقبيل ثورة ١٩١٩ كان اليأس الشامل قد خيم على البلاد أواخر الحرب العالمية الأولى ، وقد تفرق زعماء الحزب الوطنى وخفت صوت محمد فريد وهو يجاهد وحيداً – تقريباً – فى أوربا ، مخلفاً وراءه فى مصر رجالا ذوى إخلاص شديد ، ولكن قدرتهم على الاتصال بالجماهير كانت قليلة ، ثم إن قوتهم الدافعة كانت محدودة ، وقد تحولت المسألة المصرية فى أيديهم إلى قضية أمام محكمة غير منظورة ، وهم فى تصرفهم فى تلك الأيام أشبه بالمحامى الذى يدبج المذكرات القانونية المدعمة

بأوثق الأسانيد وأقوى الحجج ، ويقدمها إلى قاض لا يقرؤها ولا يريد أن يقرأهـا ، ولا يزال يسوف ويؤجل ويتلذذ بسعي المحامي بين يديه بالمذكرات . .

وأما أهل الحكم – وعلى رأسهم السلطان فؤاد – فقد اطمأنوا إلى أنهم موظفون لدى الحكومة البريطانية ، فهي تختارهم وتستخدمهم وتأجرهم وتحميهم ، وفي طريق الطاعة والخضوع والاستسلام سارت – أو قعدت – طوائف أهل البلاد . . وعندما تقرأ كتاب اللورد كرومر المسمى « مصر الحديثة » ، لا تحس ببارقة أمل في أن هذا الشعب ستقوم له قائمة يوماً ما . .

أما بعد أن قامت هذه الثورة ، فقد امتلأت النفوس إيماناً بمصر وحبًّا لها ، وسرى الإحساس الوطني حتى مس قلوباً كانت أبعد ما تكون عن الإحساس به . فبينما كان أهل الغناء قبل الثورة ينشدون أغاني كلها سقوط وانحطاط وجنس لا يعرف الحياء ، أصبحوا بعد الثورة يغنون أغـاني وطنية كلها حب لمصر وتمجيد لثورتها ورجالها ؛ حتى المسارح الصغيرة في روض الفرج والأحياء الوطنية ، كانت ترفع ستارها عن فتيات يتوشحن بعلم مصر ويلوحن بأعلام مصرية في أيديهن ، وهن ينشدن أناشيد وطنية . وظهر على لافتات المحلات التجارية الصغيرة رسم العلم المصري أو رسم علمين مصريين متعانقين ، ونظم محمود مراد الأستاذ بالمدرسة الخديوية إذ ذاك نشيد « أسلمي يا مصر » وردده أبناء مصر جميعاً ، ورفع المصريون جميعاً رءوسهم ، وامتدت أمامهم الآمال ، وأصبحت هيئات البلد كلها – مثل النقابات بشتى مستوياتها والمجالس البلدية والقروية – هيئات وطنية ، وحلت أخلاق العزة والشهامة والنصر

محل أخلاق الذلة والخوف والهزيمة ، وانتشرت بين الشباب « موضة
رباط الرقبة الأخضر المزين بالهلال والنجوم على صورة العلم المصرى ،
وتعانق المسلمون والأقباط ، وخطب القسس فى المساجد ، وخطب
الشيوخ فى الكنائس ، وكان الزائر لمصر فى أواخر ١٩١٩ وما بعدها
يشعر أنه فى بلد بعث بعثاً جديداً . .

وكان من عجيب المصادفات أن اكتشف قبر « توت عنخ آمون »
فى تلك الآونة ، وظهرت إلى الوجود روائع الفن المصرى والحضارة
المصرية التى هزت العالم كله فى ذلك الحين ، وأكدت فضل مصر
على حضارة الدنيا واستحقاقها الكرامة والاحترام ، فضلا عن الاستقلال
الذى نالته فى ذلك الحين أمم لا تنهض إلى مستوى مصر ، كبعض شعوب
البلقان وجمهوريات البلطيق وغيرها ، مما رأى عبث جورج كليمانصو
ولويد جورج أن يخلقه من أمم هى ألوان على الخريطة ولا شىء وراء
ذلك . . .

لا عجب – إذن – أن يزداد أهل مصر اعتزازاً بوطنهم ، وأن تجد مدرسى
التاريخ واللغة العربية فى المدارس يجعلون دروسهم محاضرات فى الوطنية . .
وكل من كانوا فى المدارس الابتدائية والثانوية فى ذلك الحين يذكرون
مدرسى هذه الفترة (١٩٢٠ – ١٩٣٠) وما كان لهم من الفضل فى إنشاء
جيل يحب مصر ويعتز بها ، وتمتلئ نفسه بأحلام الحرية وآمال المستقبل
العظيم .

لهذا نجد المتحدثين باسم مصر فى هذه الفترة يتحدثون مع الإنجليز
فى عزة وترفع ، بل من مركز قوة ! ولقد وقفت مصر كلها من اللجنة

التى أوفدتها إنجلترا إلى مصر برياسة اللورد ملنر وزير المستعمرات فى ٧ ديسمبر ١٩١٩ موقف مقاطعة تامة ، أجمعت عليه هيئات البلاد جميعاً (فيما عدا القصر السلطانى ووزارة يوسف وهبة باشا ، التى تألفت فى ٢١ نوفمبر ١٩١٩ لتسهيل مهمة اللجنة) ، لأن لجنة ملنر وفدت على مصر لبحث النظام الذى يلائم مصر تحت الحماية ، ودراسة إمكانية إنشاء حكم ذاتى (محلى) يصرف الأمور الجارية فى البلاد ، مع بقاء مصر جزءاً من الإمبراطورية البريطانية . ولقد مكث اللورد ملنر ولجنته فى مصر ثلاثة أشهر ، دون أن يتصل بها أحد من أهلها ، ورحلت عنها فى ٦ مارس ١٩٢٠ وهى لا تصدق أن هذا الشعب الأعزل الأمى – فى الغالب – يصل فى الاعتزاز بنفسه والوعى لمصالحه إلى هذا الحد . .

وهنا ، وفى مجال الحب لمصر والاعتزاز بها ، ظهر بوضوح أن مصطفى كامل ومحمد فريد لم يكونا يتحدثان فى فراغ كما كان يظن ، فالكلام الذى كان يجرى على الألسن فى أثناء الثورة وبعدها نثراً وشعراً هو كلام مصطفى كامل ومحمد فريد . وهذا العشق الرومانتيكى لمصر وكل ما فيها – الذى أبدع هذان الرجلان فى التعبير عنه – انتقل الآن إلى لسان كل مصرى ، وسرى فى النفوس مسرى الدم ، فألهمها ثباتاً ونضجاً وقوة لم تصل إليها أمة من الأمم خارج أوربا وأمريكا الشمالية فى ذلك الحين . وإنك لتجد الأقباط يشعرون بالمهانة التى ألصقها بهم يوسف وهبة عندما قبل تولى الوزارة ، فيجتمعون فى الكنيسة المرقسية فى ٢١ نوفمبر ١٩١٩ برئاسة القمص باسيليوس وكيل البطريركية ، ويعلنون سخطهم على يوسف وهبة وبراءتهم منه ، فقارن بذلك انخداع المسيحيين فى سوريا

ولبنان وترحيبهم بالتعاون مع المستعمرين واستجابتهم إلى دعوات تقسيم الشام ، مما أدى إلى تحطيم وحدة الشام تحطيماً كان ضياع فلسطين إحدى نتائجه . ولقد عرف أقباط مصر كيف يحافظون على وحدة بلدهم فى ذلك الظرف العسير ، ودللوا على وطنية عميقة وبعد نظر جدير بكل إجلال ، وذلك مظهر من مظاهر الحب الخالص لمصر الذى شمل الجميع .

وفى نفس الكنيسة اجتمعت فى ١٢ ديسمبر ١٩١٩ سيدات مصر مسلمات وقبطيات ، تتقدمهن هدى شعراوى وشريفة رياض ، فأعلنّ استنكارهن ليوسف وهبة ووزارته .

* والخاصية الثانية هى روح الجد التى شملت الجميع خلال العشرينيات من هذا القرن ، وارتفعت برجل الشارع البسيط إلى مستوى الرؤساء وأهل المسئولية وأصحاب الوعى الكامل ممن تولوا قيادة الحركة ؛ روح الجد هذه جعلت الناس جميعاً يتصرفون فى حزم واستعداد كامل للتضحية .

فى أعقاب ثورة ١٩١٩ كان معنى التضحية بذل الحياة والمال والوظيفة فى سبيل الوطن دون تردد ؛ فى تلك الأيام كان الموظفون يضربون عن العمل وهم يعرفون أن عقابهم الفصل من الوظيفة ، فلم يكونوا يبالون بذلك مع أنهم جميعاً كانوا فقراء لا يملكون إلا مرتب الشهر ؛ وكان الطلاب يواجهون الإنجليز من مدرسيهم ونظارهم فى حزم وشجاعة ، وهم يعرفون أن عقابهم هو الفصل من المدرسة وضياع المستقبل وربما الحبس والجلد ؛ وكان المصرى العادى يخرج من بيته ليشترك فى مظاهرة ضد الإنجليز

وكأنه ذاهب إلى عمل لابد له من القيام به ، وهو يعلم أنه بذلك يواجه الرصاص والموت .

على سبيل المثال : نقرأ فى كتاب عبد الرحمن الرافعى عن ثورة ١٩١٩ (ط٣ سنة ١٩٥٥ جـ ١ ص ٢٢٠ – ٢٢١) قائمة بأسماء شهداء مظاهرات المنصورة فى ١٤ مارس ١٩١٩ ، فنجد من بينهم ٣ من كتاب المصالح – أى من « الأفندية » – و ٣ من الطلبة ، وفقيهاً ، وعطاراً ، و٨ من العمال ما بين بناء وحداد ونجار وطباخ وحوذى ؛ وواحدًا من أصحاب الحرف التخصصية الدقيقة (ساعاتيا) ، و ٣ من المزارعين وأهل القرى المجاورة . . مات هؤلاء شهداء ، وفى اليوم التالى خرجت مظاهرة أخرى من أمثالهم . . .

وإننا لنحس بروح الجد والتضحية ، عندما نرى أن أمثال هذه المجازر التى كان الإنجليز يوقعونها بالمصريين ، لم تكن ترهب الناس أو تخيفهم من العمل فى سبيل بلادهم . ففى تلك الأيام كثرت الجمعيات السرية التى يؤلفها الشبان لاغتيال الإنجليز وعملائهم ، بل كان هناك شبان كثيرون يحفزهم الشعور بالواجب نحو الوطن إلى تدبير اغتيال جبابرة الإنجليز وعملائهم ، وكان الواحد منهم يرتب العملية ويقوم بها منفردًا وهو يعلم أن مصيره الموت لا محالة ، وهؤلاء هم الفدائيون المصريون الذين أرهبوا الإنجليز .

هذه الروح الجادة نجدها عند كل أهل مصر فى ذلك الحين ، سواء عند أصحاب القيادات السياسية ومن يتبعونهم ، وأصحاب الأعمال والملكات . وعند الناس ممن انصرفوا إلى خدمة مصر فى شتى الميادين ؛

حتى الذين كانوا يمارسون أعمالهم فى الماضى على الطريقة المتراخية التقليدية ، نجد الحماس يدب فى قلوبهم فيرتفعون بأعمالهم ومستوى تقديرهم لها إلى أعلى مستويات الإحساس بالواجب والقيام به وإتقانه ، ووضع جهودهم فى خدمة مصر لا يطلبون جزاء من أحد . فما من صحفى أو أديب أو فنان أو عامل فى تلك الأيام ، إلا كنت تجده يعمل فى صدق لأنه يشعر بأنه يخدم بلاده ، وما يكاد الرصاص يدوى فى الشوارع حتى تجد الأطباء يهرعون إلى تضميد الجرحى وعلاج المصابين . .

وما يكاد الإنجليز يطاردون المتظاهرين حتى تفتح أبواب البيوت لتؤوى الشبان وتحميهم من الرصاص والهراوات ، مع ما فى ذلك من الخطر على الحرم وربات البيوت ، فما كان الإنجليز ليترددوا عن اقتحام البيوت وانتهاك حرماتها بحثاً عن المتظاهرين . وخلف أبواب البيوت يسارع أهلها فيقدمون الماء والطعام والضماد – إذا لزم الأمر – إلى الوطنى الشاب المجاهد ؛ وكان من المألوف جداً فى تلك الأيام أن تجد ربة لبيت وأم أولاد لجأ إلى بيتها شاب جريح ، فعنيت به ثم التفت بملاءتها وقطعت المدينة من طرف إلى طرف على رجليها لتطمئن أسرة الشاب على صحته ؛ وقد وصف إحسان عبد القدوس شيئاً من ذلك بكثير من الصدق والدقة فى أجمل رواياته على الإطلاق : « فى بيتنا رجل » . .

ومن المصريين فى تلك الأيام من حفزته الهمة والرغبة الجادة فى خدمة وطنه إلى سلوك طريق جديد يختلف عن طريق حياته الأول ، كما فعل محمد طلعت حرب الذى كان إلى ذلك الحين ينفق وقته فى تأليف

كتب فى التاريخ والاجتماع ، مع اهتمام بالأمور الاقتصادية ، فما إن قامت الثورة حتى نجده يندفع نحو الاقتصاد ، فيشترك مع زميليه أحمد مدحت يكن وفؤاد سلطان فى إنشاء بنك مصر فى ٧ مايو ١٩٢٠ . . وقد تحمست الأمة لهذا المصرف حماساً عظيماً ، فتمت تغطية رأس المال المطلوب فى أيام قليلة ، وتسابق المصريون إلى التعامل معه . وتبين بوضوح أن طلعت حرب عبقرية اقتصادية سيرت أعمال هذا المصرف بذكاء وقدرة ، والتفت حوله طائفة من الشباب الموهوب ، فإذا ببنك مصر ينمو نمواً يفوق ما كان متوقعاً ، وينشئ مجموعة اقتصادية صناعية تجارية تضم عدداً كبيراً من الشركات أكبرها شركة النسيج بالمحلة الكبرى . وقد غطى نشاط طلعت حرب ومجموعته مساحات شاسعة من الاقتصاد القومى ، تمتد من النسج إلى التأمين والسياحة والملاحة البحرية والسينما وغيرها .

وما كان هذا الصرح الشامخ ليرتفع إلا على أساس روح الجد التى شملت مصر كلها عقب قيام ثورة ١٩١٩ .

ومثل هذا يقال عن إنشاء الجامعة المصرية التى تأسست سنة ١٩٠٨ كمؤسسة تعليم عال أهلية ، يعمل فيها نفر من هواة العلم والثقافة ، ويشجعها بعض الخليين إذ ذاك ، مثل الأمير أحمد فؤاد . فلما قامت الثورة انتقلت قيادة هذه الجامعة إلى المخلصين من أبناء مصر ، فما لبثت أن تحولت إلى جامعة رسمية نظامية ، ثم افتتاحها فى ٧ فبراير ١٩٢٨ . ومن أول إنشائها ظهرت فيها عبقريات علمية حقيقية ، عملت بذلك الجد والإخلاص وشعور الحب الذى تميز به العمل المصرى فى أعقاب الثورة ،

ويكفى أن نضرب أمثلة قليلة من العلماء الأجلاء الذين عملوا فى الجامعة ووضعوا لمصر وبلاد العروبة أساس نهضتها العلمية والفكرية الكبرى: أحمد لطفى السيد وطه حسين ومصطفى مشرفة وأحمد زكى وأحمد أمين وعلى إبراهيم وعبد الرزاق السنهورى ومحمد الخضرى وعبد الحميد العبادى وشفيق غربال ومحمد عوض محمد ومصطفى عبد الرازق ، وغيرهم ممن لا يتسع المجال هنا لذكر أسمائهم جميعاً .

ومثل هذا الجد نجده وراء نجاح مؤسسات أخرى ذات فضل عظيم فى النهضة الفكرية والعلمية والاقتصادية المصرية ، مثل مسرح رمسيس ومسرح الريحانى ومعهد الموسيقى الشرقية وشركة مصر للتمثيل والسينما وغيرها ، فكل واحدة من هذه المؤسسات قامت على أكتاف رجال مخلصين عرفوا كيف يخدمون وطنهم ويعلون بنيانه بالجد والإخلاص والصدق . ولم يعرف عالم الفن جماعة عملت بإخلاص وصدق وكفاية كما عملت جماعة يوسف وهبى وعزيز عيد ونجيب الريحانى وروزا اليوسف وفاطمة رشدى ومحمد عبد الوهاب وأم كلثوم ومحمد كريم وعزيزة أمير وجورج أبيض وعبد الرحمن رشدى وأحمد علام وحسين رياض ودولت أبيض وزكريا أحمد وفتوح نشاطى ، وبقية هذا الموكب الحافل من أهل الفن . بل ظهرت فى ذلك الحين مدرسة النقد المسرحى الوحيدة التى يمكن أن يكتب لها تاريخ ، مدرسة محمد عبد المجيد حلمى ومحمد التابعى الذى بدأ حياته الأدبية الحافلة ناقداً فنياً فى ذلك الحين . .

وإلى جانب الصحافة التقليدية التى كانت تخدم الاحتلال – مثل المقطم والأهرام (فى تلك الحقبة من تاريخها) – قامت الصحف

المصرية الصميمة المجاهدة التى أرست قواعد الفن الصحفى والنهضة الأدبية فى البلاد . ولا شك فى أن مؤسسات صحفية مثل كوكب الشرق والجهاد والضياء وروزا اليوسف والسياسة الأسبوعية والرسالة والثقافة كانت بعض ثمرات الثورة وروحها ، وبفضل هذه الروح تطورت دور صحفية قديمة ودخلت ميدان الكفاح الوطنى فخدمت القضية المصرية أجل الخدمات ، وفى مقدمتها كانت جريدة الأهرام ودار الهلال .

* والخاصية الثالثة التى ميزت جيل الثورة هى الإيمان بالحرية والديمقراطية إيماناً حقيقيًّا ، هو نتيجة حرمان المصرى أحقاباً طويلة من حريته وحقه فى حكم بلاده ، وحرمانه من شرف المساهمة فى العمل القومى . ومن هنا لا غرابة فى أن نجد الفترة التى تلت إعلان تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ فترة صراع متصل فى سبيل الحرية والدستور والديمقراطية ، قام به الشعب ضد خصوم الحرية والدستور والديمقراطية ، وهم رجال الاحتلال والملك وأذنابهم من الانتهازيين الذين لم تمسهم روح الثورة من قريب أو بعيد . وفى أثناء هذا الصراع لكسب الدستور ظهرت عبقريات وطنية جليلة ، وشخصيات عرفت كيف تدافع عن حرية الشعب وحقوقه . ومن الظلم أن يقال إن الزعماء ما كانوا يطالبون بالدستور إلا ليصلوا إلى الحكم ، وأن الذين كانوا يهتفون للدستور فى الشوارع ما كانوا ليفهموه ، فالحق أن المخلصين كانوا كثيرين ، وأن الجماهير كانت تهتف للدستور طلباً للحرية .

ولقد بذل رجال الاحتلال والقصر جهوداً عنيفة لإضعاف إيمان الناس بالحرية والدستور ، وبلغ من وقاحة الاستعماريين البريطانيين أنهم

كانوا يهددون بضرب الإسكندرية بقنابل الأسطول ، إذا لم يكفّ البرلمان عن مناقشة قانون لا يرضيهم ، بل احتل الجنود الإنجليز جمارك الإسكندرية مرة . وما من برلمان انتخب إلا وتعقبه الملك بالحل والتعطيل ، وما من حكومة وطنية قامت إلا وتوالت عليها المطاردات والمضايقات ، وأيسر ما كانوا يلجأون إليه إغراء بعض الوزراء بالاستقالة حتى يتصدع بنيان الوزارة القائمة .

وفى أثناء هذه الحرب الطاحنة ضعف كثيرون وتراجعوا ، وأفلس كثيرون أيضاً وضاعت أموالهم . ولم يضعف مد ثورة ١٩١٩ إلا عند عقد معاهدة ١٩٣٦ التى تعتبر تصفية لثورة ١٩١٩ من الناحية السياسية ، ولا غرابة – لهذا – فى أن مصريين جدداً بدأوا يعدون للثورة الجديدة من ذلك الحين .

* والخاصية الرابعة هى الشعور بالعزة القومية والكرامة المصرية ، شعوراً بلغ أحياناً حد المبالغة فى التمسك بالكرامة الشخصية ، ففى أثناء الثورة وفى أعقابها رفع المصرى رأسه ورفض قبول أى شىء أحس بأنه يمس كرامته وكرامة بلده ولو من بعيد ، ففى أثناء جولات المفاوضات المصرية الكثيرة ما كان المفاوض المصرى يقبل أى قيد يمس حرية بلاده وحقوقها . وكانت الأمة من وراء القادة كاملة الشعور بهذه العزة ، فما ظنت فى واحد منهم تهاوناً فى حقوقها إلا انصرفت عنه ، وما تنصرف عنه الأمة حتى يصبح نسياً منسياً أو موضع الزراية والسخرية .

وانتقل هذا الشعور إلى الأفراد ، فأصبحوا – هم الآخرون – ذوى حساسية شديدة بالكرامة الشخصية ؛ ولقد كانت هذه الخاصية خيرًا ،

ولكن الإسراف فيها أصبح مصدر متاعب ومصاعب شتى ، فكثر اختلاف الناس بعضهم مع بعض ، لمجرد تصور إهانة شخصية أو تصرف يؤول على أنه إهانة مقصودة ، أو كلمة قيلت فى تبسط ودون التفات . والكثير من خلافات سعد وعدلى وبين رجال السياسة بعضهم وبعض يرجع إلى أسباب لا تصدق ، من مثل إهمال الرد على برقية أو التقصير فى عزاء أو كلمة شديدة فى مقال ، مما جعل أهل هذا الجيل – على عظيم قدرهم – شيعاً وأحزاباً وخصومات وحزازات ضيعت على هذه الأمة خيراً كثيراً وعطلتها عن السير طويلا . .

وهناك خصائص أخرى يطول ذكرها وتفصيلها ، ولكنها كلها كانت عوامل وراء النهوض الكبير الذى حققته البلاد خلال العشرينيات والثلاثينيات . فمن هذه الخصائص التى لا يتسع المجال للكلام عنها هنا بتفصيل : الإيمان بالعلم واتجاه المصريين إلى طلبه ، وتسابقهم فى تعليم أولادهم فى صورة تجعلنا نشعر بالإجلال حقًّا نحو ألوف الأفندية والمزارعين والتجار الصغار ، الذين حرموا أنفسهم – حقيقة لا مجازاً – من لقمة العيش فى سبيل تربية أبنائهم ، وإيصالهم إلى الجامعة والمدارس العالية ، لا عن مجرد رغبة فى الوصول إلى الوظائف كما حدث فى فترات أخرى بعد ذلك ، بل عن إيمان حقيقى بالعلم . وأبطال مصر القوميون خلال هذه الفترة كانوا رجال علم وأدب وفن إلى جانب اهتماماتهم السياسية ، وسعد زغلول وعبد الخالق ثروت وطلعت حرب كانوا رجال علم وأدب وفن .

وقد جاهدت الأمة المصرية للنهوض من سبات القرون جهاداً طويلا

رائعاً ، واعترضت طريقها قوى شريرة كانت تصر على إيقاف تقدمها والعودة بها إلى الوراء ، أولاها الاحتلال الإنجليزى ، وثانيتها القصر ، وثالثتها خدام الاحتلال والقصر من المستوزرين وصنائعهم ، ورابعتها الدول الأجنبية التى كانت تساند الاحتلال وتصر على التمسك بما كان يسمى إذ ذاك بالامتيازات الأجنبية ، وهى وصمة فى جبين الاحتلال والقصر والدول الأوربية جميعاً . وقد استنفد هذا الجهاد معظم قوى البلاد خلال العشرينيات والثلاثينيات ، وهى فترة تميزت بالصراع وأبطاله والجهاد ورجاله ، والعمل الكثير والخلق المتواصل فى كل ميدان ، وحفلت كذلك بالمآسي والآلام والتضحيات والأخطاء . .

نحن على حق - إذن - عندما نتحدث عن جيل ثورة ١٩١٩ فنعتبره جيلا منشئاً جاداً مجاهداً ، عرف كيف ينتقل بمصر من بلد اتفقت أوربا على اعتباره مزرعة ومستعمرة يديرها الإنجليز لحسابها ، إلى بلد مستقل ناهض يتقدم غيره من أمم إفريقية وآسيا بمراحل واسعة فى كل ميدان . .

وقد اختلفت مراتب أهل الجيل ما بين قادة وتابعين ، ما بين مبتكرين ومتابعين ، وما بين عباقرة ورجال مجدين ، ولكنهم جميعاً يكونون موكباً رائعاً من الرجال الذين أنقذوا وطناً وشادوا حضارة ومجداً ، وكل رجل منهم جدير بأن يكتب له تاريخ وحده .

الفصل الثانى

الفدائيون المصريون . .
وسقوط الحماية البريطانية

مازلنا - إلى الآن - بعيدين عن معرفة الحقيقة فيما يتصل بالظروف التى أدت إلى ثورة ١٩١٩ ، وما جرى فيها من أحداث ، وما انتهت إليه من نتائج . .

ويشغلنى هذا الموضوع ، لأنى أعتقد أننا لن نفهم ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، مالم نفهم كل شىء عن ثورة ١٩١٩ ، ولن نفهم ثورة ١٩١٩ حق الفهم ، إلا إذا عرفنا حقائق ثورة عرابى وحركة مصطفى كامل والحزب الوطنى ، ومسار الحركة القومية المصرية من أوائل القرن التاسع عشر .

لأن التاريخ الحديث لبلدنا سلسلة مترابطة الحلقات ، ولا يمكن فهم هذه الحلقات كلا على حدة ، لأننا - فى الحقيقة - أمام حركة قومية مصرية واحدة ، بدأت من أوائل القرن الماضى ، ومازالت متصلة إلى اليوم .

ولقد بذل عبد الرحمن الرافعى جهداً كبيراً فى التأريخ للحركة القومية المصرية ، منذ بدايتها إلى ثورة يوليو ١٩٥٢ ، فقدم بذلك عملا يعتبر من مفاخر المكتبة التاريخية المصرية ، وسيبقى اسم عبد الرحمن الرافعى خالداً بين السلسلة الذهبية من مؤرخى مصر الإسلامية ، التى بدأت بعبد الرحمن بن عبد الحكم المتوفى سنة ٧٨٠ ميلادية ، ومازالت مستمرة

إلى اليوم على يد الجيل الجديد المبارك من مؤرخي مصر الحديثة .

ولا أذكر كتاباً لا تمله نفسي مثل « الحركة القومية » لعبد الرحمن الرافعي بأجزائه الكثيرة ، وما من مرة تناولت جزءاً منه إلا شعرت وكأنني أطالعه أول مرة . .

وفي كل مرة تستوقفني فيه أشياء ، وتطفر أمام عيني مشكلات تحتاج إلى درس ، وأسئلة تحتاج إلى أجوبة . .

مثلا . . ما الذي حمل إنجلترا على أن تصدر — من تلقاء نفسها ، ومن جانبها فقط — تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ الذي ألغت به حمايتها على مصر ؟ . .

(١)

مرحلة طرق الأبواب المغلقة

إن تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ الذى ألغى الحماية واعترف بمصر دولة مستقلة ، مع الارتباط الكامل ببريطانيا والخضوع المطلق لإرادتها ، كان – ولا يزال – موضع خلاف شديد بين مؤرخى مصر ، سواء أكانوا مصريين أم غير مصريين .

فهو – دون شك – تصريح ، أو إعلان ، يعطينا صورة لما يسمى بالدهاء الإنجليزى . . فقد أعطت به بريطانيا لمصر استقلالا زائفاً ، واحتفظت لنفسها بكل ما أرادت الاحتفاظ به ، مما زعمت أنه ضرورى لسلامتها وسلامة إمبراطوريتها . .

وقد أنكرته غالبية المصريين الأحرار يوم صدوره ، ووقف منه الكثيرون موقف الحيرة والتساؤل والريبة . .

ولكن السلطان فؤاداً وحواشيه وأذنابه ، وأتباع الإنجليز وعملاءهم رحبوا به ، وإن كان – فى الواقع – قد صدر على رغم السلطان فؤاد ، لأنه كان مستريحاً جداً لبقاء الإنجليز يحمون عرشه . .

ولم يكن هذا السلطان يكره شيئاً قدر كراهيته لاستقلال مصر وحرية المصريين ! ومع ذلك فقد سارع وأعلن نفسه ملكاً ، وزف إلى المصريين خبر التصريح فى صورة كسب عظيم حققه هو بنفسه ، ولا أحد سواه !

نتائج تصريح ٢٨ فبراير

ونتيجة لتصريح ٢٨ فبراير وضع الدستور – وهو أول دستور فى تاريخ العرب الحديث – وعادت إلى مصر الحكومة النيابية التى كانت قد توقفت فعلا منذ بداية الاحتلال البريطانى .

ونتيجة له – أيضاً – عاد سعد زغلول وصحبه من منفاهم ، ودخل النشاط السياسى فى مصر دوراً جديداً أقل جمالا من الدور الماضى ، وهو دور التطاحن الحزبى المرير . .

ونتيجة لهذا التصريح – كذلك – تصاعد العمل الفدائى فى مصر بصورة فاقت كل ما عرفته إلى الآن ، والسبب فى ذلك أن التنظيمات الفدائية كانت تزداد حجماً ونظاماً ومهارة فى استعمال السلاح ، يوماً بعد يوم . .

بعد صدور تصريح ٢٨ فبراير بدأ النشاط السياسى يتراخى ، فى حين سار العمل الفدائى فى طريقه . . فإن الشباب – وهم عصب العمل الفدائى – لم يقتنعوا بأن هذا التصريح يحقق للبلاد خطوة حقيقية نحو الاستقلال ، فمضوا فى نشاطهم آملين فى الوصول إلى الاستقلال الحقيقى عن هذا الطريق . .

ثم إن تصرف رجال السياسة بعد التصريح كان مثيراً للغضب ، فتضاعفت اعتداءات الفدائيين على الإنجليز والمتعاونين معهم على السواء ، حتى بلغت أعمالهم ذروتها بمقتل السير لى ستاك فى ١٩ نوفمبر ١٩٢٤ .

ولقد كانت عودة سعد إلى البلاد فرصة له لكى يبدأ أسلوباً جديداً

من العمل السياسى ، يقف فيه موقف الزعيم والأب المتسامح الذى يغفر وينسى ولا يعرف الحزازات . .

ولكنه لم يستطع ، لأن خصومه – وعلى رأسهم الملك – أصروا على التحدى والإحراج والاستفزاز . . وكان سعد من الطراز المقاتل المتحدى ، فقبل الدعوة إلى المعركة ونزل الميدان . .

وليته ما نزل . .

فقد أضاع على البلاد وقتاً ثميناً ، ولم يستطع الوصول إلى الغاية التى كان يمكنه – قطعاً – الوصول إليها . .

وكثيرون جداً هم الذين انتقدوا عودته ودخوله الجولة الثانية من الكفاح ، فى حدود قواعد اللعبة التى حددها تصريح ٢٨ فبراير . .

ولسنا هنا فى مجال النقد ، فإننا إذا تكلمنا عن أحمد عرابى أو مصطفى كامل أو سعد زغلول أو عدلى يكن ، لا ينبغى أن نطالبهم بتصرف يخرج عن طبيعتهم . فسعد زغلول طالب بالاستقلال التام ، لأنه سعد زغلول المقاتل بطبعه ، وجاهد فى سبيل مصر ، لأنه كان يحب مصر بروحه كلها ؛ ثم قبل تصريح ٢٨ فبراير الذى يعطى مصر استقلالا زائفاً ، لأنه كان سعد زغلول المغامر المقامر ، الذى لا يتردد فى دخول اللعب واثقاً من نفسه مؤمناً بأن الحظ لن يخونه . .

والذين طالبوه بأن يرفض دخول الانتخابات والحكم ، أرادوا منه أن يتصرف بأسلوب محمد فريد . .

ولا يمكن أن يكون هو سعد زغلول ويتصرف تصرف محمد فريد . .

فهذا رجل وداك آخر يختلف عنه تماماً ، ولكل منهما طبعه وطريقته فى الجهاد . .

المهم أنه – فى النهاية ، وبفضل سجايا سعد وإقدامه – أضبح تصريح ٢٨ فبراير خطوة على طريق الاستقلال . . فقد دافع عن الدستور والحريات دفاعاً مجيداً ، وأصر على المحافظة على حقوق الشعب إصراراً شديداً ، وتمكن من قص أجنحة السراى وأظهر للشعب حقيقتها من غير قناع . .

ومهما قال المتشائمون ، فإن مصر لم تعد أبدًا إلى نفسية اليأس والضياع التى كانت تعانيها قبله . .

لماذ أصدرت إنجلترا التصريح ؟

ولكن . . لماذا أصدرت إنجلترا تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ ؟ !

تطور الحوادث قبل صدوره لا يقدم إلينا أى تفسير . .

ولكى يدرك القارئ غرابة صدور هذا التصريح فى الوقت الذى صدر فيه ، نوجز سير الحوادث منذ الإفراج عن سعد وأصحابه من منفاهم الأول فى مالطة إلى صدور ذلك التصريح :

٦ أبريل ١٩١٩ :

* إفراج السلطة المحتلة عن سعد وصحبه المنفيين فى مالطة .

٧ إبريل ١٩١٩ :

* إلغاء الحجر على المصريين وإعادة الحرية إليهم فى السفر من وإلى مصر كما يريدون ، وقد اعتبر هذان الأمران أول انتصار حقيقى للثورة .

٨ أبريل ١٩١٩ :

* بدء مظاهرات الشعب ابتهاجا بهذا النصر .

* تصدى الجنود الإنجليز للمظاهرات واستشهاد نفر من المصريين .

٩ أبريل ١٩١٩ :

* تأليف وزارة حسين رشدى الرابعة ، وكان المفروض أن حسين رشدى مؤيد لسعد والثورة .

* استمرار الإنجليز – برغم إفراجهم عن سعد وصحبه – فى التضييق على المصريين ، وتوالى استشهاد الأبطال .

* كان غرض الإنجليز من ذلك ألا يظن المصريون أنهم قد انتصروا عليهم ، وتدل تصرفات الإنجليز المحليين فى مصر على أنهم لم يكونوا راضين عما تصوروه من جنوح حكومتهم إلى اللين فى معاملة المصريين . .

١١ أبريل ١٩١٩ :

* سفر نفر من أعضاء الوفد من بور سعيد إلى مالطة للحاق بسعد وصحبه فيها ، ثم سفر الجميع فيما بعد إلى باريس للدعوة للقضية المصرية .

١٢ أبريل ١٩١٩ :

* بدء إضراب الموظفين ومطالبتهم رئيس الوزراء حسين رشدى بالاعتراف بالصفة الرسمية للوفد ، وبأن يعلن أن قبوله تأليف الوزارة لا يعنى الاعتراف بالحماية ، ويعمل على إلغاء الأحكام العرفية وسحب الجنود الإنجليز من الشوارع . . ومطالب أخرى .

٢١ أبريل ١٩١٩ :

* استقالة وزارة حسين رشدى الرابعة ، نتيجة لإصرار الموظفين على إضرابهم وتوقف عجلة العمل فى مكاتب الحكومة .

٢٢ أبريل ١٩١٩ :

* الجنرال أللنبي ينذر الموظفين المضربين بالفصل والعقاب .

* إبلاغ المصريين باعتراف الولايات المتحدة بالحماية البريطانية على مصر .

٢٥ أبريل ١٩١٩ :

* الموظفون يقررون إنهاء إضرابهم .

* ٧ مايو ١٩١٩ :

* اعتراف مؤتمر الصلح فى فرساى بالحماية الإنجليزية على مصر .

١٢ مايو ١٩١٩ :

* احتجاج الوفد المصرى – برياسة سعد زغلول – إلى مؤتمر الصلح ، على اعتراف المؤتمر بالحماية .

١٥ مايو ١٩١٩ :

* اللورد كيرزون وزير المستعمرات البريطانى يعلن عن عزم الحكومة الإنجليزية على إرسال لجنة إلى مصر ، للتحقيق فى أسباب الثورة ودراسة مطالب المصريين .

٢١ مايو ١٩١٩ :

* السلطان فؤاد يكلف محمد سعيد بتأليف وزارة لتسيير أمور مصر ، فى ظل الحماية والتعاون مع سلطات الاحتلال .

٢٦ يونيو ١٩١٩ :

* وزارة محمد سعيد تقرر زيادة مرتبات الموظفين ، حتى تفصلهم عن الحركة الوطنية .

* السلطة المحتلة تفرض غرامات مالية على النواحى التى وقعت فيها حوادث تدمير للمنشآت الحكومية على يد الثوار .

٢٩ يونيو ١٩١٩ :

* الإفراج عن بعض المعتقلين السياسيين .

* فى الوقت نفسه اشتدت السلطة العسكرية فى معاملة المصريين .

١ يوليو ١٩١٩ :

* إلغاء الرقابة على الصحف (شكليًّا فقط) . .

٩ يوليو ١٩١٩ :

* إيقاف أعمال المحاكم العسكرية البريطانية وإحالة القضايا إلى المحاكم العادية (اعتماداً على وجود حكومة مماثلة للاستعمار) .

٢ سبتمبر ١٩١٩ :

* محاولة اغتيال محمد سعيد رئيس الوزراء .

١٤ نوفمبر ١٩١٩ :

* دار الحماية تصدر بلاغاً تعلن فيه عن تكوين لجنة ملنر ، للتحقيق فى أسباب الثورة والنظر فى مطالب المصريين .

* عودة المظاهرات والقلاقل احتجاجاً على هذا البلاغ . استشهاد عدد كبير من المواطنين برصاص الإنجليز . كان الشعب يصر على أن المفاوضة لا تكون إلا مع الوفد الذى اختاره ووكله فى الدفاع عن حقوقه .

١٥ نوفمبر ١٩١٩ :

* وفاة الزعيم المجاهد محمد فريد فى برلين ، نهاية عصر كامل من عصور جهاد مصر فى سبيل الاستقلال .

* استمرار محاكمة الثوار الذين قبض عليهم منذ قيام الثورة ، وإصدار أحكام قاسية عليهم لتصفية الثورة .

١٩ نوفمبر ١٩١٩ :

* استقالة وزارة محمد سعيد خوفاً من اشتداد الثورة ، ومظاهرات الاحتجاج على لجنة ملنر .

٢١ نوفمبر ١٩١٩ :

* تأليف وزارة يوسف وهبه للتعاون مع لجنة التحقيق وتنفيذ مطالب الحماية .

* احتجاج الأقباط على تأليف وزارة يرأسها قبطى لهذا الغرض المنافى لمصالح الوطن .

* استأنفت السلطة العسكرية حملة الاعتقالات .

٢٢ نوفمبر ١٩١٩ :

* قتل الضابط البريطانى صمويل كوهين فى شارع شكولانى بشبرا .

٧ ديسمبر ١٩١٩ :

* وصول لجنة التحقيق الإنجليزية برياسة اللورد ملنر .

* موجة احتجاج عنيفة ضد اللجنة من كل الهيئات فى مصر .

١١ ديسمبر ١٩١٩ :

* الجنود الإنجليز يقتحمون الجامع الأزهر بحجة مطاردة المتظاهرين .

١٢ ديسمبر ١٩١٩ :

* احتجاج العلماء على العدوان على الأزهر .

١٥ ديسمبر ١٩١٩ :

* الموظفون يعقدون اجتماعاً ويقررون الإضراب ابتداء من اليوم التالى .

* إضراب الطلاب وعودة المظاهرات .

* قيام الفدائى الباسل عريان يوسف سعد بإلقاء قنبلتين على سيارة رئيس الوزراء يوسف وهبة . .

٢٩ ديسمبر ١٩١٩ :

* اللورد ملنر يذيع بياناً يؤكد فيه أنه إنما أتى للنظر فى إمكان تحقيق مطالب المصريين . .

٣٠ ديسمبر ١٩١٩ :

* رد اللجنة المركزية للوفد فى القاهرة على بيان ملنر بأن مطلب مصر واضح وصريح ، فهو ليس إلا الاستقلال التام . .

٣ يناير ١٩٢٠ :

* أمراء أسرة محمد على يذيعون بيانا يؤكدون فيه انضمامهم إلى الحركة الوطنية ومطالبتهم بالاستقلال . .

يلاحظ أنه من أواخر نوفمبر ١٩١٩ ظهر فى الحركة الوطنية عنصر جديد : وهو عنصر الفدائيين الذين رأوا أن الأساليب السياسية لن تؤدى أبداً إلى الاستقلال ، وأنه لا بد من مواجهة العنف بالعنف ، الأمر الذى أرغم الإنجليز فى النهاية على تغيير موقفهم وأرهب المصريين المتعاونين معهم . .

٢٨ يناير ١٩٢٠ :

* محاولة اغتيال إسماعيل سرى وزير الأشغال بإلقاء قنبلة على سيارته . .

٢٢ فبراير ١٩٢٠ :

* محاولة اغتيال محمد شفيق وزير الزراعة بالطريقة نفسها . .

٤ مارس ١٩٢٠ :

* إعادة الرقابة المباشرة على الصحف . . وكان هذا الإجراء رد فعل على أعمال الفدائيين المصريين ، فقد جاء فى البيان الذى أصدرته الحكومة بشأن هذه الإعادة : « نظراً لما تنشره الصحف باستمرار من المقالات التى تخل بسلطة الحكومة ، والتى من شأنها الإغراء بإحداث اضطرابات وإتيان أعمال مناقضة للنظام والأمن العام ، ستكون الرقابة على الصحف سابقة على النشر ابتداء من ٦ مارس ١٩٢٠ » .

٩ مارس ١٩٢٠ :

* اجتمعت الجمعية التشريعية (وهى الهيئة التشريعية الرسمية التى كانت لا تزال قائمة ، وإن كانت معطلة) بمنزل وكيلها المنتخب سعد زغلول رئيس الوفد وأعلنت بطلان الحماية ، وأن البلاد المصرية (التى تشمل مصر والسودان) مستقلة استقلالا تامًّا ، وأرسلت برقية تأييد إلى الوفد المصرى فى باريس ورئيسه سعد زغلول .

* أبلغت الجمعية قراراتها إلى كل الهيئات الرسمية فى الداخل والخارج ، ما عدا السراى فقد أغفلتها عمداً . .

١٦ مارس ١٩٢٠ :

* الفيلد مارشال إدموند هنرى هاينهان أللنبي يصدر أمراً بمنع كل اجتماع للجنة التشريعية وغيرها من الهيئات المنتخبة .

١٨ مارس ١٩٢٠ :

* غادرت لجنة ملنر مصر دون أى نتيجة ، بعد أن أقامت فيها ثلاثة أشهر ، فقد قاطعها المصريون جميعاً بناء على توجيهات الوفد والحزب الوطني ، ولم يتصل بها إلا الوزراء وبعض موظفى الدولة .

١٥ أبريل ١٩٢٠ :

* مكافأة للسلطان فؤاد على إخلاصه فى التعاون مع سلطات الاحتلال ، أصدرت دار الحماية بيانا قالت فيه إن حكومة جلالة ملك بريطانيا قررت تعديل نظام وراثة العرش المصرى وحصره فى سلالة السلطان أحمد فؤاد ، والاعتراف بفاروق – الذى ولد فى ١١ فبراير ١٩٢٠ – وليًّا للعهد . .

١٦ أبريل ١٩٢٠ :

* السلطان فؤاد يرسل برقية شكر إلى ملك بريطانيا . .

* احتجاج الحزب الوطنى والوفد على ذلك التدخل البريطانى الجديد فى شئون مصر . .

٦ مايو ١٩٢٠ :

* قتل الضابط هدن فى بولاق .

٨ مايو ١٩٢٠ :

* محاولة اغتيال حسين درويش وزير الأوقاف بقنبلة أخطاته ، ولكنها جرحت السائق وقتلت شابًّا سيئ الحظ . .

سادت موجة من الذعر بين المستوزرين ، وبدا بوضوح أن الاشتراك فى الحكم لخدمة الاحتلال والسراى مغامرة غير مأمونة .

١٩ مايو ١٩٢٠ :

* استقالت وزارة يوسف وهبة نتيجة لشعور الكراهية العام الذى كان يحيط بها ، ولأن محمد توفيق نسيم سعى ليحل محل يوسف وهبه . .

٢٢ مايو ١٩٢٠ :

* محمد توفيق نسيم يؤلف وزارته الأولى من أنصار الاحتلال والسراى .

محمد توفيق نسيم – ومحمد سعيد قبله ، ووزراؤهما ، وكل الذين دخلوا فى الحكم لخدمة مصالح الاحتلال والسراى ومناهضة المطالب الوطنية – يمثلون طائفة من المستوزرين يمكن أن نسميهم « الموالى الجدد » ، فهم أدوات للقصر وسلطة الاحتلال ، ينفذون ما يصدرانه إليهم من أوامر ولا يبالون بالشعب أو صالح الوطن – وقد ظل هؤلاء « الموالى » موجودين تحت أسماء شتى ، حتى قيام ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ فتلاشوا نهائيا .

٥ – ٧ يونيو ١٩٢٠ :

* اجتماع الوفد المصرى بلجنة ملنر فى لندن . ذلك أن الوفد – برئاسة سعد زغلول – أقام فى باريس حتى شهر مايو ١٩٢٠ بعد انتهاء مؤتمر الصلح محاولا إسماع صوت مصر دون أى نتيجة ، فلما عاد ملنر إلى لندن دون أن يحقق شيئاً ، اقتنع بأن الوسيلة الوحيدة للتفاهم مع شعب مصر هى التخاطب مع الوفد ، فأرسل ملنر أحد أعضاء لجنته إلى باريس ، حيث قابل سعداً ودعاه إلى الذهاب إلى لندن للتفاوض مع الإنجليز ، وبعد مناقشات أرسل سعد

ثلاثة من أعضاء الوفد إلى لندن لدراسة إمكانيات المفاوضة .

١٢ يونيو ١٩٢٠ :

* محاولة اغتيال محمد توفيق نسيم بإلقاء قنبلة عليه ، لم تصبه ولكنها أصابت السائق بجرح بليغ .

١٧ يوليو ١٩٢٠ :

* بعد اتصالات مبدئية تقدم ملنر بمشروع إنجليزى للاتفاق بين بريطانيا ومصر ، يتلخص فى قبول مصر ضمان بريطانيا لسلامتها ، ووضع قوة دفاع (حماية) فى أراضيها ، فى مقابل اعتراف بريطانيا بمصر سلطنةً مستقلة تحت الضمان أو تحت الحماية . رفض سعد هذا المشروع ، كما رفضت بريطانيا مشروعاً تقدم به الوفد يتضمن إلغاء الحماية واعتراف بريطانيا باستقلال مصر استقلالا تامًّا . .

١٨ أغسطس ١٩٢٠ :

* توقفت المفاوضات بعد أن رفض مشروع ملنر ، ورفض الإنجليز مشروع الوفد . .

* بعد ذلك بقليل اتصل عدلى يكن بلجنة ملنر (بموافقة الوفد) لوصل المفاوضات بعد انقطاعها ، فتقدم ملنر فى ١٨ أغسطس ١٩٢٠ بمشروع جديد لا يختلف عن الأول إلا فى الألفاظ . .

يلاحظ أن هذا المشروع قريب الشبه جدًّا بمعاهدة ١٩٣٦ بين مصر وبريطانيا ، فيما عدا موضوع إلغاء الامتيازات الأجنبية الذى سمحت به معاهدة ١٩٣٦ .

وأضيف لمشروع ملنر الثانى ملحق يفصل السودان عن مصر تماماً ،

ويجعله منطقة نفوذ خالص لبريطانيا . .

٢٢ أغسطس ١٩٢٠ :

* اختلفت آراء رجال الوفد حيال المشروع . وكان سعد لا يميل إلى قبوله ، ولكن رأى زملائه أعضاء الوفد اتفق على الرجوع إلى الأمة واستشارتها ، وأصدر الوفد – بلسان سعد – بيانا إلى الأمة يعرض المشروع عليها ، ويقرر هذا البيان أن فى المشروع « مزايا لا يستهان بها » ، وفى نفس الوقت أرسل سعد إلى لجنة الوفد المركزية فى مصر خطاباً خاصا يرفض فيه المشروع ويؤكد أنه لولا خوفه من انقسام الوفد على نفسه لرفض المشروع وعاد إلى مصر ، لأن المشروع – فى حقيقته – حماية وليس استقلالا . .

٢٠ سبتمبر ١٩٢٠ :

* الحزب الوطنى يرفض المشروع .

أكتوبر ١٩٢٠ :

* قدم عبد العزيز فهمى – أحد الثلاثة الذين توجهوا إلى دار المعتمد البريطانى فى ١٣ نوفمبر ١٩١٨ – تقريرا إلى الوفد يقرر فيه أن المشروع ما هو إلا محاولة بريطانية لإعطاء الاحتلال والحماية صورة شرعية باعتراف المصريين بهما . .

أوائل أكتوبر ١٩٢٠ :

* استخلص الوفد من استشارته فى مصر أن المشروع لا يحقق استقلال البلاد ، ولكنه يصلح أساساً للمفاوضات ، نظراً للتحفظات الكثيرة التى أبداها نفر من ذوى الرأى والخبرة القانونية فى مصر .

فعاد إلى باريس أعضاء الوفد الذين انتدبوا لعرض المشروع على الأمة .
قرر الوفد قبول دعوة ملنر للدخول فى المفاوضات على أساس مشروعه ، وسافر الوفد إلى لندن والتقى سعد بملنر وأبلغه أن للمصريين تحفظات على المشروع ، فقال له ملنر إن المشروع حزمة واحدة فإما أن يقبل كله أو يرفض كله أولا ، ثم تدور المفاوضات على أساسه ، « لأن المشروع عبارة عن أسس خالية من التفصيل والتفسير » .

٢٥ أكتوبر ١٩٢٠ :

* تقابل مع ملنر سعد زغلول رئيس الوفد وعدلى يكن المنتدب من الحكومة للاشتراك فى المفاوضات وكل من عبد العزيز فهمى ومصطفى النحاس وعلى ماهر ، وأحاطوه علماً بمطالب الأمة وتحفظاتها على المشروع .
وكانت أهم المطالب : إلغاء الحماية صراحة – قبول عقد معاهدة مع بريطانيا على أساس الاستقلال التام وتعاقد الند مع الند – عدم الاعتراف بأدنى حق أو امتياز لأية دولة أخرى فى مصر – لا ضرورة لتعيين مستشارين قانونيين وماليين بريطانيين – الاحتفاظ بحقوق مصر فى السودان . .

وقد استمعت لجنة ملنر لهذه التحفظات دون إبداء رأى . .

١ نوفمبر ١٩٢٠ :

* طلب الوفد رسمياً الدخول فى مفاوضات مع بريطانيا ، على الأساس الذى ذكرناه آنفاً . .

٩ نوفمبر ١٩٢٠ :

* قطعت المفاوضات . .

ذلك أن مناقشات حادة دارت فى مجلسى العموم واللوردات فى إنجلترا حول وضع مصر بالنسبة لبريطانيا وما قامت به لجنة ملنر ، وهوجم فيهما ملنر مهاجمة عنيفة . وتبين تماماً أن قادة الإنجليز – من أمثال لورد كيرزون ولورد سيلبورن ولورد سالسبورى ومستر تشيرشل – لا يريدون فى الحقيقة إلا الاحتفاظ بمصر مستعمرة بريطانية صرفة ، دون أن يتركوا للمصريين أدنى حق فى تقرير مصير بلادهم . .

وفى اجتماع قصير بين أعضاء الوفد ولجنة ملنر ، أعلن ملنر فى بيان موجز أن إنجلترا لا ترى الاستمرار فى التفاوض مع الوفد . . وأنها إذا رأت عقد معاهدة مع مصر ، فستدخل فى مفاوضات مع الحكومة المصرية (لا مع من يقولون إنهم ممثلو الشعب) . .

١١ نوفمبر ١٩٢٠ :

* غادر الوفد لندن إلى باريس ، فى طريقه إلى مصر .

* أرسل سعد بياناً إلى الشعب المصرى ، يطلب منه الاتحاد والصمود والإيمان والتضحية حتى تنال مصر حقوقها .

٩ ديسمبر ١٩٢٠ :

* نشرت الحكومة البريطانية التقرير الذى قدمه لورد ملنر إلى لورد كيرزون وزير الخارجية البريطانية عن مهمته فى مصر ، ونصحه الحكومة البريطانية بسرعة الدخول فى مفاوضات مع الحكومة المصرية على أساس مشروعه . .

يناير ١٩٢١ :

* استقال لورد ملنر من منصبه كوزير للمستعمرات ، وخلفه

وينستون تشيرشل .

فبراير ١٩٢١ :

* أعلن تشرشل وزير المستعمرات الجديد أن مصر جزء من الإمبراطورية البريطانية ، وأن كل تطور فى وضعها ينبغى أن يتم ضمن هذا الإطار . .

٢٦ فبراير ١٩٢١ :

* دار الحماية تبلغ السلطان فؤاد أن الحماية وضع غير مرض للعلاقات بين مصر وبريطانيا ، ولهذا فإن بريطانيا ترغب فى التفاوض مع مصر للنظر فيما يمكن عمله لتعديل هذا الوضع ، على أن تكون المفاوضة مع وفد رسمى يعينه السلطان . .

* * *

هنا تنتهى مرحلة طويلة من مراحل كفاح مصر لنيل استقلالها من بريطانيا . .

وتتلخص نتائج هذه المرحلة فى أن بريطانيا تنبهت إلى أنها لا تستطيع الاحتفاظ بمصر مستعمرة صرفة أو منطقة حماية .

وأنه لابد من تغيير ذلك الوضع بوضع آخر – داخل الإطار الاستعمارى – يقوم على أربع نقط :

(ا) ربط مصر بعجلة السياسة البريطانية ، وتمكين بريطانيا من استغلال مصر . . لا يهم الشكل الذى تأخذه مصر فى الوضع الجديد (سلطنة ، مملكة . . . إلخ) ، المهم أن تظل مصر ملكاً خالصاً لبريطانيا . .

(ب) لا بأس من إعطاء المصريين بعض المكاسب الشكلية ، والسماح لهم بادارة بعض شئونهم ، ولا مانع من أن يكون لحكومتهم نوع من الشكل الدستورى . .

(ج) تسخير المصريين فى القضاء على ما كانت بعض الدول الأوربية تدعيه من الحقوق فى مصر . .

(د) القضاء على ما يتمسك به المصريون من وحدة مصر والسودان ، وما تمسك به الوفد من حقوق معينة لمصر فى السودان .

نتائج جد هزيلة . .

وتبدو لنا هذه النتائج الآن جد هزيلة ، بالنسبة إلى ما قام به شعب مصر من كفاح للتخلص من ذل الاحتلال . .

فقد ذهب ثلاثة من زعماء مصر إلى ممثل الحماية البريطانية ، قبل بدء مفاوضات الصلح ، ليستجوبوه عن مستقبل بلادهم . .

وأعلن سعد بطلان الحماية فى خطاب علنى ، فكان بذلك أول من تحدى سلطان بريطانيا تحدياً صريحاً باسلا بعد الحرب العالمية الأولى . .

وهذا التحدى هز كيان مصر ، فقامت الثورة الشاملة . .

وسقط فى الميدان شهداء كثيرون . .

وغصت السجون بالمجاهدين . .

ونفى سعد ونفر من الزعماء إلى خارج مصر . .

ومضت الثورة تزداد عنفاً وبسالة ، حتى اضطرت بريطانيا إلى

لإفراج عن سعد وصحبه . .

وذهب سعد وأصحابه إلى باريس . .

وبدأت المرحلة الحزينة : مرحلة طرق الأبواب المغلقة . .

هنا بدت لهم أوربا على حقيقتها :

فمؤتمرات الصلح لم تكن – فى الحقيقة – إلا وليمة فخمة للمنتصرين . .
لعالم – فى نظرهم – كان كعكة كبيرة يقتسمونها فيما بينهم . .

أما المطالبون بحقوق بلادهم – خارج الأبواب – فلا شىء لهم ،
ا الفتات . . . لأن الفتات تعطى لأتباع أوربا : الصرب ، الكروات ،
يونان ، ليتوانيا ، لاتفيا ، أستونيا ، بولندا . . إلخ . .

وكان هنالك ناس آخرون جعلوا من أنفسهم أتباعاً للغرب ، حاسبين
ه يكافئهم على ذلك بالاستقلال ! . .

أولئك هم الذين خدعهم الاستعماريون ، وجعلوهم ينقلبون على
كيا فى عنفوان الحرب ، ويمهدون بذلك لهزيمتها . .

هؤلاء خابت آمالهم أكثر مما خابت آمال الذين لم يحصلوا على الفتات ،
ن الذين لم يحصلوا على الفتات وقفوا مكانهم – على الأقل – فى عزة
يعاونوا الأعداء على بلادهم . .

هؤلاء المخدوعون وجدوا بلادهم وقد أصبحت – آخر الأمر – جزءاً
، كعكة المنتصرين ، وجرى فيها سكين التقسيم !

بأنفسهم حكموا على بلادهم بأن تكون مستعمرات !

وفى اندفاعهم نحو الحصول على شىء ، سمحوا للصهيونية بأن تضع
مها فى فلسطين ، وفقدوا كل شىء !

وانتهت مؤتمرات الصلح وأعياده فى فرساى ، ولم تفز مصر بأى شىء . .
وانتهت مأساة لجنة ملنر ، والبلاد فى مكانها لم تتقدم خطوة . .
كان ذلك إخفاقاً ذريعاً للعمل السياسى . .

هكذا كان إحساس الشباب بصفة خاصة . . هنا كان لابد من العمل العنيف الذى بدأت به الثورة ، فهو – وحده – الكفيل بإرغام المحتل على إعادة النظر فى حساباته . .

* * *

ولكن ، إحقاقاً للحق نقول إن الوفد – وكان إلى ذلك الحين يمثل صفوة رجال مصر بلا انقسامات ولا انشقاقات – قدم لمصر خدمة جليلة . .

لقد أثبت لبريطانيا أن فى مصر رجالا من مستوى رفيع ، وأن وراء أولئك الرجال شعباً حيًّا قويًّا مستعداً لمواصلة النضال . .

وفى إحساس سعد – إذ ذاك ، وبعد التجربة الطويلة التى خاضها من ١٣ نوفمبر ١٩١٨ إلى أواخر فبراير ١٩٢١ – كان الطريق قد أصبح أقل وضوحاً مما كان عند البداية . .

فى البداية ، وقبل السفر إلى أوربا للاتصال بمؤتمر الصلح ، كان الأمل عظيماً . . لأن الثورة أيقظت شعب مصر ، وكان الناس يحسبون أنه ما دام الشعب قد استيقظ فإن الاستقلال أصبح على الأبواب . .

وفى باريس ، وجدوا أنفسهم فى طريق ضيق أبوابه – على الجانبين – مغلقة . .

وفى باريس – أيضاً – أحس سعد أن الرجال من حوله ليسوا جميعاً من

حديد ، وأن بعض القلوب تلين للإغراء .وأن الكثير من الأقدام قد تعبت بعد سير قليل . .

ولهذا فقد وضع همه فى المحافظة على وحدة الأمة ، وإذا كان هناك كثيرون من بين أعضاء الوفد قد رأوا فى مشروع ملنر كسباً ، فليحافظ عليهم إلى جانبه حتى لا ينفصلوا عن القافلة ويجرفهم التيار . .

وإذا كانت إنجلترا قد أرادت بتبليغها أن تلغى وجود الوفد ممثل الأمة ، وتضع القضية فى يد عميلها السلطان فؤاد ، فلا بد من تفويت الفرصة عليها وإبقاء السلطان خارج القضية . .

وكان عدلى رجلا كاملا وشخصية جليلة ومصرياً شريفاً وقاضياً نزيها ، ولكنه كان من الطبقة التى ولدت وعاشت فى الأرجوان : يرون أنفسهم أهم من القضية التى تصدوا لها . . وكان قد دخل القضية من منصة القضاة ، ولم يسمح لنفسه أبداً بأن ينزل إلى القاعة ويقف مع المحامين والمتقاضين . .

لهذا اجتهد سعد فى كسب عدلى إلى جانبه . .

وتوالت برقيات سعد إلى عدلى ، كلها تأييد له وتقوية لمركزه ، حتى يكون هو المفاوض الرسمى الذى يفاوض بريطانيا ، لا توفيق نسيم خادم السراى . .

وفى المدة من ١٢ فبراير ١٩٢١ إلى ١٧ مارس ، أرسل سعد إلى عدلى أربع برقيات على الأقل . .

وفى ١٥ مارس ١٩٢١ سقطت وزارة نسيم .

وفى ١٧ مارس ١٩٢١ ألف عدلى يكن وزارته التى سميت بوزارة الثقة . .

وبهذا ظل الأمل فى القلوب . . ظلت الشعلة متوهجة ، وعاد سعد إلى مصر فى ٤ أبريل ١٩٢١ ، واستقبل فى الإسكندرية والقاهرة استقبال الفاتحين . .

وفى صميم نفسه ، كان سعد لا يعرف ما هى خطوته التالية . .

ولكن شباب مصر كان يعرف . .

وشباب الأوطان – فى الغالب – لا يضلون الطريق . .

(٢)

شباب مصر
كان يعرف ما يريد

كانت الحكومة المصرية – إذ ذاك – هى السلطان فؤاد . . وكان السلطان فؤاد – كما قال سعد زغلول فى خطبته فى شبرا يوم ٢٥ أبريل ١٩٢١ – « يمثل سلطة الحماية المضروبة عليكم رغم أنوفكم » ، وهو – لهذا – لا يؤتمن على مصالح البلاد . .

ونعتقد أن سعداً – وهو فى باريس – كان لا يرى مانعاً من أن يتولى عدلى يكن رياسة وفد المفاوضات ، ويشترك معه الوفد . .

ولكنه عندما عاد إلى مصر واستقبل استقبالا قوياً شاملا لم تعرف مصر مثيلا له فى تاريخها الطويل ، شعر بأنه – فى الحقيقة – يمثل الأمة ، وأن هذه الأمة لا تثق إلا فيه . .

ولهذا تمسك بأن يكون رئيس وفد المفاوضات ، وكان على حق فى هذا التمسك . .

ومن ناحية أخرى تمسك عدلى يكن بحقه فى رياسة ذلك الوفد ، وكان على حق أيضاً فى هذا التمسك ، فهو رئيس الحكومة وهو مؤيد من سعد نفسه . .

وإلى جانب ذلك كان عدلى يكن رجلا شريفاً ووطنياً مخلصاً

ومصرياً عزيز النفس كامل الشعور بشخصيته وكرامته . .

ومثل هذا الرجل لا يمكن أن يتساهل فى حقوق بلاده ، لأن الذين يتساهلون فى الحقوق هم أصحاب المطامع الشخصية ، وقطعاً لم يكن عدلى منهم . .

وقد أخطأ سعد عندما حمل على عدلى حملة عنيفة ، ووصف تفاوضه مع الإنجليز باسم مصر بأنه « جورج الخامس يفاوض جورج الخامس » !

ولكن سعداً كان فى نشوة تأييد جماهيرى غامر ، وليته قرأ قول كريولانوس وهتاف الجماهير له يهدر ويرج روما رجاً : « هذا الهدير خمر قاتلة . . لا يشرب منها رجل عاقل » !

وما رفضه سعد رفضاً قاطعاً فى أبريل ١٩٢١ ، قبله بعد ذلك بسنوات عندما تلاشت نشوة الخمر القاتلة واتضحت الرؤية أمام عينيه من جديد . .

خلاصة القول أننا دخلنا فى المعارك الجانبية والحرب الأهلية والانشقاقات التى عطلت القضية الوطنية سنوات طويلة . .

* * *

قلنا إن شباب مصر كان يعرف ما يريد ، وأن شبان الأوطان — فى الغالب — لا يضلون الطريق . .

وللشباب طريقة مباشرة فى العمل لا يعرفها غير الشباب . .

ومن أجمل ما تبيناه — عندما أعدنا النظر فى ملف ثورة ١٩١٩ — أن رؤية الشباب الساذجة المباشرة كانت أوضح من رؤية الشيوخ ، وهذه الرؤية أنارت الطريق وأزالت كثيراً من العقبات التى وضعها

الشيوخ فى الطريق . .

ولكى نفهم هذا نعود إلى تتبع الحوادث . .

سنة أخرى فى طريق اليأس . .

٤ أبريل ١٩٢١ :

* عاد سعد وصحبه إلى مصر واستقبلوا استقبال الأبطال .

* التقى عدلى بسعد وظهرت مشكلة « من يرأس وفد المفاوضات ؟ » . .

* سعد يطلب من الحكومة إلغاء الأحكام العرفية والحكومة تعجز عن ذلك ، لأن السلطة العسكرية البريطانية هى التى أعلنتها ولا سلطان للحكومة المصرية عليها . .

٢٥ أبريل ١٩٢١ :

* جريدة الأهرام تنشر حديثاً لعدلى يكن يتمسك فيه بحقه فى رياسة وفد المفاوضات .

* فى اليوم نفسه ألقى سعد خطاباً خطيراً أليماً فى حفل أقيم لتكريمه فى شبرا ، هاجم فيه عدلى يكن هجوماً مسرفاً فى العنف : « إن هذا (أى رياسة عدلى لوفد المفاوضات) يجعل المفاوضة بين الأصل وفرعه ، أى بين الحكومة الإنجليزية وبين الحكومة الإنجليزية أيضاً » . .

٢٨ أبريل ١٩٢١ :

* بدأ الانقسام فى الوفد . . نفر من أعضاء الوفد يعلن أن سعد زغلول مستبد برأيه ، وأنه جعل القضية المصرية قضية شخصية ، ويعلنون تأييدهم لموقف حكومة عدلى . .

٢٩ أبريل ١٩٢١ :

* سعد ينشر بياناً على الأمة يعلن فيه فصل هذا النفر من الوفد . . بداية مظاهرات عدائية ضد حكومة عدلى يكن ومؤيديها . البوليس يتصدى لها . مقتل ٤ وجرح ٤٠ . .

١٥ مايو ١٩٢١ :

* الحكومة تلغى الرقابة على الصحف .

١٩ مايو ١٩٢١ :

* تأليف الوفد الرسمى للمفاوضات ، برياسة عدلى يكن .

* زيادة هياج الجماهير ضد خصوم سعد والاعتداء على بيوتهم . .

٢٢ مايو ١٩٢١ :

* مظاهرات عنيفة فى الإسكندرية والاعتداء على بعض الأجانب .

* سعد يذيع بياناً يطلب فيه إلى الشعب الهدوء .

* ونستون تشرشل وزير المستعمرات يعلن أن الاعتداء على الأجانب يجعل بريطانيا ملزمة بالبقاء فى مصر لحماية أرواحهم وأموالهم . .

هل كان الاعتداء على الأجانب من تدبير الإنجليز ؟ . .

١٢ يوليو ١٩٢١ :

* بداية مفاوضات عدلى – كيرزون فى لندن . .

(طال أمدها دون جدوى)

١٠ نوفمبر ١٩٢١ :

* اللورد كيرزون يسلم عدلى يكن مشروع معاهدة تقترحها بريطانيا

على مصر ، خلاصته أن بريطانيا تعترف باستقلال مصر ، وبأنها دولة ذات سيادة وحكومة دستورية ، وفى الوقت نفسه تحتفظ إنجلترا بمركزها فى مصر كما هو ، وتظل جيوشها على أرض مصر ، وتتولى السياسة الخارجية للبلاد ، وهى التى تتولى أيضاً التفاوض مع الدول لإلغاء الامتيازات الأجنبية . .

٢ ديسمبر ١٩٢١ :

* اللورد أللنبي يبلغ السلطان فؤاداً فى القاهرة (وبينما كان رئيس الحكومة عدلى يكن يفاوض فى لندن) تبليغاً يؤكد إصرار بريطانيا على موقفها ، ويقدم للمصريين معاونات وهمية لا قيمة لها . .

٥ ديسمبر ١٩٢١ :

* عودة عدلى يكن إلى مصر بعد فشل مفاوضاته . .

٧ ديسمبر ١٩٢١ :

* سعد يذيع بيانًا يطلب فيه إلى الأمة مواصلة الجهاد ، ويحمل على هذا التبليغ البريطانى حملة قوية . .

٨ ديسمبر ١٩٢١ :

* عدلى يقدم استقالة وزارته . . السراى ترجئ البت فيها . .

٢٠ ديسمبر ١٩٢١ :

* قتل جندى بريطانى اسمه بروكول برصاصة فى ظهره فى شارع السبتية

٢٢ ديسمبر ١٩٢١ :

* السلطة العسكرية البريطانية تطلب إلى سعد الكف عن مهاجمة

الاحتلال ، وتأمره بالتوقف عن إلقاء الخطب ونشر المقالات والبيانات . .

* سعد يرفض الإنذار ، ويؤكد أنه موكل من الأمة للسعى فى الحصول على استقلالها ، وأنه ماض فى طريقه ، « وللقوة أن تفعل بنا ما تشاء أفراداً وجماعات » . .

٢٣ ديسمبر ١٩٢١ :

* اعتقال سعد ونفر من أصحابه .

* إجماع البلاد على الاحتجاج على اعتقال سعد وصحبه .

٢٤ ديسمبر ١٩٢١ :

* عدلى يتعجل قبول استقالته . تقبل الاستقالة . .

٢٥ ديسمبر ١٩٢١ :

* أمين الرافعى يكتب فى جريدة الأخبار – لسان حال الحزب الوطنى إذ ذاك – مقالا يدعو فيه إلى وحدة الصف المصرى . .

٢٨ ديسمبر ١٩٢١ :

* عودة لذين فصلوا من الوفد إلى صفوفه .

* تولت شئون الوفد فى غياب سعد هيئة من : حمد الباسل ، وويصا واصف ، وعلى ماهر ، وجورج خياط ، ومرقس حنا ، وعلوى الجزار ، ومراد الشريف ، وبطرس غالى . .

* أعلنت هيئة الوفد بياناً يتضمن برنامجا للعصيان المدنى ، يدعو الشعب إلى قطع العلاقات الاجتماعية مع الإنجليز وعدم التعاون معهم ، وتجاهل وجود الموظفين الإنجليز (بما فى ذلك المحاكم التى يرأسها قضاة إنجليز) ومقاطعة البنوك والشركات والبضائع الإنجليزية .

* الأعضاء الذين كانوا قد نشقوا عن الوفد ثم عادوا إليه (محمد محمود ، عبد العزيز فهمى ، أحمد لطفى السيد ، حافظ عفيفى ، عبد اللطيف المكباتى ، محمد على علوبة ، جورج خياط) يرفضون توقيع بيان المقاطعة – وبذلك ينفصلون نهائياً عن التيار القومى العام . .

٢٩ ديسمبر ١٩٢١ :

* نفى : سعد زغلول ، وفتح الله بركات ، وعاطف بركات ، ومصطفى النحاس ، وسينوت حنا ، ومكرم عبيد ، إلى عدن ثم إلى سيشل . .

٣٠ ديسمبر ١٩٢١ :

* قتل إرنست هاتون بشارع جزيرة بدران

من أوائل يناير ١٩٢٢ :

* ازدياد نشاط الفدائيين المصريين وتوالى الاغتيالات السياسية . .

٥ يناير ١٩٢٢ :

* مقتل محمد بدر الدين مراقب الجنايات بإدارة الأمن العام .

* سلطات الاحتلال تقبض على هيئة الوفد التى أذاعت البيان وتعتقلهم فى ثكنات قصر النيل . .

* تشكيل هيئة وفدية جديدة .

٢٥ يناير ١٩٢٢ :

* قتل الصول الهندى سيتل بشارع الفجالة .

٢٧ يناير ١٩٢٢ :

* الإفراج عن هيئة الوفد التى اعتقلت فى ٢٥ يناير . .

فبراير ١٩٢٢ :

* اغتيال المستر براون المفتش بوزارة المعارف (التربية والتعليم الآن) والمستر جوردان صاحب مصنع بالشرابية ، ومحاولة اغتيال المستر بيتش وكيل القسم الميكانيكى بالسكك الحديدية . . دون معرفة الفاعلين . .

واستمرت الاغتيالات .

* منذ قبول استقالة عدلى يكن لم تتألف وزارة . . ظلت مصر شهرين دون وزارة . .

* ثم عرضت الوزارة على عبد الخالق ثروت ، فوضع شروطاً كثيرة لقبول تأليفها أهمها :

– أنه لا يقبل مشروع كيرزون والتبليغ البريطانى بتاريخ ٣ ديسمبر ١٩٢١ . .

– تعلن الحكومة البريطانية إلغاء الحماية والاعتراف باستقلال مصر . .

– إعادة وزارة الخارجية وإنشاء تمثيل سياسى وقنصلى مصرى فى الخارج . . .

– وضع دستور ، وإنشاء نظام نيابى يتولى السلطة التشريعية . .

– إلغاء وظائف المستشارين الإنجليز للوزارات ، فيما عدا مستشارى المالية والحقانية (العدل الآن) .

– لا يحضر المستشار المالى جلسات مجلس الوزراء . .

٢ فبراير ١٩٢٢ ·

* الوفد يهاجم شروط عبد الخالق ثروت ، لأنها لم تتضمن النص على الجلاء . .

٣ فبراير ١٩٢٢ :

* سافر اللورد أللنبى إلى لندن ، ليقنع الحكومة الإنجليزية بقبول شروط عبد الخالق ثروت . .

٢٨ فبراير ١٩٢٢ :

* صدر تصريح ٢٨ فبراير معلناً نهاية الحماية البريطانية على مصر ، وأنها دولة مستقلة ذات سيادة ، مع تمسك بريطانيا بالتحفظات الأربعة المعروفة (تأمين مواصلات الإمبراطورية عبر مصر وذلك بإبقاء قوة عسكرية فى مصر – حماية المصالح الأجنبية – وكذلك الأقليات – السودان) ، وحتى توقع مصر معاهدة مع بريطانيا يتقرر فيها كيف تحصل بريطانيا على ما يطمئنها من الضمانات فى كل نقطة من هذه النقاط الأربع ، تبقى الحالة فيها قائمة كما هى . .

تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢وسقوط الاحتلال

وقد اعتبر هذا التصريح نصراً للحركة القومية ، وحتى المتشددون من رجال الحزب الوطنى أقروا بذلك . .

فقد اعترفت إنجلترا بمصر دولة مستقلة ذات سيادة . .

وكسبت مصر حريات واسعة فى تسيير أمورها الداخلية . .

وتقرر وضع دستور وإنشاء حكومة دستورية ، تعتمد على تأييد برلمان منتخب انتخاباً حراً .

ولا شك فى أنه لو أن رجال مصر – إذ ذاك – اتحدت صفوفهم وساروا فى قضية بلادهم عن إخلاص وصدق عزيمة وتصميم على استكمال

الاستقلال ، لسار تاريخ مصر من ذلك الحين فى طريق آخر . .

ولا شك كذلك فى أن السراى بذلت كل وسعها لتضييع الثمرة التى وصل إليها المجاهدون . . فقد وقف السلطان فؤاد فى خبث وأنانية وعناد موقف عداء شديد للدستور ، وقام بكل ما استطاع لكى يجعل من الدستور قانوناً ملكياً يخدم مصالح السلطان فحسب . .

وخلف السلطان فؤاد استترت السلطة البريطانية فوضعت العراقيل فى سبيل تقدم البلاد . . وخلف السلطان والإنجليز وقف العملاء من المستوزرين وطلاب المكاسب يعاونون السراى والإنجليز على بلادهم . .

من هنا نشأت الأحزاب المناوئة للحريات ، ومحاولات إلغاء الدستور ومسخه ، وانحرف مسار الحركة الوطنية . .

وتضعضع الوفد – ممثل الأغلبية – وتوالت فيه حركات الانفصال والانشقاق . . ووجد نفسه فى أوائل ١٩٣٦ يجاهد لمجرد البقاء ، مع أن الأمة كلها لا تزال معه . .

وإذا تتبعنا سير العمل السياسى قبل إعلان ذلك التصريح مباشرة ، لم نجد فيه ما يرغم إنجلترا على التسليم باستقلال مصر مهما كانت صورة ذلك الاستقلال . . بل إن سير العمل السياسى هذا كان لابد أن يؤدى إلى تشدد بريطانيا وعدم الاكتراث أبداً بصياح القاهرة . . فالجبهة الوطنية تصدعت ، والوطنيون أصبحوا شيعاً وأحزاباً . .

وسعد زغلول وصحبه منفيون فى سيشل ، وكان من الممكن أن يظلوا فى المنفى إلى ما شاء الإنجليز ، والمظاهرات والاحتجاجات مصيرها إلى الهدوء . .

وإغراء الوزارات والمناصب يجتذب كل يوم نفراً ممن تصدوا للكفاح ، ويجعل منهم أدوات طيعة للسراى والاحتلال . .

إذن . . ما الذى جعل إنجلترا تصدر هذا التصريح فجأة ، ومن جانب واحد ، أى دون أن تنتظر الوصول إلى اتفاق مع المصريين ؟ . . لماذا قبلت شروط عبد الخالق ثروت مع أن الأمة لم تكن تؤيده ، بل كان السلطان فؤاد نفسه ضده ؟ . .

ليس هناك إلا جواب واحد : خوف الإنجليز من نشاط الفدائيين المصريين .

لأن حركة الفدائيين المصريين – التى عرفت بحركة الاغتيالات – أقلقت بال الإنجليز وصنائعهم فى مصر ، وألقت فى نفوسهم رعباً شديداً .

فقد كان الموظفون البريطانيون فى مصر كثيرين ، وكانوا منتشرين فى نواحى البلاد كلها عاملين فى كل مرافقها الحكومية وغير الحكومية . .

فكان هناك مئات من المدرسين الإنجليز والموظفين فى الوزارات المختلفة ، ما بين صغار وكبار فى القاهرة وغيرها ، وجميع هؤلاء كانوا يعيشون بين الناس ، ويروحون ويجيئون فى الشوارع ، معرضين للفتك بهم واغتيالهم . .

وكانت مصر غاصة بتجار الإنجليز ووكلاء الشركات وأصحاب المصانع وبيوت المال . .

وكان هناك عدد كبير جداً من الأجانب ممن يحملون جوازات سفر إنجليزية ، ما بين يهود ومالطيين وأرمن ويونان وهنود ، وكل هؤلاء كانوا

معرضين للخطر . .

وكان معظم المحلات التجارية والمصارف ووكالات الشركات فى أيد غير مصرية . . .

هذه كلها كانت عرضة للنهب والإحراق والاعتداء فى أى لحظة . وفى العادة كان الفدائيون ينبثون فى صفوف المتظاهرين ويهاجمون المتاجر والمحلات الأجنبية ليحرجوا بذلك مركز إنجلترا . .

وكانت أعمال الفدائيين فى زيادة مستمرة . . وكان الفدائيون يزدادون جرأة وإتقانًا لعملهم يوماً بعد يوم . .

ولعل من يقول : ولكن الاغتيالات كانت قليلة ، فهى تقع بمعدل اغتيال واحد فى الشهر ، ثم إن معظمها لا يصيب الهدف فى دقة . .

وهذا صحيح إلى حد ما . .

ولكن العبرة هنا ليست بالعدد أو الإصابة وعدمها ، بل العبرة بوجود الخطر واحتمال وقوع محاولة الاغتيال فى أى زمان ومكان . .

فكل إنجليزى كان يخرج من بيته وهو يشعر بأنه يغامر بنفسه . .

وكل مستوزر أو عميل ، كان متأكدًا من أن فدائيًّا ما ينتظره عند منعطف الطريق ، وفى يده قنبلة أو مسدس . .

وكل تاجر إنجليزى ، أو ممن يحميهم الإنجليز ، كان لا يأمن على متجره وأمواله ساعة من نهار . .

وفى ذلك العصر كان كل رجال السياسة فى أوربا فى رعب دائم ممن كانوا يسمونهم الإرهابيين . . وهذه التسمية – فى ذاتها – تعبر عن ذلك الرعب . فإن الفدائيين قد يضربون ضربة كل شهر ، وقدتخيب

هذه الضربة ولكنها تنشر جواً مستمراً من الرعب يخيف الجهة المقصودة ، ويضع قوات الأمن فى حالة تأهب دائمة ، ويحرم الخصوم وأهل الحكم من ذلك الهدوء الذى ينشدونه دائماً .

وإنجلترا فى مصر كانت فى حاجة ماسة إلى الهدوء والأمن . . لأن مركزها فى مصر كان غير قانونى . كان يستند إلى الفكرة التى ظل اللورد كرومر يعمل على تثبيتها فى أذهان الأوربيين طوال حكمه ، وهى أن إنجلترا تحرس مصالح أوربا والأوربيين فى مصر وتؤمنها ، وتمكن أوربا من استغلال هذا البلد كما تريد . .

فإذا شعر الأوربيون فى مصر بالخوف والقلق وعدم الاطمئنان على النفس ، وإذا كان الموت يتربص بهم فى كل زاوية ، فالمسئول عن ذلك فى نظرهم هى إنجلترا ، فهى التى تعهدت لهم بذلك . لهذا كانت حركة الفدائيين سلاحاً خطراً جداً على مركز بريطانيا فى مصر .

ولهذا أيضاً سارعت بريطانيا بإعلان تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ ، لتنقل المسئولية عن الأمن الداخلى فى مصر عن كتفيها وتضعها على كاهل المصريين . .

وبالفعل ، بعد تأليف وزارة عبد الخالق ثروت على أساس التصريح — انتقلت المسئولية عن أعمال الفدائيين إلى السلطات المصرية . .

ولست أعنى بذلك أن نشاط الفدائيين المصريين وحده هو الذى خطا بالحركة الوطنية هذه الخطوة ، ولكنه أسرع بتحقيقها ودفع بريطانيا إلى إعلان استقلال مصر دون انتظار المصريين . .

ولو اقتصر الأمر على جهود أهل السياسة والأحزاب ورجال الوفد

وأعداء الوفد ومناورات السراى ودسائس الإنجليز ، لتأخرت هذه الخطوات سنوات . .

وقد اعترفت بريطانيا بذلك فى خطابها إلى السلطان فؤاد الذى أرفقته بنص التصريح ، فقد قالت فى الفقرة السابعة منه : « فإذا كانت هذه نوايا إنجلترا فلا يمكن لأحد أن ينكر أن إنجلترا يعز عليها أن ترى المصريين يؤخرون – بعملهم – حلول الأجل الذى يبلغون فيه مطمحاً ترغب فيه إنجلترا كما تتوق إليه مصر ، أو أن تكره أن ترى نفسها مضطرة إلى التدخل لرد الأمن إلى نصابه كلما أدركه اختلال يثير مخاوف الأجانب ويجعل مصالح الدول فى خطر . وإنه ليكون مما يؤسف له أن يرى المصريون فى التدابير الاستثنائية التى اتخذت أخيراً أى مساس بمطمحهم الأسمى ، أو أية دلالة على تغيير القاعدة السياسية التى سبق بيانها ، فإن الحكومة البريطانية لم ترد إلا أن تضع حداً لتهييج ضار قد يكون لتوجيهه إلى أهواء العامة نتائج تذهب بثمرة الجهود القومية المصرية . ولذلك كان الذى روعى بوجه خاص فيما اتخذ من التدابير ، مصلحة القضية المصرية التى تستفيد من أن البحث فيها يجرى فى جو قائم على الهدوء والمناقشة بإخلاص[(١)] »

ولا يتعارض رأينا هذا مع ما هو ثابت من أن عدلى يكن – فى مفاوضاته مع كيرزون – قال له فى سياق حديثه : « . . فلست أرى ما يمنعكم من تنفيذ الأحكام التى تضمن مشروعكم الاعتراف بها للمصريين ،

(١) عبد الرحمن الرافعى : فى أعقاب ثورة ١٩١٩ (الطبعة الثانية) ١٩٦٩ ، ص ٣٨ .

وذلك إلى أن يتم الاتفاق على ما اختلفنا فيه من المسائل » .

وكان عدلى يشير بهذا إلى ما ورد فى المادة الأولى من مشروع كيرزون من أن بريطانيا مستعدة لرفع الحماية عن مصر وإعلان أنها بلد مستقل ذو سيادة ، فى مقابل موافقة مصر على إبرام معاهدة صداقة دائمة مع إنجلترا .

فمن المؤكد أن فكرة إعلان إنجلترا نهاية احتلالها مصر – مع احتفاظها بما يؤمن ما كانت تسميه مصالحها فى مصر – كانت فى الجو . .

ولكن لماذا أعلنت بريطانيا تصريح ٢٨ فبراير فى سرعة لا يدفع إليها إلا خوف شديد ؟ . .

لا تعليل لهذا – فى نظرى – إلا حركة الفدائيين . . .

ويقول عبد الرحمن الرافعى (نفس المصدر ، ص ٣٦) : « وكان للتهديد بمقاطعة التجارة البريطانية الأثر الأكبر فى صدور هذا التصريح لأن هذا التهديد أزعج أقطاب التجارة والصناعة ورجال السياسة فى إنجلترا ، وخشوا – إذا عمت حركة المقاطعة – أن تصاب التجارة والصناعة البريطانيتان بالبوار فى مصر ، فعمدوا إلى التسليم لمصر ببعض حقوقها المغتصبة » .

وهذا أيضاً رأى وجيه ، ولكنه مستبعد . فإن مقاطعة البضائع البريطانية – فى ذلك الحين – كانت مستحيلة ، مهما نادى بها زعماء السياسة .

لأن الناس لا يستغنون عن شىء من الضروريات إلا إذا وجدوا بديله . .

والمصرى – فى ذلك الحين – ما كان ليستطيع مقاطعة الأقمشة الإنجليزية مثلا ، لأن السوق لم يكن فيها من الأقمشة إلا الإنجليزية . .

ومادامت « لمبة الجاز » الموجودة فى السوق هى الإنجليزية وحدها ، فما كان المصرى ليستطيع الامتناع عن شرائها إلا إذا أراد أن يقضى الليل فى ظلام . .

ولم يكن من المعقول أن يدخل المصرى صيدلية ليشترى دواء فيصر على أن يكون هذا الدواء فرنسياً . .

هذا التهديد بالمقاطعة ربما كان يخيف بريطانيا على المدى الطويل . .

ولكنه صدر فى ٢٢ يناير ١٩٢٢ ، فمن غير المعقول أن يدفع الإنجليز إلى أن يهرولوا ويعلنوا استسلامهم فى ٢٨ فبراير ١٩٢٢ ، أى بعد شهر وأيام .

وإذا ذكرنا أن البريد – فى تلك الأيام – كان يرسل بطريق البحر ، فأغلب الظن أن النص الكامل لبيان الوفد بالمقاطعة لم يكن قد ترجم وقرئ بعدُ فى لندن بما هو جدير به من العناية .

لم يبق إذن إلا ما نذهب إليه من أن صدور التصريح بهذه العجلة كان نتيجة لنشاط الفدائيين . . .

وهذا هو الذى عنيته عندما قلت إنه عمل الشباب . . لأن الفدائيين جميعاً كانوا شباناً ، ولا يكونون إلا من الشباب . . والشباب وحده هو الذى يلجأ إلى المخاطرة بحياته للوصول إلى حل سريع وحاسم . .

وإلى الآن لم تدرس حركة الفدائيين المصريين فى ثورة ١٩١٩ الدراسة التى هى جديرة بها ، وربما كان ما سنقوله عنها فى بحثنا القادم هو أول محاولة فى ذلك السبيل . .

(٣)

فى يوليو ١٩١٩
تألفت أول جمعية فدائية منظمة

حرصنا فى استعراضنا لحوادث ثورة ١٩١٩ – منذ الإفراج عن سعد وأصحابه المنفيين فى أبريل ١٩٢١ إلى صدور تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ – حرصنا على أن نبين أن سير العمل السياسى وحده لم يكن يسوغ صدور هذا التصريح فى الوقت الذى صدر فيه . .

فقد صدر فى فترة انقسام داخلى خطر ، كان حقيقاً بأن يزيد طمع الإنجليز فى مصر ، ويأذن لهم فى الاستمرار فى احتلالها والتصرف فى شئونها ، على النحو المطلق الذى ساروا عليه منذ احتلالهم لهذه البلاد . .

إذ بلغت العداوة أقصاها بين هيئة الوفد وخصومها ، وكان سعد وكبار أصحابه إذ ذاك فى المنفى ، ورجال هيئة الوفد التى تكونت فى القاهرة فى أثناء غياب سعد عن البلاد ، كانوا من طراز متوسط لا يقوى على مناهضة الضغط المتزايد ، الذى كان يقوم به المعتمد البريطانى الفيلد مارشال أللنبى وجيش الاحتلال ، بمعاونة ومؤازرة من السلطان فؤاد . .

وكان فؤاد أفعوانًا وخصماً خطيراً . . كان يعشق أرض مصر وخيراتها ، ولكنه يكره المصريين ، ويسند ظهره إلى قوة الاحتلال فى غير حياء ،

ويجتاح البلاد سرقة ونهباً . .

وكانت تعاونه فى ذلك جماعة من زبانية نظار الزراعة ، من الطراز العتيق الجامد القلب ذى الناب الأزرق ، جعلهم مولاهم بكوات وباشوات ، وأطلقهم كالكلاب المسعورة يبحثون له – فى إخلاص العبد الذليل – عن أراض وضياع وتفاتيش شاسعة تضاف إلى أملاك الخاصة السلطانية ، حتى زادت هذه الخاصة الشيطانية عن الدائرة السنية ، التى أسرف الخديو عباس حلمى فى تنميتها بأخس الطرق ، حتى خجل من ذلك المعتمد البريطانى السير إيفلين بيرنج – اللورد كرومر – فأنشأ وزارة الأوقاف ، وأضاف إلى مجلس النظار ناظراً يكون مسئولا رسمياً عن البقية الباقية من أراضى الأوقاف التى أفلتت من براثن الخديو وصنائعه . .

وكانت وزارة عدلى يكن قد قدمت استقالتها فى ٨ ديسمبر ١٩٢١ ولزم رئيسها بيته ، وكان عدلى آخر شخصية كبيرة موجودة فى مصر فى ذلك الحين ، يمكنها أن تشعر المعتمد البريطانى والسلطان بشىء من الخجل ، ولهذا فقد أرخى كل منهما لنفسه العنان ومضى يعربد كيف شاء . .

وكان السلطان يريد أن يعهد بالوزارة إلى أحد مواليه ، ولكن الدلائل كانت تدل على أن الإنجليز كانوا يشعرون بخطورة الموقف بالنسبة لهم ، وأنهم لا يستطيعون الاستمرار طويلا فى تدليل السلطان ومواليه ، لأنهم كانوا فى مأزق عسير فى مصر ولابد لهم من مخرج . .

ولم يكن هذا المأزق – فى رأيى – إلا ازدياد أعمال الفدائيين المصريين عنفاً وشدة ، حتى بات الإنجليز جميعاً فى مصر غير آمنين على أنفسهم

وأموالهم فكان المخرج الوحيد هو الإسراع بالاستجابة لبعض مطالب المصريين وإلقاء مسئولية الحكم الداخلى على أكتاف حكامهم ، حتى يكونوا هم هدفاً لرصاص الفدائيين ، ويختفى الإنجليز آمنين ويمسكون بالخيوط من وراء ستار ! . .

من العسير جدا التأريخ لأى حركة فدائية

فمن هم أولئك الفدائيون ؟

وفى أى ظروف ظهروا ؟

وكيف كانوا يضربون ضرباتهم ؟

من العسير جدا التأريخ لأية حركة فدائية ، لأن الفدائيين يعملون دائماً فى سرية تامة .

وسواء أكان الفدائى يعمل منفرداً أم فى جماعة ، فإن أول ما يحرص عليه ألا ينتبه إليه أحد ، وهو لا يترك أى دليل يمكن السلطات منه إذا حامت الشبهات حوله . . فأدوات عمله دائماً فى مخبأ ، ومكان اجتماعه بأصحابه وموعده دائماً سر ، وميدان تدريبه بعيد جداً عن متناول الأبصار . . وهو لا يكتب مذكرات ، ولا يترك أدنى قصاصة ورق تدل عليه . .

وهو – لهذا ، فى الغالب – جندى مجهول . .

وهو – مع هذا الحرص على التخفى – ليس جباناً ، بل هو الغاية فى الجرأة والإقدام . ودافعه للتخفى ليس الخوف على حياته ، بل الحرص على أن تستمر حركته . وإذا خانه الحظ ووقع فى أيدى البوليس ، نجده أحرص ما يكون على ألا ينم على أحد من شركائه . .

والدافع القوى الذى يسير الفدائى – فى العادة – هو إيمانه المطلق بما يسعى إلى تحقيقه ، والإيمان العميق الشامل وحده هو الذى يجعل شاباً يترك أمان بيته ولهو شبابه ، ليعلن الحرب على سلطة قائمة ذات قوة وخطر ، ويجعله يتحداها ويهاجمها غير مبال بالنتائج . .

وهذا الإيمان العميق يجعل الفدائى لا يرى حجم خصمه ، أو يراه فى حجم أقل من الواقع بكثير . . فجماعة الفييت – كونج يتحدون الولايات المتحدة وحلفاءها ، ورجال الجيش الإيرلندى السرى يهاجمون بريطانيا ، والتوبا ماروس يتحدون النظم القائمة فى أمريكا الجنوبية ومن ورائها الولايات المتحدة ، والفدائيون الفلسطينيون يهاجمون الصهيونية العالمية التى ترتجف من خشيتها الولايات المتحدة ومعظم دول الغرب .

وإلى جانب الإيمان ، هناك جو خاص لا تقوم الحركات الفدائية إلا فيه ، وهو جو اليأس الشديد . .

فالفدائى لا يعمد إلى إعلان الحرب على السلطة التى يريد أن يزعزع أركانها ، إلا إذا يئس تماماً من تحقق آماله عن طريق سلمى هادئ . .

فمادام هناك أمل فى تحقق مطلبه – وهذا الأمل فى الغالب هو تحرير الوطن – فإن الظروف لا تتهيأ لتكوين الفدائى أو الجماعة الفدائية . .

فإذا كان هذا كذلك ، فلابد أن الحركة الفدائية المصرية التى نتحدث عنها ، قد تكونت فى ظروف يئس الشبان المصريون فيها يأساً تامًّا ، من إمكان تحرير بلادهم من الاستعمار البريطانى على يد الكهول والشيوخ الذين كانوا يقودون الحركة القومية . .

فما هى هذه الظروف ؟ . .

بعد توقيع معاهدة فرساى فى ٢٨ يونيو ١٩١٩ ، أظلمت الدنيا ظلاماً شديداً . .

كانت معاهدة فرساى – فى الحقيقة – أحقر معاهدة فى التاريخ !

كانت تقوم على الحقد والانتقام والجشع وكل ما هو غير إنسانى . .

باختصار ، كانت اتفاقاً بين إنجلترا وفرنسا – بتأييد من الولايات المتحدة وإيطاليا واليابان وبعض دول غربية صغيرة – على تحويل بقية الكرة الأرضية إلى مستعمرة شاسعة ، واعتبار بقية شعوب الأرض عبيداً !

وقد تضمنت هذه المعاهدة جرائم وخيانات كبرى ، تكشف عن حقيقة الطبع الغربى وغرائزه . .

فقد نسى جورج كليمانصو ولويد جورج ومن التف حولهما ، أن مئات الألوف من الهنود والمغاربة والإفريقيين ، ماتوا فى ميادين الحرب فى أوربا لكى تصل إنجلترا وفرنسا إلى النصر . .

برغم كل هذه التضحيات ظلت الهند والشمال الإفريقى وبقية إفريقية مستعمرات ، دون أى أمل فى تحسن الأحوال أو تفكير فى جزاء . .

وبعض العرب الذين تصوروا أن الحلفاء سيمنحونهم دولة عربية يتربعون على عرشها ، وجدوا أنفسهم آخر الأمر صفر اليدين يطرقون الأبواب وسط المتسولين !

والمصريون الذين قاموا بالثورة على الاحتلال ، وظنوا أن مجرد مثول زعمائهم أمام مؤتمرات الصلح سيوقظ الضمير الأوربى ويفتح لهم أبواب الاستقلال ، وجدوا أن مؤتمرات الصلح نفسها تؤيد الاحتلال وتجعله حقيقة دولية ! . .

وزاد فى ألم المصريين أن الحكومة القائمة – وكان رئيسها محمد سعيد (الذى ظل رئيساً للوزراء طول مدة الحرب) – اعتبرت توقيع معاهدة الاحتلال وتثبيت قيود الذل فى رقاب مواطنيها مناسبة سعيدة جديرة بالاحتفال !

فأمر محمد سعيد بإطلاق مائة مدفع ومدفع – فى القاهرة والإسكندرية وبور سعيد – ابتهاجًا بالحادث السعيد ، واعتبر يوم ١٤ يوليو ١٩١٩ يوم عيد ، عطلت فيه الدواوين وتبادل سلطان مصر برقيات التهنئة مع ملك بريطانيا !

أجل ، تهنئة ! بماذا واحسرتاه ؟ !

تلك كانت نقطة الصفر فى عالم اليأس الذى كان يعيش فيه المصريون إذ ذاك . .

وعندما هدرت مدافع الابتهاج بالعبودية ، انطفأت آخر شمعة من الأمل فى نفوس شباب مصر الذى ثار واستشهد . .

هذا الظلام الدامس واليأس الشامل ، كانا الجو المناسب لظهور الشباب الفدائى . .

نعم كان سعد وأصحابه فى أوربا ، وكانت هناك آمال فى الوصول إلى الاستقلال بطرق أخرى ، ولكن الشباب – وهذه ميزة من ميزاته – لا يثق فى حبال الأمل الطويلة التى يتعلق بها الكهول والشيوخ . .

وإذن ، فإلى العمل . .

أوائل الفدائيين

ولم تكن هذه هى أولى المناسبات التى ظهر فيها فدائيون مصريون فى العصر الحديث .

فعندما وافق بطرس غالى على فصل السودان عن مصر ومد أجل اتفاقية قناة السويس ، ظهر الفدائى الباسل إبراهيم الوردانى واغتاله فى فبراير ١٩١٠ ، فوضع بذلك حداً لاستهتار مهين بشئون البلاد ومصالحها . .

والوردانى نموذج للفدائى الفرد ، الذى ينذر نفسه لأداء خدمة محددة لبلاده بإزاحة شخص خطر ينزل الضرر بها . .

وكان السلطان حسين نموذجاً دقيقاً من أمراء أسرة محمد على أيام الاحتلال ، أولئك الذين كانت مصر – فى نظرهم – ضيعة أورثهم إياها جدهم ، وكان المصريون – فى حسابهم – أرقاء يزرعون لهم الأرض ، وكانوا يرون أنفسهم محاسيب للإنجليز وموظفين عندهم . .

كان « ابن ذوات » جداً . . يسلم على الناس بأطراف أصابعه . . يخدم الإنجليز فى أمانة ، ويخدم أسرته فى أمانة . . وإلى هنا تنتهى حدود الأمانة عنده . .

فقد عينته بريطانيا سلطاناً على مصر بعد أن خلعت عباس حلمى ، وذلك بأمر اللفتنانت جون جرانفيل ماكسويل « قومندان الجيوش البريطانية فى مصر » بأمر صدر فى ١٩ ديسمبر ١٩١٤ . .

وبدأ الرجل سلطته فى جو ثقيل من خيبة الأمل والاحتقار واليأس . .

وقرر فدائي مفرد هو محمد خليل – وكان تاجر خردوات من أهل المنصورة – عقاب خادم الاحتلال المتسلطن ، وحكم عليه بالإعدام . وشرع فى التنفيذ صباح الخميس ٨ أبريل ١٩١٥ بإطلاق عيارات نارية عليه ، ولكن التوفيق أخطأه فنجا السلطان وأعدم هو شنقاً فى ٢٤ أبريل ١٩١٥ . .

وعقب ذلك تكونت مجموعة فدائية ، قررت – هى أيضاً – إعدام السلطان ؛ وأخذت تدبر تنفيذ الحكم فيه . وكانت هذه المجموعة تتكون من محمد نجيب الهلباوى ومحمد شمس الدين ومحمود عنايت وشفيق منصور وأحمد سابق وعبد الفتاح يوسف وعبد الله حسن وعلى صادق، وكانوا جميعاً من شباب الطلبة والموظفين .

وكان التنفيذ فى الإسكندرية فى ٩ يوليو ١٩١٥ ، بإلقاء قنبلة على عـربة السلطان من شرفة منزل ، وهو فى طريقه من قصر رأس التين إلى مسجد عبد الرحمن بن هرمز ، لكى يؤدى فريضة الجمعة . .

كانت القنبلة « بيتية » ، ولهذا لم تنفجر . وسنتحدث عن هذه القنابل البيتية بعد قليل . .

وقام بالتنفيذ من أفراد المجموعة محمد نجيب الهلباوى ومحمد شمس الدين ، وكانا – بلا شك – فدائيين أصيلين ، ولكن كان ينقصهما الثبات والتدريب الكافى ، وقد أظهرا فى المحاكمة رباطة جأش جديرة بالإعجاب ، وتحملا – وحدهما – جريرة العملية ، فحكم عليهما بالإعدام شنقاً ، ثم خفف الحكم إلى الأشغال الشاقة المؤبدة ؛ ولم تثبت إدانة الآخرين .

ومن هؤلاء الآخرين شفيق منصور المحامى ، وقد عاش ليدخل فى زمرة

جماعة فدائية جديدة فيما بعد . .

ومنهم أيضاً محمود عنايت ، وهو أول من دخل ميدان الفداء من ذلك البيت الفدائى الجديد بالإعجاب ، وسيعقبه أخواه عبد الفتاح وعبد الحميد .

وفى خريف العام نفسه قام فدائى مفرد آخر – هو صالح عبد اللطيف الموظف بوزارة المالية – بمحاولة قتل إبراهيم فتحى وزير الأوقاف ، وكان من كبار موالى القصر السلطانى ودار الحماية . .

وفى يوليو ١٩١٩ تألفت أول جمعية فدائية منظمة تنظيماً دقيقاً

أخذت معلوماتى عن تأليف هذه الجمعية ونشاطها من واحد من كبار منشئيها ممن مد الله فى عمرهم ونشاطهم إلى يومنا هذا ، وهو الأستاذ الدكتور سيد محمد باشا[١] .

كان – إذ ذاك – طالباً فى مدرسة المعلمين العليا ، وهو من كبار المجاهدين فى سبيل مصر ، اشترك اشتراكاً فعالا فى تنظيم أول جمعية فدائية مصرية على أسس علمية دقيقة ، واضطر بعد ذلك إلى الفرار من مصر إلى إيطاليا حيث قضى سنوات طويلة منفياً ، واشترك فى نشاط الشباب الوطنى المصرى العامل فى أوربا إذ ذاك . ثم عاد إلى مصر بعد تأليف وزارة سعد ، ودخل سلك التعليم وظل فيه حتى أحيل إلى المعاش مديراً عاماً لمنطقة القاهرة التعليمية الشمالية .

وهو – على ما أعلم – أحد ثلاثة مد الله فى عمرهم من رجال الفداء

---

(١) كلمة « باشا » هذه جزء من اسمه ، وليست لقباً حصل عليه .

الأول ، والاثنان الآخران هما عبد الفتاح عنايت وعريان يوسف سعد . .

بدأ الأستاذ الدكتور سيد محمد باشا وعريان يوسف سعد وزملاؤهما العمل الفدائى المنظم فى يوليو ١٩١٩ ، وكان من رأيهم أن العمل السياسى لن يحقق – وحده – الاستقلال . . لأن العدو قوى وخبيث ووقح ، فهو لن يفهم إلا منطق القوة .

بدا ذلك واضحاً بعد إخفاق الوفد المصرى فى الحصول على أى نتيجة فى مؤتمرات الصلح ، بل تعمد المنتصرون إهماله وترك رجاله يخطبون فى قاعات خالية ! . .

لابد إذن من إرهاب الإنجليز وعملائهم . . لابد أن يشعروا بأنهم غير آمنين على أنفسهم وأموالهم فى مصر ، لأن شباب مصر لا يعترف بالحماية التى فرضتها بريطانيا على مصر ، ويتبرأون من السلطان فؤاد الذى احتفل بتثبيتها بإطلاق المدافع كأنها عيد قومى عظيم . .

وبينما كانت مدافع البشرى السوداء تدوى ، كانت تلك الحفنة من الشباب تعلن الحرب على بريطانيا فى مصر ، وترسم خطة الهجوم فى بدروم منزل فى حى الحلمية . .

كان لديهم عدد قليل جداً من المسدسات ، وكان الحصول على الرصاص عسيراً ، ولهذا اتجه الاهتمام نحو عمل قنابل يدوية . .

كان سيد محمد باشا طالب علوم ، ولهذا كانت لديه فكرة عن المُفرقعات .

واهتدى مع أصحابه إلى تركيب المادة المفرقعة ، على أساس حامض البكريك وكربونات البوتاسيوم وحامض الكبريتيك . .

ولكى يصنعوا من هذا التركيب قنبلة ، أخذوا ماسورة من الحديد وقطعوها قطعاً لتكون من كل قطعة قنبلة . .

واتصلوا – لهذا – بعامل شهم من عمال الترسانة هو عثمان الطوبجى فكان يأتيهم بالمواسير ويقطعها ويقفلها من جانب واحد ، ويسلمها لهم لكى يضعوا المخلوط المفرقع فيها ويغلقوها . .

الحاج أحمد جاد الله
مواطن شهم وجندى باسل

وعرّفهم عثمان الطوبجى بالحاج أحمد جاد الله . . وكان أسطى خراطاً فى الترسانة ، وفاتحوه فى أن يصنع لهم القنابل بالجملة ، فقال لهم الرجل الشهم :

– ولماذا نقنع نحن بتقطيع المواسير ؟ . . لماذا لا نشترك فى العمل الفدائى مثلكم ؟ . .

اسمعوا : لنتقاسم العمل . . علينا الكفار ، وعليكم المصريون . .

وكان يريد بالكفار الإنجليز . .

وانضم إلى الجمعية عدد آخر من عمال العنابر . . ومضى العمل : العمال يصنعون أجساد القنابل ، والطلاب يركبون المفرقع ويصنعون القنبلة . .

وكانوا يجربون بعض قنابلهم ويتمرنون على إلقائها فى الغابة المتحجرة قرب حلوان . .

وكان من بين الجماعة فرقة لاختطاف جنود الإنجليز وقتلهم وأخذ

السلاح الذى يحملونه . .

وكان جنود الإنجليز إذ ذاك كثيرين جداً فى القاهرة ، وكانت تسليتهم المحببة هى قضاء الليل فى حانات حى الساقطات — الذى عنى الإنجليز بتنظيمه والإشراف عليه للترفيه عن جنودهم — فى بعض الشوارع والحارات على جانبى شارع كلوت بك . .

وكان جنود الإنجليز يسرقون الناس ويسلبونهم فى الشوارع علناً ، لكى يحصلوا على النقود اللازمة للعربدة . .

وكان من المألوف جداً أن تلتقى بأحد المواطنين فى ميدان العتبة الخضراء أو شارع محمد على مجموعة من جنود الإنجليز سكارى ، فيحيطوا به ومسدساتهم مشرعة نحوه ويطالبوه بإعطائهم كل ما معه . .

وكان جنود الإنجليز والأستراليين يستوقفون الترام ويجردون ركابه من نقودهم تحت فوهات المسدسات . .

لهذا سماهم الحاج أحمد جاد الله بالكفار ، ورأى أن يكون القصاص منهم من نصيبه ونصيب زملائه العمال . .

وكان العمال ينتظرون الجنود السكارى فى الحوارى المظلمة فيستدرجونهم إلى حى الدراسة ، وهناك فى التلال المؤدية إلى المقابر تخمد أنفاس الإنجليزى وينتقل سلاحه ورصاصه إلى أيدى الفدائيين . .

وهذا بعض ما عناه الحاج أحمد جاد الله عندما قال : علينا الكفار ، وعليكم المصريون . .

التجربة الأولى هزت كيان مصر ، وإن لم تنجح . .

وعندما أحس رجال الجمعية أنهم أتقنوا صنع القنابل وتمرنوا على إلقائها تمريناً كافياً ، قرروا أن يقوموا بعمل هائل . .

فى ذلك الحين كان يوسف وهبة باشا عدو الشعب رقم واحد . .

فقد كانت دار الحماية قد أعلنت فى مساء ١٤ نوفمبر ١٩١٩ قرار بريطانيا إرسال لجنة ملنر إلى مصر ، للتفاهم مع الحكومة فى وضع مصر فى ظل الاحتلال . .

وبذلك تجاهلت بريطانيا الوفد الرسمى الموكل من الأمة للمطالبة بحقوقها ، وكان رجاله برئاسة سعد زغلول لا يزالون فى باريس ولندن ، بعد انتهاء مهرجان فرساى وتوزيع الأسلاب وتثبيت أغلال الاستعمار والاحتلال فى رقاب التعساء . .

وكانت حالة سعد ووفده — ومصر كلها بالتالى — فى ذلك الحين تعيسة حقًّا . .

واستقال حسين رشدى ، لأنه رأى أن تجاهل الوفد وتقرير إرسال لجنة ملنر خيانة والتفاف لطعن مصر من خلف . .

ووسط ذلك الجو المليء باليأس والألم والمرارة ، تقدم يوسف وهبة باشا وقبل تأليف وزارة تقوم بالتوقيع على محضر تسليم مصر للإنجليز . .

وعم السخط على يوسف وهبة ووزرائه ، واعتبرهم الشعب خونة يستحقون الإعدام . .

وثارت حمية أقباط مصر المخلصين ، فعقدوا اجتماعاً جليلا فى الكنيسة المرقسية يوم ٢١ نوفمبر ١٩١٩ ، برياسة المواطن الشهم القمص باسيليوس وكيل بطريركية الأقباط ، وأعلنوا سخطهم على يوسف وهبة وتبرأوا من فعلته ، وطلبوا إليه أن يستقيل ويوارى عاره فى ظلال الخمول ليكفر عن إثمه الكبير . .

وكان هذا مظهراً جليلا من مظاهر وحدة مصر واتحادها الكامل وإيمان أهلها جميعاً — مسلمين وأقباطاً — بالوطن وحقه واستعدادهم للتضحية فى سبيله . .

وكان إجماع أهل مصر كلهم على إنكارهم ليوسف وهبة ووزارته حكماً عليه بالإعدام .

وشعرت جمعية الفدائيين أن تنفيذ الحكم يدخل فى اختصاصها . .

وشرعوا فى رسم الخطة . .

وكانوا فى غاية الحكمة فى القرار الذى اتخذوه . .

كان يوسف وهبة قبطيًّا ، فكان لابد أن يقتله قبطى مثله ، فيكون هذا برهاناً بليغاً على وحدة هذا الوطن وأهله أجمعين . .

وتصدى للقيام بالعمل عريان يوسف سعد ، وكان شابًّا فى زهرة العمر ، طالباً فى كلية الطب ، يحمل بين جنبيه قلباً باسلا وإيماناً صادقاً بمصر .

وفى صباح ١٥ ديسمبر ١٩١٩ كان ينتظر قرب النادى الإيطالى فى شارع سليمان باشا ، ومعه قنبلتان — من النوع « البيتى » الذى ذكرناه — ومسدس صغير . . وكان قد وطن نفسه على الموت . .

كانت خطته أن يلقى القنبلة الأولى فالثانية على سيارة يوسف وهبة

عندما تمر أمامه ، ثم يقتل نفسه بمسدسه إذا وجد أنه سيقع فى أيدى الجنود . .

ومرت سيارة رئيس الوزراء يوسف وهبة ، فألقى عليها عريان قنبلته الأولى فالثانية ، وانفجرتا . .

ولكن عمر الشقى بقى . . لم يصب رئيس الوزراء العنيد بأذى !

وأخرج الفدائى مسدسه ليضع حدا لحياته ، ولكن الجنود أسرعوا بإمساكه . .

وقدم للمحاكمة أمام محكمة عسكرية إنجليزية ، وكانت هذه المحاكم الإنجليزية مختصة بالنظر فى الجرائم السياسية . .

وحكمت المحكمة بسجنه عشر سنوات مع الأشغال الشاقة . .

وقد كتب عريان فيما بعد مقالات عن حياته فى السجن تعتبر قطعة فنية جميلة ، قرأناها فى مجلة « مجلتى » التى كان يصدرها الأستاذ أحمد الصاوى محمد . .

وقد أفرج عن هذا الفدائى الباسل سنة ١٩٢٣ أو ١٩٢٤ – لا أذكر على وجه التحديد – ثم عينه سعد فى سكرتارية مجلس الشيوخ ، ثم انتقل إلى الجامعة العربية ، ولا زال عمره ممدوداً إلى يومنا هذا والحمد لله .

الفدائيون والمحرضون السياسيون

وهنا ينبغى التفريق بين الفدائيين والمحرضين السياسيين . .

والحقيقة أن المحرض السياسى ، الذى يعمل على الاحتفاظ بحماس الجماهير ، عن طريق الخطب والمقالات أو الدعوة السرية والتحريض

على الثورة وأعمال العنف ، هذا المحرض يعتبر فى جملة جنود المعركة ورجال العنف ، ولكنه ليس فدائيًا بمعنى الكلمة ، لأن الفدائى محارب وليس رجل سياسة . . إنه – فى العادة – مواطن شاب شديد الحماس والإيمان ، لا تعجبه أساليب القادة السياسيين فينفصل عن تيارهم ويتحول إلى جندى ، ويعلن الحرب على أعداء بلاده ويهاجمهم . .

أما المحرض السياسى فهو رجل سياسة بالغ الحماس ، ولكنه يظل سياسيًّا لا فدائيًّا . . فهو يجاهد فى سبيل بلاده جهادا باسلا رائعاً ، ولكنه لا يعلن الحرب السافرة على الخصوم ، ولا يلجأ إلى السلاح ، ويحرص على أن ينام فى سريره كل ليلة . .

نقول هذا لأن جماعة من المتطرفين السياسيين كان يرأسها عبد الرحمن فهمى ، قامت بعمل ضخم وعظيم فى أثناء وجود الوفد المصرى فى باريس أيام مؤتمرات الصلح ، وكذلك أيام الخصومة بين سعد وعدلى وما تلاها من أيام عصيبة على الوطن . .

كان عبد الرحمن فهمى – إذ ذاك – من شباب المجاهدين الذين يقفون وراء سعد وأصحابه ، وكان سكرتيراً للجنة المركزية للوفد التى كانت تعمل فى أثناء غياب سعد ، وكان يقود جماعة من أمثاله من الشباب ، ما بين طلبة مدارس عليا وطلبة مدارس ثانوية ومحامين وصحفيين(١).

وكان عمل هذه الجماعة يشمل الحض على الثورة وإظهار عجز الحكومة وخيانتها أمام الناس ، والدعوة إلى إسقاطها . . ومهاجمة القصر

---

(١) انظر أسماءهم فى الجزء الأول من « ثورة سنة ١٩١٩ » لعبد الرحمن الرافعى ، الطبعة الثالثة ، ص ٥٥ – ٦٦ .

وبيان أنهم عملاء للإنجليز وأعداء لشعب مصر ، والقول بضرورة خلع السلطان فؤاد والوقوف موقف الحزم إزاء الإنجليز . .

وليس من الثابت أن الاغتيال السياسى كان يدخل فى برنامج هذه الجماعة ، وعلى أى حال فقد وجهت هذه التهمة إلى عبد الرحمن فهمى عندما قبضت السلطات عليه وعلى معظم أفرادها ، وقيل يومئذ إنها كانت تسمى جمعية الانتقام . .

وقد بذلت هذه الجماعة نشاطاً واسعاً فى أثناء وزارتى محمد سعيد ويوسف وهبة ، وكان لهذا النشاط أثر بعيد فى توحيد موقف الأمة من وزارة محمد سعيد التى كانت تابعة – بالفعل – لوزارة المستعمرات الإنجليزية ، وكذلك فى إخفاق لجنة ملنر أيام وزارة يوسف وهبة .

ومن الممكن جداً أن يكون لجهودها أثر فى توجيه بعض الشباب المتحمس إلى التفكير فى الاغتيال السياسى . .

وعلى أى حال فقد كان الجو كله فى مصر مشحوناً بالغضب ودوافع الهياج ، وكانت أقل بادرة تؤدى إلى تظاهر ضخم وقيام الجمهور بأعنف الأعمال دون أى مبالاة بالإنجليز وجنودهم ، كما حدث فى ٢٤ أكتوبر ١٩١٩ عندما ثارت ثائرة الناس على إثر سماعهم فرقة الموسيقى فى كشكها المشهور فى حديقة الأزبكية تعزف النشيد البريطانى بعد المصرى ، فثارت ثائرة الجمهور ، وفى الحال نشأت مظاهرة اخترقت شوارع القاهرة وهى تتضخم باستمرار ، ووقعت حوادث ضرب واعتداء حتى تدخل البوليس وقبض على بعض المتظاهرين . .

ولم تكن السلطة الحاكمة – مصرية أو بريطانية – بأحكم من جماهير

طلاب المدارس فى تلك الأيام ، فقد كان الفزع يتملكها لأقل بادرة ، فتلجأ إلى أعنف الأساليب دون مسوغ . .

وفى ذلك الحين ، ولجنة ملنر فى الطريق ، كثرت الاعتقالات وقرارات تحديد الإقامة والإبعاد إلى الأرياف ، ومن هذا ما لجأ إليه الجنرال أللنبى من استدعاء محمود سليمان باشا رئيس اللجنة المركزية للوفد ، وإبراهيم سعيد باشا وكيلها ، وعبد الرحمن فهمى سكرتيرها العام ، وإصدار أمره إلى الأولين بالسفر إلى قريتيهما ، ووضع الأخير تحت المراقبة . .

وبعد ذلك ، وفى سياق هستيريا استولت على أللنبى ، جعل يدفع جنوده إلى ارتكاب حماقات سخيفة ، مثل اقتحامهم للأزهر فى ١١ ديسمبر ١٩١٩ . وفى سياق هذه الهستيريا قبضت السلطة العسكرية على عبد الرحمن فهمى وسبعة وعشرين من زملائه ، بتهمة تأليف جمعية الانتقام التى أشرنا إليها ، وأقامت عليهم الحجة بشهادة جاسوس حقير اسمه عبد الظاهر السمالوطى . .

بدأت محاكمات هذه الجمعية فى ٢٠ يوليو ١٩٢٠ ، ودامت ثلاثة شهور ، فلم يصدر الحكم فيها إلا فى ٦ أكتوبر ١٩٢٠ . وكانت – فى الواقع – مظاهرة استعمارية صريحة ، قامت على حين كانت لجنة ملنر تحتضر فى مصر ، والغرض منها إرهاب الرأى العام وإشعاره بقوة السلطة البريطانية . .

ولم تحقق هذه المسرحية أى هدف من أهدافها ، لأن الجمهور استمر فى احتقاره للجنة ملنر وللإنجليز جميعاً ، وعلى رأسهم قائدهم العام ، الذى كان لا يكتب شيئاً إلا وقع عليه بإمضاء أجوف يرن فى الأذن ،

كأنه اسم شخص من شخوص أوبريت من تأليف فرانزليهار : الفيلد مارشال إدموند هنرى هينهان أللنبي ، القائد العام لجيوش جلالة الملك فى مصر !

المهم أن هذه المحكمة – التى كان يرأسها البريجادير جنرال لوصون ، ويشترك فيها المستشار ثورب ، ويتولى رفع الدعوى فيها المستر ماكسويل – أصدرت سبعة أحكام بالإعدام على عبد الرحمن فهمى وستة آخرين (خففت كلها إلى السجن ١٥ سنة) وأحكاماً أخرى بسجن طويل وجلد وغرامات . .

ولم يمكث أحد من أعضاء هذه الجمعية فى السجن أكثر من ثلاث سنوات أو أربع ، فقد أفرجت عن بعضهم وزارة يحيى إبراهيم سنة ١٩٢٣ ، وعن الباقين وزارة سعد زغلول سنة ١٩٢٤ .

ولم يكن لهذه المحاكمات الطنانة أى أثر على نشاط الفدائيين ، فقد سارت عملياتهم فى طريقها كأن شيئاً لم يحدث . .

وربما كان لها بعض الأثر على المهيجين والمحرضين السياسيين ، لأن هؤلاء ليسوا جنوداً وإنما هم مجرد متحمسين لا يصل بهم الحماس إلى تعريض أنفسهم للخطر . .

وفى العادة لا يكون لأعمال المتطرفين والمحرضين والمهيجين أثر حاسم فى الحركات القومية . .

وإنما يكون الأثر الحاسم للثوريين والفدائيين والإرهابيين والجماعات المقاتلة ؛ يصدق هذا على كل الثورات : الثورة الفرنسية ، والثورة الروسية ، والثورة الإيرلندية ، والثورة الصينية ، وثورة الفييتنام ، والثورة الجزائرية ، وثورة ١٩١٩ ، وثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ .

(٤)

مواجهة العدو بسلاحه

استمر نشاط الفدائيين ضد الإنجليز والمتعاونين معهم .

استمروا يعملون فى صمت ، غير مبالين بالسلطة البريطانية وجيوشها ، ولا بالحكومة السلطانية ورجالها . .

مضى جناح العمال فى الحركة الفدائية يتصيد الجنود الإنجليز ، ويقضى عليهم ويستولى على سلاحهم وذخيرتهم ، فى تلال الدراسة حيناً وفى ناحية الحوض المرصود حيناً . .

ومضى جناح الطلبة والموظفين يتصيدون العملاء والإنجليز . .

فى ٢٨ يناير ١٩٢٠ ألقيت قنبلة على إسماعيل سرى وزير الأشغال فى وزارة يوسف وهبة ، فانفجرت القنبلة بعد الوقت المحدد بثوان قليلة ، ونجا وزير الأشغال وكذلك الفدائى ، الذى لم يعثر عليه أحد . .

وفى ٢٢ فبراير ١٩٢٠ جاء دور محمد شفيق وزير الزراعة ، وأفلت أيضاً . ووقع الفدائيان – وهما عبد القادر شحاتة وعباس حلمى ، وكانا طالبين فى المدرسة الإلهامية الثانوية فى حدود العشرين – وحكم عليهما بالإعدام ، ثم خفف الحكم إلى الأشغال الشاقة المؤبدة . .

ونجا أيضاً حسين درويش وزير الأوقاف : ألقيت عليه قنبلة فى ٨ مايو ١٩٢٠ ، فانفجرت ولم تصبه بسوء ولكنها جرحت سائق السيارة ، وقتلت

شاباً أراد له سوء حظه أن يلتقى بالموت فى ذلك الزمان والمكان . .

وكان هؤلاء الوزراء – وخاصة حسين درويش – من أشد الناس تفانياً فى خدمة السلطان والسراى . .

لا ندرى لماذا يكون إيمان بعض الناس بالمال والجاه أعمق بكثير من إيمانهم بالله والوطن ! !

وكانت مسألة عدم انفجار هذه القنابل أو تأخر انفجارها عن موعده مسألة طبيعية . فالقنبلة اليدوية ربما كانت من أصعب الأسلحة صنعاً واستعمالا ، لأن تركيبها ينبغى أن يتم بغاية الدقة ، وموادها لابد أن توزن بأجزاء الجرام ، والصفائح المعدنية الفاصلة بين المواد لابد أن تصنع من معادن معينة بسمك دقيق جداً ، وإذا زاد وزن القنبلة أو نقص لم تصب هدفها ، لأن الذى يتمرن على استعمالها يلقيها بقوة معينة لا تكون دقيقة إلا إذا كان الوزن واحداً فى كل حالة .

ولهذا ففى أعمال الفدائيين فى العالم إذ ذاك – لا فى مصر فقط – كان من النادر أن تنفجر قنبلة يدوية « بيتية » فى وقتها ومكانها المعينين بالضبط . .

وكذلك المسدسات ، فإن استعمالها بدقة عسير جداً . . ويحتاج الإنسان إلى تدريب طويل وثبات أعصاب كبير لكى يصيب الهدف بالمسدس ، ولا يصيب هدفه به بدقة إلا من تمرن على التصويب والإطلاق وإصابة الهدف شهوراً طويلة ينفق فيها رصاصات كثيرة .

وكان الفدائى المصرى إذ ذاك لا يحصل على الرصاصات الخمس إلا بشق النفس ، كان بعضهم – فيما قيل لى – يتمرن بإطلاق رصاصتين

فقط ويدخر الثلاث الباقية ليقتل بها ثلاثة وزراء !

ولهذا فقلما أصاب الفدائيون فى ذلك العصر أهدافهم ، سواء استعملوا القنابل « البيتية » أو المسدسات ، خاصة أنه لابد للقنبلة المحكمة فى ذلك العصر من أن تركب على أساس النيتروجليسيرين ، ويكاد يكون من المستحيل – عملياً – تركيب قنبلة على هذا الأساس فى غرفة صغيرة ليس فيها إلا البدائى من أدوات الوزن والتركيب الكيميائى واللحام . لقد حاول بعض المتحمسين فى تلك الأيام صناعة القنبلة اليدوية من كوز يشترونه من عند السمكرى ، فلقوا حتفهم فى أثناء العمل أو فى أثناء التجربة الأولى ، ولقد مات فى يوم واحد اثنان من الشبان قرب حلوان – وهما يجريان إلقاء قنابل صنعت فى أكواز . .

ولكن المهم أن الفدائى يرهب ويرعب ، والقنبلة التى لا تصيب ترعب كالقنبلة التى تصيب تماماً . والرصاصة الطائشة ربما أخافت أكثر من الرصاصة المحكمة . . ولهذا فقد ملك وزراء يوسف وهبة رعب شديد ، وكانت التنبيهات عليهم – من السلطات البريطانية – أن يلصقوا أجسادهم بمقعد السيارة ما أمكن ، فلا تظهر رءوسهم أو أجزاء منها من زجاج السيارة . . وبهذا الشكل كانت السيارات تمضى بهم إلى الوزارات . .

ولهذا أيضاً سخر اللورد ملنر من يوسف وهبة وخليفته فى رئاسة الوزارة – محمد توفيق نسيم – ووزرائهما ، فقال عنهم فى تقريره : « يصعب على المرء أن يفى هذين الرئيسين وسائر رفاقهما الوزراء حقهم من المدح والإطراء ، على ما أبدوا من الشجاعة (!) والغيرة الوطنية (! !) بتسلمهم مقاليد الأحكام فى زمن كانت بلادهم تعانى فيه شدة أزمة كهذه ، وكانت

حياتهم مهددة بخطر دائم . . »

ولهذا أيضاً أمر الإنجليز بأن يرفع معاش الوزير — الذى يتولى الوزارة بعد عشرين سنة من الخدمة فى وظائف الدولة — إلى ١٥٠٠ جنيه فى السنة بصفة دائمة . .

و ١٢٥ جنيهاً فى الشهر فى ذلك الزمان تساوى بجنيهات أيامنا هذه ١٥٠٠ جنيه ، وربما أكثر . .

وقد قرر الإنجليز ذلك لكى يسهل عليهم الحصول على وزراء . .

وفى ١٩ مايو ١٩٢٠ استقالت وزارة يوسف وهبة . .

وفى ٢٢ مايو ١٩٢٠ تألفت وزارة محمد توفيق نسيم الأولى من نفس الوزراء ، عدا ثلاثة جدد غامروا بحياتهم طمعاً فى الراتب والمعاش والمكاسب !

وفى ١٢ يونيو ١٩٢٠ وقع الاعتداء على محمد توفيق نسيم . .

وكان الفدائى الذى أقدم على هذا العمل هو إبراهيم حسن مسعود من موظفى حسابات مصلحة الصحة . وأصيب نسيم بجروح ، وحكم على إبراهيم بالإعدام ونفذ فيه الحكم . .

العمل الفدائى يحقق هدفه

وبرغم ذلك التوفيق القليل ، فقد أتت أعمال الفدائيين بنتيجة . .

فقد فشلت لجنة ملنر فشلا ذريعاً كما أرادت لها الأمة . .

ولولا الفدائيون المتربصون بكل من تحدثه نفسه بالتعاون مع المحتلين لما عدم الإنجليز من يقدم على التعاون معهم . .

وتألفت وزارة عدلى يكن برضى من الأمة . .

ثم وقع الخلاف بين سعد وعدلى على رئاسة وفد المفاوضة . .

وسافر عدلى ليفاوض كيرزون على كره من الأمة . .

ولم تنجح المفاوضات بسبب اختلاف سعد مع عدلى ، فإن المفاوض الإنجليزى – اللورد كيرزون – شعر أن مركز عدلى ضعيف ، فطمع فى أن يحصل منه على الوثيقة المشتهاة التى تجعل مركز الإنجليز فى مصر شرعياً ، ولكن عدلى – ذلك الوطنى الكريم والقاضى النزيه – رفض وقدم استقالته . .

وأرادت إنجلترا – بعد ذلك – أن ترهب المصريين ليستجيبوا لمطالبها فلم توفق : استعملت أقسى وسائل الإرهاب ، ونفت سعداً وصحبه إلى سيشل . .

وعاد الفدائيون إلى العمل . .

فى صباح ٥ يناير ١٩٢٢ أطلق فدائى الرصاص على متعاون خطر ، هو محمد بدر الدين مراقب الجنايات بإدارة الأمن العام ، فأصابه بإصابات بالغة . .

وكان للحادث دوى بعيد فى البلاد ، نظراً لكراهية الناس لهذا الرجل الذى كان يقوم بتعذيب المعتقلين السياسيين . . ورسم الرساموں صوراً يدوية ملونة لحادث إطلاق النار عليه ، واشترى منها الناس ألوفاً علقوها فى بيوتهم ومحلاتهم التجارية . .

وفى خلال فبراير ١٩٢٢ قتل اثنان من الإنجليز وشرع فى قتل ثالث

وقد ظل منصب الوزارة خالياً – بعد استقالة عدلى – أكثر من شهرين . .

وفى أثناء ذلك تشجعت الهيئة الوفدية فى مصر فأذاعت فى ٢٣ يناير ١٩٢٢ بيانها بتنظيم المقاومة السلبية أو العصيان المدنى ، ووقف دولاب الأعمال فى مصر . .

ووقفت إنجلترا فى حيرة . . فإن رعاياها فى مصر أصبحوا يعيشون فى خوف شديد ليل نهار .. والأجانب الذين قالت إنها تحميهم – ملكهم رعب عظيم . .

ولكى تخرج من هذا المأزق بدأت اتصالاتها بعبد الخالق ثروت ، وشعر ثروت بأنه فى مركز يمكنه من فرض شروط ، وكانت شروطه مقدمة لصدور تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ . .

وصدر التصريح فى وقت لم يكن أحد يتصور صدوره فيه . .

وأعود فأقول إننى لا أرد صدور هذا التصريح إلى العمل الفدائى وحده . . بل أقول إنه أسرع به ، وفرض على بريطانيا أن تلين وتتساهل فى وقت كانت قد بدأت فيه تعود إلى الشدة والعنف والاضطهاد . .

السياسيون مهدوا الطريق ، وساروا بالقضية فى طريقها ، وأثبتوا لبريطانيا أن مصر لن تستكين أبداً ، وأنه لا سبيل للتفاهم معها إلا بعد الاعتراف باستقلالها مقدماً .

وكان من الممكن أن يستمر الموقف على هذه الحال سنوات بعد سنوات . . وماذا تخسر بريطانيا ؟ . . إنها دولة استعمارية ورجالها يعتمدون دائماً على الصبر والمطاولة لتحقيق ما يريدون . . ولكن الفدائيين سلطوا عليهم سيف الرعب . .

والإنجليز – بالذات – لا يخيفهم شيء مثل الفدائى الصامت الذى

يتربص لهم عند منعطف كل طريق . .

إنهم لا يرهبون الدخول فى المعارك الكبرى ، ولكنهم لا يحتملون العيش طويلا فى ظل الإرهاب . . كان هذا حالهم فى مصر فى العصر الذى نتحدث عنه ، وكان هذا حالهم مع الإيرلنديين . . وهذا ما جعلهم يتركون عدن ويخرجون منها منذ سنوات قلائل . .

ولا يظنن أحد أننى أبالغ فى تقدير عمل الفدائيين المصريين ، لأنك لا تستطيع تعليل مسارعة الإنجليز بإصدار تصريح ٢٨ فبراير وإعلان سقوط الحماية ، إلا إذا كان دافعهم إلى ذلك الرغبة فى التخلص من موقف يعسر عليهم احتماله لزمن طويل . .

وإليك دليلا واحداً يغنى عن كثير : قال اللورد أللنبى المندوب السامى فى خطاب بعث به إلى عبد الخالق ثروت فى مايو ١٩٢٢ ، أى بعد شهور قليلة من صدور تصريح ٢٨ فبراير وتأليف ثروت وزارته على أساسه : « إن عدم الاهتداء إلى مرتكبى تلك الجرائم وبقاءهم بعيداً عن طائلة العقاب ، يدلان أوضح دلالة على عدم كفاية التدابير التى اتخذت لمنع تلك الاعتداءات ، وإن الحكومة البريطانية لتجد نفسها - تلقاء هذه الحالة - مضطرة لأن تعتبر الحكومة المصرية مسئولة عن تعويض من يقع عليه اعتداء من الأجانب وتعويض ورثته إن أدركته الوفاة ، كما أنها تحتفظ بحق تقدير كفاية التعويض الذى تمنحه الحكومة المصرية أو عدم كفايته . . »

رسالة تدل على هلع . .

ومن الغريب أن عبد الرحمن الرافعى لم يعط العمل الفدائى حقه

من الأهمية ، بل هو يستنكر أعمال الفدائيين ويعتذر عنها قبل إيراده إياها ، يقول : « وإنا – مع استنكارنا لمبدأ الاعتداء وحوادثه – نذكر فيمايلى تسجيلا للوقائع التاريخية من حوادث الاعتداء بترتيب وقوعها »[1] . .

وهو يقول هذا بعد أن يسرد محاكمات الثورة ، ويعدد الأحكام الجائرة التى أنزلتها المحاكم العسكرية البريطانية بكل مواطن ثبت اشتراكه فى الثورة ، أو قيامه بأى عمل عدائى ضد المحتلين ، وفى قضية واحدة منها أصدرت المحكمة الإنجليزية حكماً بإعدام ٥١ مواطناً من أهل دير مواس بمديرية أسيوط . .

وأعدم ثلاثة من المصريين فى قضية قتل فيها إنجليزى فى الواسطى ، وفى القضية نفسها حكم على ثلاثة آخرين بالأشغال الشاقة المؤبدة .

وهذه كلها كانت اعتداءات إجرامية على المواطنين المصريين – وإن تمت على يد محكمة عسكرية – لأن قضاتها جلادون . ومثل هذه الأحكام تصدرها اليوم سلطات الإرهاب الصهيونى على أهالى الأراضى المحتلة فى فلسطين ، والغرض منها إبادة شعب بأسره .

ومع هذا يستنكر عبد الرحمن الرافعى أعمال الفدائيين المصريين ، وكأنه كان ينتظر أن نظل نطرق أبواب الإنجليز فى أدب بالغ حتى يخجلوا من أنفسهم ويرحلوا . .

---

(١) ثورة سنة ١٩١٩ ، لعبد الرحمن الرافعى ، جـ ٢ ص ٨٤ .

وانتشرت جمعيات الفدائيين فى أنحاء البلاد

وكلما اشتد الإنجليز وعملاؤهم فى أعمال العسف ضد الوطنيين ، زادت روح الفداء قوة وكثر الفدائيون وجمعياتهم . .

والحق أن الفدائيين كانوا أكثر عدداً من الإحصاء الذى يقدمه عبد الرحمن الرافعى وغيره ممن أرخوا لفترات من تاريخ ثورة ١٩١٩ ، لأن الكثيرين منهم كانوا يضربون ضربتهم ويفرون ويلزمون الصمت بعد ذلك ، حامدين الله على القيام بالواجب والفوز بالسلامة .

ولكن القليل الذى كشف أمره من جمعيات الفدائيين ، والكثير الذى لم يكشف النقاب عن فاعليه ، يدلان على أننا فى الحقيقة أمام جيش حقيقى يعمل – فى الظلام وفى صمت – على إزهاق أرواح المحتلين وأعوانهم . .

ومن يرجع إلى جرائد هذا العصر يجد مادة حفيلة من أخبار أعمال الفدائيين ومحاكمات من وقع فى أيدى السلطات منهم . . ونكتفى هنا بالإشارة إلى ما سمى بقضية المؤامرة السياسية التى جرت محاكماتها فى شهور أبريل ومايو ويونية ويوليو ١٩٢٣ وفاضت بتفاصيلها أعمدة الصحف . .

ونحن نذكرها هنا ، لأن الجمعية التى كان ينتمى إليها المتهمون نشأت وبدأت تباشر أعمالها من أبريل ١٩٢٠ ، واستمرت إلى سبتمبر ١٩٢٢ ، عندما وقع أفرادها فى أيدى البوليس . .

وكان ميدان نشاط الجمعية – كما كشفت التحقيقات – واسعاً ،

ولكنه كان موجهاً إلى صميم الاحتلال وأنصاره . .

فقد تخصص أعضاؤها فى قتل الإنجليز واغتيال شهود الإثبات أمام المحاكم العسكرية ، الذين كانوا يشهدون ضد الفدائيين ويتعاونون مع السلطات البريطانية فى الكشف عنهم . .

وكانوا يوزعون الأسلحة والمنشورات الثورية . .

وكان مؤسسو هذه الجمعية والقائمون بإدارتها وتنفيذ أخطر أعمالها – كما أظهرت التحقيقات – ثلاثة من الجنود المجهولين ، هم : إبراهيم خليل نظير ومحمد دسوقى مصطفى وعلى فهمى على . وكان معهم اثنا عشر شاباً آخرون يشتركون معهم فى كل وجوه نشاط الجمعية ، وخاصة محمد الشافعى البنا ومحمد كامل عبد الخالق . .

واتضح من التحقيقات أن الجمعية قامت بعدد كبير من العمليات ، وأنها كانت – بالفعل – مجموعة قادرة على إلحاق الكثير من الأذى بالعدو . .

عيبها الكبير كان كثرة العدد ، وهو دائماً نقطة ضعف فى تكوين مثل هذه الجمعية ، لأن الأسرار لا تظل أسرارا مع العدد الكبير . .

وبدأت محاكمة أعضاء الجمعية – بعد تحقيق طويل دام أكثر من عام – فى أبريل ١٩٢٣ ، وانتهت بالحكم بإعدام إبراهيم خليل نظير ومحمد دسوقى مصطفى وعلى فهمى على ، وبالسجن مدداً متفاوتة على باقى الأعضاء . .

واستمرت الاغتيالات برغم سقوط الاحتلال

كان تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ – كما قلنا – خطوة إلى الأمام . . على أقل تقدير ، خرجت به مصر من عالم المستعمرات وأصبحت دولة مستقلة . . حقاً إنها ظلت مكبلة بقيود التحفظات ، ولكن كان دائماً هناك أمل المفاوضات الخادع ، الذى ظل شركاً يجتذب السياسيين . .

وبصورة عامة ، نستطيع أن نقول إن معظم رجال السياسة المصرية – الذين كانوا يناضلون فى الميدان – اعتبروه كسباً أو ورقة ذات قيمة كبيرة ، فى لعبة القمار المملة التى كان السياسيون يلعبونها دون نجاح كبير . .

وسعد زغلول نفسه قبل الدخول فى اللعبة على الأساس الجديد . .

ولكن هذا لم يكن رأى الفدائيين . .

فالفدائى الذى يواجه الموت فى كل لحظة ليحصل لبلاده على الاستقلال التام ، لا يقنع قط بنصف استقلال أو بحرية زائفة . .

فحتى بعد صدور الدستور وقيام الانتخابات ، ظل الجيش الإنجليزى هو القوة الفعالة فى مصر ، وظل المندوب السامى يحكم البلاد ، وظل الموظفون الإنجليز فى أماكنهم فى كل ناحية من نواحى العمل . . إذن . . بالنسبة للفدائى لم يكن تصريح ٢٨ فبراير شيئاً . .

كان كسباً لرجال السياسة وخسارة لمصر ، فقد أصبح الكثيرون منهم وزراء ونواباً ، ولكن مصر ظلت حيث هى . .

أما الفدائيون فقد رأوه وقفة لا معنى لها فى منتصف الطريق وتضييعاً

للقضية ، وإذا كان السياسيون قد رأوا أن يتوقفوا فلا معنى لأن يتوقفوا هم . .

وقد حكى الأستاذ الدكتور السيد محمد باشا أن نفراً من الفدائيين أنكروا على سعد قبوله التصريح ودخوله الحكم على أساسه (وسنرى بعد قليل أن سعداً كان يعرف بعضهم على الأقل ، وإن ظل شديد التحفظ حيالهم) فلم يكد يعود من المنفى حتى التقى به جماعة منهم وجرى بينه وبينهم حديث طويل . .

وقد استاء الفدائيون عندما قال سعد إن محمد توفيق نسيم يستحق تقدير الوطن ، وكان الرأى العام فى البلاد مجمعاً على أنه لا يستحق هذا الثناء ؛ وفى تصرفات سعد وأقواله أشياء كثيرة مثل هذه لا يعرف الإنسان كيف يفسرها . .

وقال أحد الفدائيين لسعد : إن كلمتك هذه تنديد بالفدائيين ..

والفدائى يشير بهذا إلى ما كان من محاولة الفدائيين اغتيال نسيم باعتباره خائنا فى نظرهم ، فرد عليه سعد قائلا : كيف أندد بكم وأنا أعلم أن الإنجليز ما تزحزحوا إلا بأعمالكم ؟ . .

ولم يقتنع الفدائيون بهذا الكلام ، وكان رأيهم قد استقر على السير بنشاطهم إلى الأمام مهملين تماماً تصريح ٢٨ فبراير ، فما سمعوا بأن عبد الخالق ثروت يتفاوض مع الإنجليز فى استصدار هذا التصريح كشرط لقبوله تأليف وزارته حتى دبروا اغتياله . .

وقرروا تنفيذ الاغتيال فى ٢٦ يناير ١٩٢٢ ، ولكن المؤامرة اكتشفت قبل تنفيذها ، وقبض على مدبريها وهم محمد حسن فرغل ومحمد حسن سعد وعلى رحمى ومحمود حنفى سامى وعبد الحى كيرة ، وضبطت السلطات

قنابل ومسدسات فى بيت كانوا يجتمعون فيه فى حى جنينة ناميش بالسيدة زينب فى القاهرة .

وقد حوكم المتهمون أمام محكمة عسكرية بريطانية فى مارس ١٩٢٢ ، وتدل الأحكام التى أصدرتها المحكمة على أن التهم التى وجهت إليهم لم تثبت بصورة قاطعة ، فقد حكم على محمود حنفى بالسجن ثلاث سنوات مع الشغل ، وعلى على رحمى ومحمد حسن سعد بالسجن سنتين مع الشغل أيضاً . وهذه أخف أحكام أصدرتها هذه المحاكم على الفدائيين .

وفى الوقت نفسه استمرت أعمال اغتيال الإنجليز . . .

فنى مارس ١٩٢٢ أطلق مجهولان الرصاص على المستر ماكنتوش بك مدير قسم القاطرات بالسكك الحديدية فأصاباه إصابة بليغة ، ولم يقبض عليهما . .

وفى مايو لقى البكباشى كيف مساعد حكمدار فرقة (ب) بمحافظة القاهرة مصرعه فى شارع الفلكى على يد فدائى لم يعثر عليه . .

ويقول عبد الرحمن الرافعى إن الحوادث فى هذه الفترة القصيرة التى لم تزد على شهرين بلغت سبعاً ، لم تهتد الحكومة إلى الفدائيين الذين قاموا بها . .

ويلاحظ أن هذه الحوادث كلها تمت بالرصاص ، مما يدل على أن السلاح أصبح متوافراً بين أيدى الفدائيين ، وتدل إصابتهم للأهداف على أنهم ازدادوا تدريباً وقدرة على استعمال السلاح . .

وتوالت الحوادث ، فقد أصبح الاغتيال عملا منظماً له خطة مقررة ترسمها جماعة أو جماعات . .

هدف العمل الفدائى : إزعاج المستعمر حتى يحمل عصاه ويرحل

أكثر من خمسين جناية قتل ضد الإنجليز وضد المصريين المتعاونين معهم وقعت دون أن يستطيع البوليس المصرى أو البريطانى الوصول إلى معرفة الجناة فى أغلب الأحوال . .

ووصل الأمر إلى حد أن أحد البريطانيين أطلق عليه الرصاص فى مكان عام وأمام بعض الحوانيت ، وعند ما سئل أصحابها قالوا إنهم لم يروا شيئاً ولم يسمعوا شيئاً . .

واجتمع أعضاء الجالية البريطانية فى مصر بفندق شبرد ، واحتجوا على استمرار حملة الاغتيالات ، وطلبوا اتخاذ إجراءات قوية للقمع . . .

ولكن الاغتيالات استمرت . .

لم تكن عمليات عشوائية أو ضربات غير مخططة أو مدروسة يقوم بها شبان متحمسون ولا شىء غير ذلك ، بل كانت – فى الحقيقة – حرباً معلنة على العدو يقوم بها جيش صغير منظم يتكون من جماعات من الشباب المؤمن الذى باع نفسه من الله فداء للوطن ، جيش حقيقى يعمل بناء على خطة موضوعة ، يرمى من ورائها إلى إلقاء الرعب فى قلب المحتل البريطانى ، وإشعاره أنه من المستحيل عليه أن يبقى فى مصر ، لأن مصر ترفض الاحتلال ، وشبابها لا يهابون الموت فى سبيل الوصول إلى الاستقلال . .

واحتج الإنجليز على عبد الخالق ثروت رئيس الوزراء ووزير الداخلية ،

وبدأت سمعته عندهم – كرجل إدارى حازم – تهتز ، وخصوصاً بعد أن كاد المستر برت المفتش بالسكة الحديدية يقع فريسة لرصاص الفدائيين فى ٣ يوليو ١٩٢٢ . .

وفى ١٥ من الشهر نفسه جرح الكولونيل بيجوت جرحاً بليغًا ، وكان يعمل فى الإدارة المالية التابعة للجيش البريطانى . .

وهذه الأعمال هى التى أحرجت صدر عبد الخالق ثروت وجعلته يلجأ إلى إجراءات تتعارض مع ما عرف من هدوئه واتزانه ، فقد أكثر من تعطيل الصحف التى تنشر أى تفاصيل عن الاعتداءات . .

واعتقلت السلطة العسكرية البريطانية أعضاء الوفد فى القاهرة ، ومن بينهم رجال لا يقلون مركزاً فى البلاد عن ثروت نفسه ، وهم : حمد الباسل وويصا واصف ومرقس حنا وواصف بطرس غالى وعلوى الجزار وجورج خياط ومراد الشريعى . .

وكانت هذه إهانة لثروت كرئيس وزارة لمصر فى عصر سمى بعصر الاستقلال ، لأن الاستقلال الذى زعم أنه حصل عليه وأعلنه فى ١٥ مارس كان ينص على انتقال مسئولية الأمن الداخلى إلى السلطات المصرية ، فكيف تتولى السلطة العسكرية البريطانية القبض على أولئك الرجال دون مبالاة بالوزارة القائمة ووزير داخليتها عبد الخالق ثروت ؟ ثم إن التهمة التى وجهتها إليهم السلطة العسكرية البريطانية كانت إذاعة منشور « يعرض للكراهة والاحتقار حكومة جلالة ملك مصر » ، كأن الإنجليز هم حراس جلالة ملك مصر وحكومته ! . .

وبعد قليل – فى صيف سنة ١٩٢٢ – نفسها قبضت السلطة العسكرية

البريطانية على عبد الرحمن فهمى وآخرين ، حاسبة أنهم يديرون الجناح الفدائى من الوفد المصرى ، وسنتحدث عن ذلك فى الفقرة التالية .

وفى أكتوبر ١٩٢٢ تأسس حزب الأحرار الدستورين برئاسة عدلى يكن وكان الهدف الرئيسى من تأسيسه منافسة سعد زغلول ومحاولة زعزعة زعامته فى البلاد . وكان بادياً من أول الأمر أنهم لن يصلوا إلى ذلك إلا بالتعاون مع السراى والإنجليز ، ولهذا استقال عدلى من رياسة الحزب بعد قليل .

وقرر الفدائيون توجيه ضربة لذلك الحزب . .

وفى مساء ١٦ نوفمبر ١٩٢٢ اغتال الفدائيون إسماعيل زهدى بك وحسن عبد الرازق باشا ، وكانا عضوين فى مجلس إدارته . .

وفى ٢٩ نوفمبر ١٩٢٢ استقال عبد الخالق ثروت . .

وفى اليوم التالى — ٣٠ نوفمبر ١٩٢٢ — ألف محمد توفيق نسيم وزارته الثانية ، وكانت مهمتها مسخ الدستور وتحويله إلى دستور ملكى احتلالى يخدم الملك وسلطة الحماية . .

وبعد أداء هذه المهمة ، وبعد أن ألغت من الدستور كل ما يشير إلى وحدة مصر والسودان ، استقالت الوزارة فى ٥ فبراير ١٩٢٣ !

واستمر حوادث الاغتيال . .

ولم تكن فى البلاد — إذ ذاك — وزارة . .

وفى ٧ فبراير ١٩٢٣ أصدر اللورد أللنبي أمراً عسكرياً بتعيين الكولونيل كولس حاكماً عسكرياً للقاهرة والجيزة . .

ورداً على ذلك قام الفدائيون فى ١٢ فبراير ١٩٢٣ بإلقاء قنبلة على المعسكر البريطانى فى جزيرة بدران بشبرا . . ومع أن هذه القنبلة لم تحدث

للإنجليز أضراراً جسيمة ، إلا أنها أثارت الخوف فى قلوبهم ، وأفهمتهم أن هذا البلد فيه رجال ، وأنهم لا يستطيعون العبث به ، وأن السلطان ورجاله وأعوانهم لن ينفعوهم فى شيء .

وفى حيرتها اعتقلت السلطة البريطانية زعماء الوفد والحزب الوطنى الموجودين فى مصر ، حاسبة أنهم مدبرو هذه الحوادث . .

وكان الوفديون ورجال الحزب الوطنى أبعد الناس عن استعمال القوة والعنف ، وإنما كانوا – فى غالبيتهم – أهل أخذ ورد وخطب وبلاغة . .

وأخيراً ، فى ١٥ مارس ١٩٢٣ ، تألفت وزارة يحيي إبراهيم بإيعاز من الإنجليز ، وكانت مهمته مصالحة الأمة الغاضبة ، وإعادة الدستور إلى ما كان عليه ، والعفو عن المعتقلين والمنفيين ، والتمهيد لإقامة حكم دستورى صحيح فى البلاد . . أعلنوا ذلك كله لمجرد تهدئة الخواطر . .

وهكذا ، وللمرة الثانية ، يحقق الفدائيون – وحدهم – نصراً حاسماً على الإنجليز والسراى ويرغمونهم على احترام هذا الشعب . .

وفى ١٧ سبتمبر ١٩٢٣ عاد سعد من المنفى ، واستقبل استقبالا أروع من استقباله يوم عاد من منفاه الأول فى أبريل ١٩٢١ .

وقامت الانتخابات ، وألف سعد وزارته ، وبدأت سلسلة طويلة من الاحتفالات ، وبدا وكأن الأمة قد حصلت على كل حقوقها . .

ولكن الفدائيين كانوا يشعرون أن هذه كلها خدعة ، وأن سعداً لن يستطيع تحقيق آماله وآمال البلاد عن هذا الطريق ، خاصة أن معه فى الوزارة – وزارة الشعب ! – محمد توفيق ومحمد نسيم ومحمد سعيد ، ومواقفهما من الشعب والحرية وحقوق البلاد معروفة . .

وقرروا الاستمرار . .

وكانت حادثة اغتيال السيرلى ستاك سردار الجيش المصرى وحاكم السودان فى ١٩ نوفمبر ١٩٢٤ . .

وكانت الكارثة . .

واغتيال السردار فى ذاته فصل فريد فى بابه ، لدينا عنه من المعلومات ما يغير تماماً وجهة النظر إليه . .

* * * *

تقرير راسل باشا حكمدار بوليس القاهرة

ولا يصور مقدار العناء الذى كانت تقاسيه السلطات البريطانية ومن كانوا يعاونونها من المصريين فى البحث عن الفدائيين ، مثل التقرير الذى كتبه توماس راسل باشا حكمدار بوليس العاصمة إلى اللورد أللنبى فى أول مارس ١٩٢٥ .

وقد أرسل أللنبى هذا التقرير إلى وزارة الخارجية البريطانية ، واطلع عليه الأستاذ محسن محمد فى دار المحفوظات البريطانية ، وترجمه إلى العربية ترجمة ضمنها سلسلة مقالات ممتعة عن موضوع الفدائيين نشرت فى مجلة آخر ساعة وهذا نص الترجمة كما ظهرت فى العدد رقم ٢٠٢٦ من تلك المجلة الصادر فى ٢٢ / ٨ / ١٩٧٣

« رقم ٨ سجلات الأرشيف

قسم ٥

مصر والسودان

ج / ٧٤٦ / ٩٠ / ١٦
رقم ١٥٩ سرى
القاهرة فى أول مارس ١٩٢٥
ووصل يوم ٩ مارس ١٩٢٥
من الفيلد مارشال الفيكونت أللنبى
إلى مستر أوستن تشمبرلين

سيدى

١ – بالإشارة إلى برقيتى رقم ١١٢ فى الرابع عشر من فبراير ، والتى أرفقت بها تقريراً موجزاً عن التقدم فى التحقيق الخاص بمقتل السيرلى ستاك . .

٢ – بعد أن ألقى القبض فى بلدة الحمام على الطالبين المشار اليهما فى برقيتى رقم ٥٧ فى السادس من فبراير ، أرسلت إلى توماس راسل باشا حكمدار بوليس مدينة القاهرة وإنجرام بك مساعد الحكمدار ، وعدد آخر من الضباط البريطانيين والمصريين فى البوليس ومصلحة الحدود الذين كانوا على صلة بهذه المسألة ، وأعربت لكل واحد منهم – وحده – عن تقديرى الحار للطريقة التى وجهوا بها التحقيق ونفذوا عمليات القبض على القتلة .

٣ – تأثرت بالتقرير الذى قدمه لى راسل باشا عن الوسائل التى أمكن بها التوصل إلى هذه النتيجة المرضية ، وطلبت منه إعداد تقرير مفصل ليقدمه ؛ ومرفق نسخة من هذا التقرير مع برقيتى .

٤ – إنى أعتبر أن راسل باشا والضباط الذين يعملون معه يستحقون تقديراً عظيماً على النجاح الذى حققوه حتى الآن .

مرفق : تقرير حكمدار بوليس مدينة القاهرة .

(سرى وخاص)

١ – إن شرحاً شاملا للتاريخ المفصل للعمل الذى تم فى حل قضية مصرع السردار قد يقتضى سرداً مطولا لمحاولات النجاح والاتفاق فى عمل البوليس وأسباب ذلك كله فى أكثر من خمسين جريمة سياسية خلال السبعة عشر عاماً الماضية ، وهذا التفصيل يفوق طاقتى فى الوقت المتاح .

٢ – مرة بعد أخرى ألقى البوليس القبض على الشخص المذنب فى اغتيالات سياسية سابقة ، وفى كثير من الأحوال أطلق سراح هؤلاء الأشخاص بسبب عدم كفاية الأدلة ، أو برئت ساحتهم .

وكان القبض على هؤلاء الأشخاص يحدث دائماً – تقريباً – بناء على « معرفة البوليس » بأن هؤلاء ، أو أولئك ، هم القادرون على ارتكاب الجريمة .

ومع ذلك فلم يصب الأشخاص المقبوض عليهم – على الإطلاق – بإنزعاج شديد ، لأنهم كانوا يعرفون حق المعرفة أنه لا يوجد أى شخص سيقدم دليلا ضدهم ، كما كانوا يعرفون أنهم وهم فى السجون المصرية – بفضل تعاطف ضباط السجون معهم واستعداد السجانين لقبول الرشوة – الاتصال بحرية كاملة بمحاميهم وأصدقائهم فى الخارج .

وكثير من القتلة مدينون بحياتهم لهذه الاتصالات التى تتم من داخل السجن إلى خارجه .

٣ – القتلة السياسيون ينظر إليهم بطريقة – مكشوفة أو ضمنية – على أنهم أبطال قوميون ، ويتمتعون – بهذه الصفة – بتعاطف شامل ، . وتساعدهم أحسن العقول والتبرعات الوفيرة .

٤ – فى القضايا السابقة كان إذا حدث واستطاع البوليس أن يجد شخصاً يقوم بالتبليغ عن شيء ، فإن هذا الشخص يكون طالباً منحرفاً يرغب – من أجل المكافأة المالية – فى الإدلاء بخمسة فى المائة من المعلومات الصحيحة ، و ٩٥ فى المائة من أقواله أكاذيب ، وكان هذا الشخص يصبح – فيما بعد – من المسئوليات الأبدية مدى الحياة بالنسبة لحكمدار البوليس البريطانى . . التعس !

٥ – لما كنا نعلم أننا لن نقبض على أى أحد أبداً فى حالة تلبس بإرتكاب الجريمة ، بفضل معلومات صحيحة يمكن أن تؤدى إلى إدانة أو تجريم ، فإننا كنا – نحن رجال البوليس – نبحث دائماً عن طالب أو شخص ما يمكن اجتذابه أو استمالته إلى جانبنا ، بعد أن يكون قد أصبح متحرراً تماماً من أوهامه ، فيما يتعلق ببطولة أو جدوى هـذه الجرائم .

٦ – فى أثناء الصيف الماضى حاول إنجرام جاهَداً أن يستميل إلى جانبنا سجيناً يدعى محمد نجيب الهلباوى ، كان هو الشخص الذى ألقى قنبلة على المرحوم السلطان حسين عام ١٩١٥ . وكان قد صدر الحكم عليه بالإعدام ، ورغم ذلك فإنه لم ينطق – عندئذ – بكلمة واحدة تفشى سره ؛ وقد خفف السلطان حسين هذا الحكم إلى الأشغال الشاقة المؤبدة .

وبعد أن كان طالباً فى مدرسة الحقوق ، وجد نفسه يقطع الأحجار

فى محاجر سجن طرة بقية عمره . وحتى بعد عشر سنوات من هذا الجحيم لم يتراجع قيد شعرة ، ولم يتفوه بكلمة .

وفى الخريف الماضى صدر العفو عن محمد نجيب الهلباوى ضمن مسجونين سياسيين ، وعاد إلى الحياة المدنية . وقد اتصل به سليم زكى واكتشف أن الهلباوى عرف الحقيقة ، وهى أنه – مثل الآخرين – كان أداة فى أيدى مجموعة من « الأوغاد » الذين – عن طريق التظاهر بأنهم وطنيون – حثوا هؤلاء « الغلمان » على ارتكاب جرائم القتل ومواجهة المخاطر على حين لم يخاطر « الأوغاد » أى مخاطرة ، وحصلوا على المجد والوظيفة والمال عن طريق الوفد المعترف بالجميل . إن الهلباوى لم يضيع عشر سنوات من عمره فى المحاجر عبثاً ، وبدلا من أن تجعله رجلا خشناً ، فقد طهرته من الأوهام الرومانتيكية ، وخرج من السجن وهو يعرف من هو الرجل الذى دمر بلاده . . وهو يعتزم أن ينتقم . .

ولا شك أن العشرة آلاف جنيه مصرى – وهى قيمة المكافأة – كانت تشكل حافزاً . ولكن ما كان يتوق إليه – أكثر من أى شئ آخر – هو العفو الملكى الذى سيمكنه من إسقاط اسمه من سجل السوابق ، وبالتالى يستطيع الالتحاق بوظيفة .

٧ – كان من الضرورى معاملة الهلباوى بصبر شديد ، ودفعت مبلغ ثلاثين جنيها مصرياً كل شهر كى أساعده على أن يعيش حياة لائقة .

واعتاد سليم زكى أن يقابله كل ٣ أو ٤ ليال .

وكانت مهمة الهلباوى هى إقامة صلة مع عصابة القتل ، والتعرف على نواياها بالنسبة للمستقبل ، وسرعان ما اكتسب ثقة أفرادها ، وتم الترحيب

بعودته إلى حظيرة الجماعة . .

تظاهر الهلباوى بأنه يحترق شوقاً إلى الانتقام لنفسه من الإنجليز ، بسبب سنوات الأشغال الشاقة العشر . وزوده بيكر بنصف دسته من قنابل ميلز اليدوية ، كي يساعده على أن يلعب دوره .

وكانت مواظبة سليم زكى على الاتصال بالهلباوى تنطوى على صعوبة ومجازفة ، فقد كان من المحتم أن تتم مقابلاتهما فى الحوارى المظلمة فى الجزيرة وهليوبوليس .

وشعر الهلباوى أنه استعاد وضعه داخل العصابة ، وأكد لنا أنه سيستطيع أن يعطينا إنذاراً بأية جريمة سياسية تعتزم العصابة ارتكابها ، قبل موعد تنفيذها بثمان وأربعين ساعة . .

وكان صديقه الشخصى فى العصابة محمود إسماعيل ، وقد اصدرت أوامرى – دون علم الهلباوى – بمراقبة محمود إسماعيل ، نهاراً وليلا حيثما ذهب لمدة ستة أسابيع .

* * *

٨ – سوف أفشي سراً من أسرار المهنة . .

إن ما يسمى بالمراقبة السرية التى يقوم بها المخبرون العاديون لا تصلح إلا لمدة يوم أو يومين ، ذلك أنه إذا كان لدى الشخص الذى نتعقبه شعور بالإثم ، فسيتعرف – فى الحال – على الذين يتعقبونه . .

وجميع المخبرين الذين يعملون فى خدمتى ، معروفون لدى الطلبة الذين استطاعوا دائماً أن يضعوا عشرين منهم ، ليحلوا بعضهم محل بعض – على مراحل – فى طريق أى رجل من رجالى . .

ولذلك قمت منذ بعض الوقت بتنظيم جماعة من غلمان الشوارع المصريين لأغراض المراقبة ، وقام هؤلاء الغلمان بعمل مذهل . إنهم لا يعرفون القراءة أو الكتابة ، ولا يعرفون لماذا يراقبون ، ولا أى شئ آخر سوى أنهم يجب أن يقوموا بالإبلاغ عن أى حركة من جانب الشخص المراقب طوال نوبة عملهم ، وهى ثمان ساعات . .

والطريقة التى يلتصق بها هؤلاء الصبية بطريدتهم تكاد تكون مدهشة – برغم العقبات ، مثل السيارات . . إلخ – ولكنهم يقومون بالعمل المطلوب منهم ، ولم يكشف أحد أمرهم على الإطلاق . .

وقد مكننى هؤلاء الصبية من معرفة عدد من الأشخاص كان محمود إسماعيل يتصل بهم ، وبعضهم تحوم حولهم الشبهات فى جرائم قتل وقعت منذ سنوات .

٩ – حتى ١٩ نوفمبر ، عندما قتل السردار ، لم نكن على يقين من أن الهلباوى يلتزم بخطتنا .

وفى الليلة السابقة لـ ١٩ نوفمبر ، استعد سليم زكى لمقابلة مع الهلباوى فى هليوبوليس فى الساعة الخامسة والنصف بعد ظهر يوم ١٩ نوفمبر . .

وعقب وقوع الجريمة أبلغت سليم زكى أن يحافظ على موعده مع الهلباوى ، وأن يستمع إلى تفسيره لحدوث الجريمة وعدم تحذيره لنا – مسبقاً – بوقوعها . .

وقال الهلباوى فى تلك الليلة ، إنه لم يسمع عن الجريمة إلى أن نقل إليه سليم زكى خبرها . . وأنه – الهلباوى – كان مضطرباً للغاية بسبب إخفاقه فى تنفيذ وعده ، وكان مصمماً على أن يبرئ نفسه عن طريق الحصول على

معلومات حول وقائع الحادث . .

وأعقبت ذلك أسابيع من الانتظار . .

والتقى الهلباوى مع سليم زكى كل بضع ليال . وألح الهلباوى دائماً فى حديثه معنا على أنه لا يستطيع أن يتعجل الأمور ، ولا يستطيع أن يوجه أسئلة مباشرة ، لأن أعضاء جماعة القتل لا يوجه بعضهم أسئلة إلى بعض ، حتى لا يثير السائل حوله الشكوك فى الحال . .

والرجل الذى يغرق لا يرفض أن يمد يده إلى خيط رفيع يلقى إليه من أحد القوارب . . فهو يفضل أن يعتمد على هذا الخيط على عدم وجود أى شىء يعتمد عليه . .

وقررت أن أفعل الشىء نفسه فى سبيل الوصول إلى حل للمشكلة . .

أبلغت سليم زكى عندئذ أن يجعل الهلباوى يشعر أننا بدأنا نعتقد أنه يخدعنا . . ثار الهلباوى على الفور ، واقترح علينا — متحدياً — أن نراه ونستمع إليه وهو يناقش الجريمة مع أحد أفراد العصابة . .

واستاجرنا له غرفة فى فندق حقير . . وطلب الهلباوى من محمود إسماعيل وعبد الحميد عنايت الحضور ومقابلته هناك . ولذلك أعددنا للأمر عدته ، وأخذنا الغرفة المجاورة التى تتصل أبوابها بغرفة الهلباوى ، وكان بالباب ثقب مفتاح . .

وبعد إجراء التجارب أعدنا ترتيب الأثاث فى غرفة الهلباوى ، بحيث يكون هو وضيفاه فى مواجهة ثقب الباب . .

ويوم ٤ يناير كان الضابط حمدى يتولى المراقبة ، فشاهد وسمع الهلباوى وعبد الحميد عنايت يناقشان الجريمة ، وكذلك قصة وفاة شخص يدعى

مصطفى حمدى نسف نفسه عندما كان يقوم بتجربة القنابل فى الصحراء عام ١٩١٩ . .

والنتيجة المباشرة لهذه العملية الصغيرة هى اقتناعى بأن الهلباوى يواصل مهمته ، وأنه موضع ثقة العصابة . .

وقمت أيضاً بمراقبة دقيقة لتحركاته عن طريق « الصبية » ، وقررت أن أثق وأسترشد به فى وضع خطة للإيقاع بالعصابة . .

١٠ - وحتى ذلك الوقت كان يتولى التحقيق فى القضية القائمقام بيكر بك ، ولكننا استدعينا إنجرام من الإجازة لأن هناك حاجة ماسة إلى خبرته ومعرفته بقضايا القتل القديمة .

ثم بدأت سلسلة من اللقاءات الليلية مع الهلباوى . .

وكانت اللقاءات القليلة الأولى تتم فى شقة بالدور الأرضى ، كنت قد استأجرتها فى زقاق خلفى قرب فندق السافوى .

ومع ذلك فإن سوء الحظ جعل أحد رجال دوريات البوليس - وكان ذكياً على غير العادة ! - بدأ يرتاب فى أمرنا . .

وبمجرد أن عاد إنجرام إلى منزله فى الجزيرة بدأنا نلتقى هناك بدلا من الحجرة الأولى . .

وقررنا فى النهاية أن الأمل الوحيد هو الحصول على اعتراف من شخص ما .

وقررنا اختيار عبد الفتاح عنايت ، وأننا يجب أن نضع خطتنا بحيث نحمله على الهرب ، وأن نقبض عليه فى أثناء محاولة هروبه ، وعندئذ نرغمه على الاعتراف . .

ووضع الهلباوى - فى ضوء معلوماته عما يجرى داخل العصابة -

قاعدة هى : « عندما تلقى القبض على أشخاص ، فيجب أن يكون هؤلاء الأشخاص هم المذنبين الحقيقيين. أما إذا ألقيت القبض على أشخاص « مشكوك فيهم » أيضاً ، فإن المذنبين الحقيقيين سيعرفون أنك غير واثق من الأمر » . .

ولذلك تقرر القبض على محمود إسماعيل وشفيق منصور باعتبارهما المدبرين الحقيقيين ، وكذلك القبض على كل من يتصل بهم محمود إسماعيل وفقاً لبلاغات الصبية . .

وكان الهلباوى قد تحقق من عبد الفتاح عنايت أن الأشخاص الذين اشتركوا فى الجريمة حقيقة هم :

عبد الفتاح نفسه

وشقيقه عبد الحميد

وشخص يدعى محمود راشد

وأربعة من العمال . .

١١ – وقع الاختيار على عبد الفتاح عنايت ، باعتباره الشخص الذى يجب أن ندفعه للانهيار .

ووضعت – ونفذت – الخطة التالية :

تم القبض على محمود إسماعيل والأشخاص الذين يتصل بهم ، وكذلك شفيق منصور .

وكان محمود إسماعيل خارج القاهرة ، وسلم نفسه عندما سمع أنه مطلوب القبض عليه .

وطبقاً للخطة ، وبترتيب سابق مع إسماعيل صدقى باشا وزير

الداخلية ، تم نقل محمود إسماعيل إلى القاهرة بالقطار فى الساعة العاشرة من صباح يوم ٢٨ يناير ، وكان فى انتظاره حرس من كونستابلات البوليس البريطانيين ، ونقل مباشرة إلى مكتب الوزير .

وقابلتهم هناك . . وأخذت السجين – محمود إسماعيل – إلى الوزير ، حيث قمنا بمحاولة غير ناجحة لتهويشه ، ثم أرسلناه إلى السجن .

وعندئذ سمحت لأحد الموظفين بأن يذيع سراً ، وأن يتيح لصحيفة عربية أن تحصل على نبأ خلاصته أنى طلبت للسجين مقابلة خاصة مع الوزير ، وأنه لم يبق سوى ٣ أيام على انتهاء مهلة منح مكافأة قدرها عشرة آلاف جنيه مصرى لكل من يدلى بمعلومات عن الجريمة ، وأنه يبدو من المحتمل أن هذا السجين لابد أن يكون قد طلب مقابلة الوزير لتقديم معلومات . .

ويجب أن نتذكر فى هذا المجال أنه كان من الضرورى أن نخدع الصحيفة ، إذ لا يمكن أن يكون الصحفيون فى مصر موضع ثقة ! . .

١٢ – وأصدرت الصحيفة ، كما أوحى لها ، طبعة مبكرة فى الساعة الثانية عشرة ظهراً . .

وحمل أحد « الغلمان » نسخة منها إلى الهلباوى ، الذى هرول بها إلى عبد الفتاح عنايت فى مدرسة الحقوق .

وإذ شاهد عبد الفتاح الصحيفة مطبوعة ومعروضة للبيع ، حتى اقتنع بأن محمود إسماعيل قد اعترف . .

واستدعى عبد الفتاح وشقيقه عبد الحميد ، وحمله الهلباوى على الاقتناع بأن اللعبه قد انتهت ، وأن الشئ الوحيد الذى يجب عمله هو الهرب

عن طريق الإسكندرية إلى طرابلس .

وكان هذا الأسلوب فى الهرب قد نوقش ، وأقر على أساس تنفيذه عند الضرورة ، وذلك قبل شهرين أى فى الوقت الذى قتل فيه السردار . .

وتم القبض على شفيق منصور وتفتيشه فى الساعة الحادية عشرة صباحاً ليبدو أن عملية القبض عليه قد تمت نتيجة للاعتراف المزعوم الذى قدمه محمود إسماعيل . .

١٣ – وقرر الأخوان عنايت التوجه إلى شفيق منصور ، لطلب مشورته . وعندما وصلا على مقربة من مكتبه شاهدا ما سبق أن أعددناه لهما ، إذ كان هناك شرطى يقف عند الباب ، مما زاد من خوفهما أكثر فأكثر . .

وتوجه الأخوان عنايت إلى منزلهما لاستطلاع الموقف حوله ، ولم يجدا أى شيء غير عادى . . وكان ذلك أيضاً جزءاً من الخطة ، فجمعا ملابسهما وذهبا إلى منزل محمود راشد ، وأخذا المسدسات الأربعة الأوتوماتيكية التى استعملت فى مقتل السردار ، ثم رقدا فى الفراش فترة قصيرة فى غرفة الهلباوى فى الفندق « المصيدة » وكان سليم زكى ينتظر فى الغرفة المجاورة . .

واستطاع الهلباوى أن يحدثه ببضع كلمات فى الممر ، وأن يقول له إن كل شيء يسير وفقاً للخطة الموضوعة .

وكان موعد تحرك قطار الإسكندرية فى الساعة السادسة والدقيقة الأربعين بعد الظهر ، فوصل عبد الفتاح عنايت وشقيقه إلى المحطة فى الساعة السادسة ، واستقلا القطار فى السادسة وخمس دقائق .

وانزعج « الغلام » الذى كان يتعقبهما ويراقبهما ، واتصل بإنجرام

تليفونياً من إحدى الصيدليات وقال :

– احضر بسرعة ومعك الكلابشات . . إنهما يهربان . .

وحاول إنجرام أن يهدئ من روعه ، ولكن « الصبى » لم يقتنع وأسرع فى تاكسى إلينا فى المكتب ، حيث أعدنا طمأنته بأن كل شيء على ما يرام . .

وما أن غادر القطار المحطة ، حتى قام البوليس بتفتيش منزل الشقيقين عنايت ، وتبعهما الضابط أحمد حمدى إلى الإسكندرية بالقطار التالى . ونزل – وفقاً للخطة – فى فندق مقابل للفندق الذى اختاره الهلباوى للهاربين .

١٤ – من الضرورى الآن إقناع الأخوين عنايت بأن البوليس يتعقبهما ، ولذلك عمدنا بواسطة أحد عملائنا ، إلى نشر خبر فى المساء نفسه – فى صحيفة عربية تصدر فى الإسكندرية – يفيد أنه قد ألقى القبض على الشقيقين عنايت فى القاهرة ، وأنه تم تفتيش منزلهما . وكان لابد من إعلان أنه ألقى القبض عليهما فى القاهرة ، خشية أن يبحث عنهما بوليس الإسكندرية ويقبض عليهما . .

ووصلت إلى الأخوين عنايت نسخة من الصحيفة فى الصباح التالى . . وشل الخوف حركتهما ، إلى حد أن الهلباوى عجز عن حملهما على مغادرة الفندق وركوب القطار إلى مريوط .

١٥ – ظل الهلباوى على اتصال بالضابط حمدى خلال اليومين الأولين ، ولكن نظراً إلى أن الأمور أصبحت صعبة ، فقد أرسلت إنجرام وسليم زكى إلى الإسكندرية بطريق الجو ، وبذلك نتفادى التعرف عليهم فى القطار . .

وكانت الخطة هي أن يرتدى الهاربان – الأخوان عنايت – ملابس البدو ، وأن يستقلا القطار – عن طريق خط سكة حديد مريوط – إلى بلدة الحمام ، حيث يستأجران سيارة تقلهما إلى السلوم ، ويهربان إلى طرابلس بمساعدة بعض مشايخ العرب السنوسيين .

وأراد الهلباوى أن نقبض عليهما فى محطة سكة حديد الإسكندرية – الرئيسية – أثناء تسلمه لتذاكر السفر . ولكننا لم نهتم بذلك ، لأننا كنا نتلهف بالتحديد على القبض عليهما ناحية الغرب ، أى فى منطقة مصلحة الحدود حيث يكونان خارج دائرة سلطة النيابة ، وبذلك يمكن احتجازهما لبعض الوقت ، دون أن يكون هناك أمر من القاضي بإعادتهما إلى السجن . .

واستعداداً للقبض عليهما فى نهاية خط سكة حديد مريوط عند الحمام ، غادر القاهرة – بالطريق الصحراوى – كل من الكابتن شتويند والبكباشى فيرمان من مصلحة الحدود يوم ٢٥ يناير ، مستقلين سيارة دورية خفيفة ، وانتظرا صدور أوامر اليهما من برج العرب .

١٦ – كان موعد الرحيل النهائى من الإسكندرية الساعة الثامنة من يوم الجمعة ٣٠ يناير ، ولكنهما أحجما عن السفر بدافع الخوف ، وفقدنا الاتصال بهما تماماً لأن الهلباوى لم يستطع تركهما . وتم إعداد عملية القطار المثيرة مرة أخرى ، فى اليوم التالى – السبت – وسط أمل متوهج فى أن يتمكن الهلباوى من إخراجهما .

وطلب إنجرام من بوليس الإسكندرية اثنين من البدو من عملاء البوليس ليركبا القطار ، وليجلسا إلى جانب الهاربين اللذين يرتديان – الآن – الزى العربي .

وكان سليم زكى أيضاً فى القطار ، وكانت مهمة العميلين البدويين هى مراقبة الأخوين عنايت ، حتى لا يلقيا بمسدساتهما خارج نافذة القطار لحظة القبض عليهما . .

١٧ – وقرر القائمقام شتويند – مساعد مدير سلاح الهجانة فى الحدود ، الذى كان ينظم عملية القبض عليهما – فى الدقيقة الأخيرة ، أنه من الخطورة بمكان القبض عليهما فى محطة الحمام عند نهاية الخط الحديدى ، لأن هذا هو يوم السوق ويوجد مئات من العربان هناك . .

وعلى ذلك انتقل إلى القاطرة فى المحطة الأخيرة السابقة لمحطة الحمام ، وأوقف القطار فى منتصف المسافة بين المحطتين فى مواجهة الكمين المؤلف من فيلق من الهجانة السودانيين .

وكان شتويند يحمل معه صور الأخوين عنايت ، وسرعان ما انقضت جماعته عليهما وعلى الهلباوى وأوثقت أيديهم ، بسبب خطأ يؤسف له . .

وفى الحقيقة فإن ذلك لم يكن بالأمر الهام ، لأن الهلباوى كان قد قرر بالفعل أن يعطى علامة ، إذا كانت هناك ضرورة لذلك . .

وعثرنا على الأسلحة تحت المقعد الذى كان الأخوان عنايت يجلسان عليه ، وكانت هذه الأسلحة قد وضعت فى ذلك المكان قبل أن يستقل البدويان – عميلا البوليس – القطار . .

١٨ – بعد ذلك تم نقل المسجونين إلى برج العرب ، حيث لحقت بهما صباح الاثنين .

وتظاهر عبد الفتاح عنايت بالجنون مدة يومين ، ووجدنا معه كمية من سلفات المانيزيا – الملح الإنجليزى – كان يمضغها ليدفع اللعاب خارج

فمه مثل المجاذيب . .

وقررت أننا لن نتمكن من إرغامها على الكلام هناك ، فسافرنا جميعاً يوم ٣ فبراير بالطريق الصحراوى ، فوصلنا إلى القاهرة بعد ٦ ساعات . .

ويبدو أن السجينين ظنا أننا سنطلق عليهما النار فى هدوء وسط الصحراء . . .

وفى القاهرة وضعنا كلا منهما فى زنزانة مستقلة فى مستودع ذخيرة سلاح الحدود فى الخانكة ، وبذلك ظللنا محتفظين بهما بعيداً عن سلطة النيابة . .

١٩ - وفى اليوم التالى قابل وزير الداخلية إسماعيل صدقى الملك أحمد فؤاد ، وحصل منه على وعد بالعفو المطلق عن الهلباوى ، بشرط أن يقدم بياناً كاملا عن كل ما يعرفه عن الجريمة . .

وفى اليوم التالى - الخميس - عكفنا على محاولة التأثير على عبد الفتاح عنايت ، ولكنه أبى الاعتراف بأى شيء، عدا أنه وشقيقه هربا تفادياً لوقوعهما ضحية اعتقال وقائى . .

٢٠ - ورأيت أنه قد حان الوقت لمواجهته بالهلباوى ، ولذلك استدعيت الهلباوى إلى خيمة المعسكر ليواجه عبد الفتاح .

وسئل عبد الفتاح عما إذا كان يعرف الهلباوى ، فأنكر أنه شاهده من قبل . .

فطلبت من الهلباوى أن يتحدث إليه ، وعندئذ أخبره الهلباوى أنه قرر أن يخدم بلاده عن طريق مساعدة السلطات على إثبات الجريمة على مدبريها ، ووجه إليه النصح ليتصرف مثله . .

سيطرت على عبد الفتاح حالة من الرعب يندر مشاهدة حالة مثلها

أبداً ، وتوسل لإصدار عفو مطلق عنه ولكنى رفضت ؛ وبعد وقت قصير بدأ يعترف . .

وبعد يومين أخذناه إلى النائب العام ، الذى أقنعه بأن يكرر اعترافه رسمياً .

وحتى هذه اللحظة ، لم يكن عبد الفتاح عنايت يعرف أن الاعتراف المزعوم الذى قدمه محمود إسماعيل لا وجود له . .

وبمساعدة عبد الفتاح تعرفنا على العامل الذى كان يعمل فى مصلحة التليفونات ، وواحد من العمال الحرفيين فى السكك الحديدية .

وخلال اليومين القادمين ستحقق النيابة مع عبد الحميد عنايت ، الذى ينكر كل شيء حتى الآن بحدة . . وليس من المستبعد أنه لا يصدقنا عندما نقول له إن شقيقه قد اعترف . .

٢١ – عندى أمل كبير فى أن تتمكن النيابة من انتزاع اعتراف من عبد الحميد ، فمن المؤكد أنه سيكون من الصعب عليه أن يصمد أمام تقارير الضابط حمدى ، الذى شاهده وسمعه يتحدث مع الهلباوى فى الفندق يوم ٤ يناير . .

وأمام النيابة كمية هائلة من العمل قبل أن تحال القضية إلى المحكمة ، إذ سيكون لدى كل واحد من المتهمين دليل مزيف على وجوده فى مكان آخر وقت اغتيال السردار . . وقد أعد كل منهم هذا الدليل بعناية منذ وقوع الجريمة . .

والحقيقة أنه توجد فى جعبتى بعض المفاجآت لهم ولمحاميهم ، ستظهر فى المحكمة . .

إن بعضهم يكتب الآن رسائل سرية لتهريبها من داخل السجن ، عن طريق سجان اختير خصيصاً لذلك . وبعض هذه الرسائل يحتوى على تعليمات وأدلة مزيفة جديدة على وجود المتهم فى غير مكان الجريمة . . وقد تم تصوير هذه الرسائل بواسطتنا ، وأرسلت إلى العناوين المطلوب إرسالها إليها . . وكم سيكونون غاضبين عندما يكتشفون أنهم إنما كانوا يربطون الحبل حول أعناقهم . .

٢٢ – أشرت من قبل إلى أن عبد الحميد عنايت كان يتحدث مع الهلباوى حول قصة ضابط بوليس سابق اسمه مصطفى حمدى ، وجاء فى تلك القصة أن حمدى وآخرين كانوا يتدربون على إلقاء القنابل فى صحراء حلوان عام ١٩١٩ ، وأن حمدى نسف رأسه ودفن فى المكان نفسه هناك .

وكان عندى أمل كبير فى العثور على هذه الجثة فى وقت من الأوقات ، لأن عبد الحميد كان قد وعد الهلباوى بأن يطلعه على المكان . . ولكن بعد جولة بحث فى الصحراء لبعض الوقت ، قال عبد الحميد للهلباوى إنه نسى المكان . .

وكانت خطتنا أن يلقى الهلباوى بعض الزهور على القبر . وكان دورى هو إرسال قصاصى الأثر على الفور ، بعد أن يبلغنى الهلباوى أنه رأى القبر .

وإذا استسلم عبد الحميد فسوف نعثر على القبر ، أو قد أجده بدونه . . وهذه مسألة بالغة الأهمية ، لأننا سوف نثبت أن مبلغ ٢٠٠ جنيه مصرى قد أرسل عن طريق الوفد إلى والدة مصطفى حمدى كتعويض عن وفاة بطل قومى . .

وبالاضافة إلى العمل الذى سيضطلع به البوليس فى القضية ، فإن

شهادة خبير الطب الشرعي – الدكتور سيدنى سميث – ستكون مثيرة لأقصى درجات الاهتمام .

٢٣ – وفى مكان الجريمة عثر البوليس على أغلفة لخراطيش فارغة لمسدس أوتوماتيكى ٣٢ ، وظهر تحت الميكروسكوب أن هناك بعض الخدوش الواضحة على اثنين من هذه الخراطيش الفارغة

ومن المسدسات التى تم ضبطها فى الحمام مع الأخوين عنايت كان هناك مسدس أوتوماتيكى ٣٢ من طراز يسمى (شوريتى) أى الأمان . . وعندما ينطلق الرصاص من هذا المسدس يترك نفس العلامات بالضبط على الخراطيش الفارغة . .

وكانت إحدى الرصاصات التى أخرجت من جثة السردار رصاصة أوتوماتيك ٣٢ ، وتحمل علامة أحد الأخاديد التى نشأت عن سلسلة من « الحزوز » فى قناة المسدس . .

ومن بين المسدسات التى عثر عليها فى الحمام كان هناك مسدس أوتوماتيكى ٣٢ توجد بداخله على اليسار خمسة « حزوز » ، وأطلقت منه بعض رصاصات فوجد أنها تحمل العلامة المميزة نفسها ، وكان منها « حز » واحد فقط واضحاً كل الوضوح ، وهذا يرجع إلى أن هذه المسدسات قديمة ومستهلكة .

وكانت بعض الرصاصات التى نزعت من أجسام الضحايا مقطوعة بالعرض من طرفها الأعلى ، لجعل الرصاصة أكثر قدرة على الامتداد والانتشار ، وهو نفس القطع المستعرض الذى وجد فى الذخيرة المضبوطة . أما الأدوات التى تستخدم فى هذا العمل فقد عثر عليها فى منزل محمود راشد .

٢٤ – وساعد البوليس مساعدة ضخمة فى هذه القضية موقف إسماعيل صدقى باشا وزير الداخلية الذى أعطى البوليس حرية حركة مطلقة ، وموقف طاهر نور باشا النائب العام .

وكانت السرية هى المسألة الجوهرية الأولى .

وحدث ضغط من كل اتجاه – بما فى ذلك القصر – لمعرفة حقيقة ما يجرى فى هذه المسألة ، ولكن عمل البوليس والنيابة ظل فى طى الكتمان الشديد ؛ وأعتقد أن هذا الجو من السرية حدث لأول مرة فى التاريخ المصرى .

ولكى تتحقق هذه السرية أكدت إصرارى على ضرورة الاحتفاظ بالمتهمين بين أيدى ضباط البوليس الإنجليز التابعين لى ، والكونستبلات الإنجليز كسجانين . وهذا ما تم تنفيذه ، وكانت النتيجة رائعة .

وراهننى الهلباوى – الذى عرف السجون معرفة وثيقة خلال ١٠ سنوات – على أنه سيبعث برسالة مكتوبة ، ويتلقى الرد عليها من أى مسجون أود أن أحدد له اسمه فى أى سجن مصرى خلال ٤٨ ساعة ، ولما كنت على علم بما يجرى فى السجون فإنى لم أقبل الدخول معه فى الرهان . .

٢٥ – عندى أمل كبير فى أن يؤكد التحقيق الصلة بين النقراشى وكيل وزارة الداخلية السابق وأحمد ماهر وزير المعارف السابق والشيخ مصطفى القاياتى ، وبين جرائم القتل السابقة ، وربما يتوغل فى الماضى أكثر وأكثر . .

يبدو أن قتل السردار كان من تخطيط شفيق منصور دون علم الوفد ، وكان لشفيق منصور يد فى جميع الجرائم السياسة منذ سنة ١٩٠٨ . .

وعلى ذلك كان لابد أن تكافئه الوزارة الزغلولية ، وقد وعدته بمنصب

المدير العام للأمن العام . ولما لم ينفذ زغلول وعده ، بلع مرارته واضطلع وحده بعملية اغتيال السردار . .

إن شرحاً كاملا للمصاعب التى تعترض طريق عمل البوليس السياسى فى هذا البلد سيستغرق وقتاً طويلا . .

وإذا سار كل شىء سيراً حسناً ، فإن الفضل الرئيسى سيرجع إلى الهلباوى ، لشجاعته فى التقدم إلى الأمام على النحو الذى يفعله . .

إنه شخصية فريدة وينبغى تقديم الرعاية له لعدة سنوات . .

٢٦ – الشخصية التى تلى الهلباوى هى أهم شخصية فى الخطة ، وصاحبها هو سليم زكى . .

وكان سليم زكى ملازماً أول صغيراً وبلا أهمية فى بوليس بورسعيد ، وقد أسره العرب حينما كان فى دورية فى أثناء زحف الأتراك على القناة .

وظن الأتراك سليم زكى شخصاً ليناً ، ولكنهم سرعان ما اكتشفوا أنهم أمسكوا بنمر فتى . .

وقد رفض سليم زكى أن ينقلب علينا ، ولهذا السبب أمضى ٣ سنوات فى سجون تركيا مع الضباط البريطانيين ، وأرغمه الأتراك على السير على الثلج إلى سيفاس (فى تركيا) ضمن محاولاتهم لتحطيم معنوياته ، ولكن ذلك لم يحطم سليم زكى . .

وبعد الهدنة عاد إلى مصر فى صيف عام ١٩١٩ وعين فى بوليس القاهرة ، وغالباً ما كانت عصابة القتل تلاحقه ، ولكنها أخفقت فى الوصول إليه لحسن حظه . .

وحاولت وزارات متعددة تحطيمه ، ولكنى – لحسن الحظ – كنت

قادراً على إنقاذه . .

إنى لا أعرف مصرياً فى شجاعة سليم زكى وصلابته وإخلاصه للإنجليز . إنه يعرف شعبه ويدرك أن إنجلترا هى الأمل الوحيد لهذا الشعب . .

وقد عمل الضابط الشاب الملازم الأول أحمد حمدى بطريقة حسنة جدا ، وقدراته العقلية أكبر من قدرات سليم زكى ، وهو رائع مثله ، ولكنه ليس ذلك السلك المشحون بالتيار الكهربائى ، وهى الصفة التى تتوافر فى سليم زكى . .

٢٧ - ثمة درس واضح ماثل فى ذهنى ، وهو أن الهلباوى لم يكن ليتقدم بمعلوماته على الإطلاق لأى شخص آخر غير المسئولين البريطانيين الذين أتشرف بأن أعتبر سليم زكى واحداً منهم » ! ..

وبهذا ينتهى تقرير توماس راسل باشا ، الحكمدار الإنجليزى لبوليس القاهرة فى ذلك الوقت . .

هل كان للوفد جناح فدائى ؟

كان كثيرون من الإنجليز لا يشكون فى أن الوفد كان يوجه أعمال بعض الجماعات الفدائية ، وكذلك كان هناك نفر من المصريين يؤكدون أن للوفد جناحاً سرياً ينظم نشاط الفدائيين أو يقوم بجزء منه .

وهنا كانت تطفر أسماء أحمد ماهر ومحمود فهمى النقراشى ومحمد حلمى الجيار ومن إليهم من شبان الوفد المتطرفين فى نشاطهم وعملهم السياسى . .

وهناك أيضاً من يظنون أن عبد الرحمن فهمى كان عضواً فى ذلك

الجناح ، وربما رئيسه . .

ومن المستبعد الآن أن يكون عبد الرحمن فهمى من رجال العنف واللجوء إلى الاغتيال السياسى ، وإن كان اتجاهه – أول الأمر – متطرفاً . .

ولم يكن عبد الرحمن فهمى – على أى حال – وفدياً مخلصاً إلا فترة قصيرة جداً ، ومن الواضح أنه لم يكن هناك ود كبير بينه وبين سعد زغلول . .

ولكن أحمد ماهر والنقراشى كانا من شباب سعد المخلصين له دون شك ، وكانا كذلك يمثلان جناح الشباب المتطرف .

ولهذا كانت الأنظار تتجه إليهما كلما وقع حادث اعتداء . .

وكانت السلطات البريطانية تسارع إلى اتهامهما ونفراً من شباب الوفد ورجاله المتطرفين فى ذلك الحين ، مثل الشيخ مصطفى القاياتى وفخرى عبد النور والدكتور نجيب إسكندر وحسن ياسين وغيرهم ، ولكنها كانت تفرج عنهم فى كل حالة لعدم ثبوت أى صلة لهم بالعمل الفدائى . .

والحقيقة أن الوفد كان حزب محامين يكثر بين أعضائه رجال القانون ، وكان سعد نفسه أبعد الناس عن العنف الدموى ، وإن كان يسره – قبل وصوله إلى الوزارة على الأقل – أن تستمر أعمال الفدائيين حتى يتحرج موقف خصومه ممن كانوا يتولون وزارات السراى والاحتلال . . وقد سبق أن ذكرنا مناقشة بينه وبين فريق من الشباب المنتسبين إلى جماعات فدائية ، وهو حديث يتجلى فيه ذكاء سعد وحرصه . .

ومن المؤكد أن سعداً كان يعرف الكثير عن الفدائيين ، ولكنه كان يطوى هذه المعلومات فى نفسه . وكان إفراجه بعد توليه الوزارة – عن

المسجونين الذين اتهموا بأعمال فدائية ، دليلا على معرفته ببعضهم وتقديره لأعمالهم .

وكان سعد – عندما وصل إلى الزعامة – شيخاً ، وظل مزاجه طوال حياته السياسية مزاج شيوخ ، والوفد – على أيام سعد – كان حزب شيوخ قبل كل شيء ، والشيوخ لا يميلون إلى العنف والاعتداء .

ولهذا لم يدخل الشبان فى وزارته إلا عندما اشتد الضغط عليه من جانب السراى والإنجليز ، بعد إخفاق مفاوضاته مع ماكدونالد وعودته إلى مصر فى أكتوبر ١٩٢٤ . .

هنا نجده يدخل تعديلا على وزارته – بعد استقالة محمد سعيد ومحمد توفيق نسيم – فيدخل فيها أحمد ماهر وزيراً للمعارف ، ومحمود فهمى النقراشى وزيراً للداخلية ، وكان قبل ذلك وكيلا لمحافظة القاهرة .

ولو كان لاشتراك أحمد ماهر والنقراشى فى أى نوع من الأعمال الفدائية أدنى ظل من الحقيقة ، لاعترضت السراى بإيعاز من الإنجليز . . على دخولهما الوزارة . .

والخلاصة أننا لا نملك قرينة واحدة تؤيد وجود جناح فدائى للوفد . لقد كان الوفد حزباً سياسياً يعتمد على الأساليب السياسية السلمية ، كالمفاوضة وكتابة المذكرات وإلقاء الخطب والدفاع عن المتهمين السياسيين فى المحاكم ، وهو لم يعرف العنف فى أساليبه أبداً ، وكان شديد الميل إلى التمسك بالقانون . . ربما لأن سعداً نفسه كان رجل قانون . .

وأعتقد أن ملكة سعد القانونية كانت تفوق ملكات أقطاب التشريع فى عصره – وهو عصر القانونيين والمشرعين . ومهما تقرأ فى كتابات

عبد العزيز فهمى والدكتور عبد الحميد أبو هيف وعبد الخالق ثروت وتوفيق دوس ومن إليهم ، فإنك لا تجد فى كلامهم تلك اللمحات الرائعة التى توجد دائماً فى كل ما يصدر عن رجل فوق المستوى . .

* * * *

إلى هنا أقف بالكلام عن حركة الفداء المصرية فى أثناء سنة ١٩١٩ وما تلاها من سنوات .

وكلامى فى هذا لا يزيد عن أن يكون مقدمة ومدخلا ، أو فتحاً لباب البحث فى موضوع عظيم الأهمية كهذا . .

ولا يزال نفر من رجال الفداء أحياء بيننا ، فلماذا لا يكتب كل منهم ما عنده حتى تزيد حصيلتنا من المعلومات ؟

وهناك أيضاً كثيرون ممن حضروا تلك الحوادث وعرفوها بصورة أوفى وأدق مما وصل إلينا ، فلماذا لا يكتبون ؟

حسبى أننى كشفت النقاب عن جانب هام من جوانب كفاح مصر للاستقلال كان مهملا إلى الآن . .

حتى عبد الرحمن الرافعى لم يكتب عن الفدائيين المصريين فى كتابه إلا بعد اعتذار ، وكلامه فى هذه الناحية إحصاء وتحصيل يدلان على أنه لم ينتبه قط إلى أهمية العمل الفدائى . .

وأشعر الآن ، وبعد أن درست هذه الناحية ، أننى أضفت بعداً جديداً إلى تاريخ جهاد مصر للاستقلال : بعد القتال المسلح ومواجهة ال بسلاحه ، والتضحية بالنفس فى سبيل الوطن دون هيبة ولا وجل .

إلى جانب القانونيين والزعماء السياسيين ، كان هناك المقاتلون الذين

قدموا أنفسهم رخيصة فداء للوطن ، وكانوا كثيرين جداً ، ومخلصين جداً .

قاتلوا فى بسالة ، وقاموا بأعمالهم دون معاونة من احد ، فلم تكن هناك دول أو هيئات تؤيدهم بمال أو سلاح .

سلاحهم أخذوه من الإنجليز ، أو صنعوه باجتهاد الشباب المتحمس ، ومالهم دبروه بأنفسهم . . وقد استطاعوا – بفدائيتهم – أن يذلوا الجبار ، ويخيفوا الطاغية ، ويزلزلوا عرش السلطان . .

. الفصل الثالث

الأقباط وثورة ١٩١٩

هذه هى السلسلة الثالثة من الدراسات عن ثورة سنة ١٩١٩ ، أخصصها هذه المرة لموضوع الأقباط ونصيبهم فى هذه الثورة المجيدة .

ولست أزعم أننى أكشف هنا النقاب عن ذلك الدور ، فهو واضح للعيان ولا يحتاج من مثلى إلى بيان . ولكنه يحتاج إلى تجميع المعلومات عنه بعضها إلى جانب بعض فى صعيد واحد ، حتى يأخذ المؤرخ فكرة متكاملة بعض الشيء، عن الدور العظيم الذى قام به الجناح الثانى لشعب مصر – الأقباط – فى ثورة سنة ١٩١٩ ، وما أبداه رجاله من بسالة وإخلاص وصدق نظر وحب لمصر عميق .

وأصارح القارىء بأنى تعبت فى إعداد هذه الدراسة بالذات أضعاف تجشمت فى غيرها من الدراسات ، فإن المعلومات عن أبطال ثورة ١٩١٩ من الأقباط قليلة ومتناثرة ، وإخواننا الأقباط يبدو أن التواضع يغلبهم فلا يكتبون عن أنفسهم ، مع أن ذلك واجب قومى ، فنحن بحاجة إلى أن نعرف الكثير عن سينوت حنا وويصا واصف ومكرم عبيد وغيرهم ، ممن كان لهم النصيب الكبير فى هذه الثورة .

وإنه لمن الغريب أننى لم أجد عند أحد ممن اتصلت بهم من إخوانى الأقباط معلومات وافية ، بل إن قلة معلومات بعضهم كانت تثير العجب فى نفسى ، ولهذا فإننى أرجو القارئ أن يصفح عما عسى أن يصادف من خطأ

أو قصور وقعت فيه فإن الذنب ليس ذنبي فى معظم الحالات ، وما أنا إلا مؤرخ ، والمؤرخ لا يستطيع أن يكتب إلا على قدر ما تساعفه به مراجعه ، وهو لا يستطيع أن يبتكر أو يخترع ، بل لا تسمح له قواعد علم التاريخ أن يستنتج إلا بالقدر الذى تأذن له فيه المراجع التى بين يديه .

لهذا فإننى أرجو القارىء أن يعتبر هذه الصفحات مجرد مقدمة ، أو مجرد فتح لباب البحث فى هذا الموضوع ، وأن يستجيب لرجائى ويتحمس وينهض ليكتب ما لديه لو كان لديه شيء يكتبه ، فإننا فى أشد الحاجة إلى ما عنده وإن تصور هو أنها معلومات متواضعة .

وأرجو كذلك أن يعتبرها تحية لأقباط مصر ، من مؤرخ مصرى أحب مصر وكل من فيها وكل ما فيها بكل قلبه ووجدانه . والله يعلم أننى ما أقدمت على هذه الدراسات إلا بدافع الحب لمصر ، والرغبة فى خدمة تاريخها ، ولو بالقدر اليسير الذى تيسر لى . .

(١)

معاً ، خرجنا من الظلمات إلى النور . .

الدين لله والوطن للجميع

أغسطس ١٩٥٦ . .

أزمة القناة على أشدها . .

مضت أسابيع قليلة على تأميم القناة . الغضب يغلى فى الغرب كله ، ورياح الحرب والعدوان تهب من بعيد ، ومن قريب أيضاً . .

الأنظار كلها متجهة نحو زعيم مصر الباسل الذى انتزع حق بلاده من بين فكى الأسد . .

ونحن فى المؤتمر الصحفى الضخم الذى عقده بطل المعركة جمال عبد الناصر فى دار الأوبرا بالقاهرة . .

نحو أربعمائة صحفى من شتى نواحى العالم ، جاءوا ليسمعوا صوت الرجل الذى هز الدنيا . .

وأخذت مكانى بين المترجمين فى سكرتارية المؤتمر ، لأترجم عن نفر من الصحفيين أتوا من أمريكا اللاتينية ، كانوا أربعة من المكسيك وكوبا وفنزويلا والأرجنتين . .

وتبينت أنهم جميعاً يعرفون الإنجليزية ، وأنهم يفضلون توجيه أسئلتهم بها ، وهكذا أعفونى من العمل ، وتركوا لى فرصة متابعة النقاش فى المؤتمر

وأنا على ثلاثة أمتار من عبد الناصر . .

أذكر أن المؤتمر دام ما بين ثلاث ساعات وأربع . . معركة حامية . . جلس فيها ذلك البطل الشاب يجيب على وابل من الأسئلة فى ذكاء وسرعة وحماسة وحضور ذهن ، وبلاغة أيضاً . .

وانتهى المؤتمر ، واندفع الصحفيون نحو عبد الناصر ليصافحوه ويروه عن قرب . .

وأبرقت مصابيح المصورين . .

واندفعت معهم ، ومعى الصحفى الفنزويلى . .

وابتسم الرئيس لهذا الشاب الذى أراد أن يعانقه ، فتشجع الشاب وقال :

– عندى سؤال يا سيدى الرئيس ، ولكنى أخشى أن يكون خارجاً عن موضوع أزمة القنال . .

– اسأل عما تريد . .

– هل صحيح أنكم أمرتم ببناء كنيسة ؟ . .

فنظر إليه الرئيس ملياً ثم سأله فى ذكاء :

– هذا السؤال من عندك ؟ . . أقصد : لماذا تسأل ؟ . .

– إنه ليس من عندى . . إنه ضمن الأسئلة التى طلبت منى جريدتى « لاناثيون = الأمة » أن أوجهها إلى سيادتكم . . (وقرأ من ورقة :) هل أمر الرئيس عبد الناصر ببناء كنيسة ؟ . .

فابتسم الرئيس وقال :

– كنيسة واحدة ؟ . . ولماذا واحدة فقط ؟ . . هذا بلد المصريين :

مسلمين ومسيحيين ، من مئات السنين ؛ والدولة ليس لها أن تصرح أولا تصرح ببناء مساجد أو كنائس . . من يُرِد أن يبنى مسجدا فليبن مسجداً ، ومن يرد أن يبنى كنيسة فليبن كنيسة . . فالمسجد مصرى والكنيسة مصرية . . نحن نقول : الدين لله والوطن للجميع . . هذا أحد شعاراتنا . . ألم تقرأ هذا الشعار ؟ . .

– تقصدون أن سياستكم الدينيـة تقوم على المساواة بين المسلمين والمسيحيين ؟

– ليست لنا سياسة « دينية » . . سياستنا « مصرية » ، وهذا يكفى . . وأعداؤنا الذين يهددون بإعلان الحرب علينا إنما يهددوننا جميعاً : مسلمين ومسيحيين . . والعرب الذين طردهم الإسرائيليون من بلادهم مسلمون ومسيحيون . . هل يكفيك هذا الرد ؟ . .

– كل الكفاية . . أشكركم جداً . .

وانصرف الرئيس عنه . .

وأخذ الصحفى يكتب فى سرعة كل حرف قاله الرئيس . .

وتقدم منه أحد موظفى الاستعلامات قائلا إنه مستعد لإعطائه بيانات أكثر ، فقال الشاب :

– شكراً . . هذا يكفى . .

* * *

ذكرت هذا الحديث وأنا أقرأ كتاب « قدرى قلعجى » عن سعد زغلول وأقف فيه عند العبارة التالية : « وكان سعد أول رئيس وزارة اختار « أفندية »

ليكونوا وزراء معه ، وأول رئيس اختار اثنين من الأقباط ليكونا وزيرين فى وزارته » . .

ولما قيل له : إن التقاليد قد جرت بأن يكون فى الوزارة قبطى واحد ، قال : « هذه وزارة الثورة ، وعندما كان الإنجليز يطلقون علينا الرصاص لم يراعوا نسبة الأقباط إلى المسلمين ، وعندما كانوا ينفوننا إلى سيشل لم يراعوا هذه النسبة ، فقد كنا أربعة مسلمين واثنين من الأقباط ؛ وعندما حكموا على أعضاء الوفد بالإعدام لم يراعوا النسبة أيضاً ، فقد كانوا ثلاثة أقباط وأربعة مسلمين . . »

شيء يستوقف النظر : عبد الناصر وسعد زغلول يتكلمان بلسان واحد . .

قال عبد الناصر : « وأعداؤنا الذين يهددون بإعلان الحرب علينا إنما يهددوننا جميعاً : مسلمين ومسيحيين ؛ والعرب الذين طردهم اليهود من بلادهم مسلمون ومسيحيون . . »

حقاً ، إن قادة التحرير فى مصر يتكلمون بلسان واحد . .

لأنهم يعرفون حقيقة بلادهم أكثر من غيرهم . .

وهم لا يتكلفون هذا الكلام . . إنه يصدر من أعماقهم من تلقاء نفسه . . والمصرى الصادق الذى يعرف مصر ويحب مصر لا يفكر كمسلم أو كقبطى . . بل كمصرى ، وهذا – بالضبط – هو ما قاله عبد الناصر فى أول كلامه مع ذلك الصحفى من فنزويلا . .

والأقباط يقولونه قبل المسلمين . . لأنهم يعرفون أن من يتكلم بلسان غير هذا لا يمكن أن يكون قبطياً مخلصاً . .

وذكرت هذا الحديث مرة أخرى وأنا أقرأ الكتاب الممتع الذى كتبه

محمد سيد كيلانى عن « الأدب القبطى قديماً وحديثاً » ، وهو كتاب قيم أفدت منه أعظم الفائدة فى إعداد هذه الدراسات .

العبرة من قصة رجل ضل الطريق . .

وقبل ١٧٥ سنة – عندما كانت مصر لا تزال فى ظلامات العصور الوسطى ، وبالكاد تفتح عينيها على نور النهضة – وقف أقباط مصر صفاً واحداً أمام رجل مسكين خدعه الفرنسيون عندما غزوا مصر سنة ١٧٩٨ . .

ذلك كان المعلم يعقوب أو الجنرال يعقوب . .

لقد خدعه ضابط فرنسى يسمى لاسكاريس – ويلقب بالفارس – فأوهمه بأن ينضم إلى الفرنسيين ، وينشئ فرقة من الجنود الأقباط تكون جزءاً من الجيش الفرنسى ، وبهذه الفرقة يستطيع أن يحكم مصر بتأييد من فرنسا .

وفعلا أنشأ يعقوب فرقته ، ولكن لم ينضم إليه من الأقباط إلا عدد قليل جدًّا ، فاستكمل تكوينها من المالطيين والأرمن والقبارصة والأروام ومن إليهم . .

ويسخر الجبرتى من المعلم يعقوب سخرية قاسية . .

وكذلك يسخر منه الفرنسيون أيضاً ويسمونه الجنرال يعقوب ، مع أن المسكين لم يحصل إلا على رتبة « صول » فى أيام كليبر . .

وكان يسمى نفسه « صارى عسكر القبطة » أى قائدهم الأعلى . .

وتبرأ منه سائر الأقباط ، ولعنه البطرك وكبار رجال الكنيسة . .

فما كان من هذا الضال إلا أن اقتحم الكنيسة بحصانه شاهراً سيفه . .

وسار فى طريق الغواية ، فعاشر امرأة دون زواج ، وجعل يسير معها

فى الطريق ، فرماه الأقباط بالحجارة ، واضطروه إلى الخروج من الفجالة ، فسكن فى بيت عند الأزبكية . .

وعندما خرج الفرنسيون من مصر ، ذهب معهم . .

وفى فرنسا عاش منبوذاً وحيداً . . ومات فى مرسيليا فقيراً محروماً . .

وعاد الصفاء – كما كان – بين أهل مصر جميعاً . .

لأن الصفاء لابد أن يسود بين أهل مصر ، لكى تستطيع مصر أن تسير فى طريقها الذى رسمه الله لها . .

وفى هذا العالم ، مصر هى البلد الوحيد الذى لا يعرف تاريخه الفتن الطائفية . لم تثر فيها الفتنة مرة واحدة : إذا بدت لها طلائع من ناحية المسلمين سارع المسلمون أنفسهم إلى إطفائها ، وإذا بدت من ناحية الأقباط سارع الأقباط أنفسهم إلى إخمادها . .

وما هذه بتصورات ولا أمانى خادعة ، وأمامك تاريخ مصر فاقرأ فيه كما تشاء ، وائتنى – إن وجدت – بفتنة واحدة يحسب لها حساب . .

وأقرأ فى هذا الكتاب المبدع الذى كتبه الدكتور جمال حمدان عن «شخصية مصر» لتعرف أن مصر نسيج واحد : سداه مسلمون ولحمته أقباط . .

تاريخ ناصع لا تشوبه طائفية

ولكى يزداد إحساسك بهذه النعمة ، انظر فى تواريخ الأمم الأخرى تجدها غارقة فى الفتن الطائفية . .

فى ألمانيا : لديك الفتنة البروتستانتية التى قسمت البلاد طائفتين ، إلى يومنا هذا . .

وفى فرنسا : عندك فتنة الكاثوليك والهوجونو – وهم بروتستانت فرنسا – وهى فتنة طويلة حافلة بالدماء . .

وفى إنجلترا : لديك فتنة الرومان الكاثوليك والأنجليكان ، وفتن الكويكرز ، وعشرات الفتن الدينية الأخرى مما لا نزال نقرأ أخبارها إلى اليوم . .

وفى إسبانيا : هناك حروب الإسلام والنصرانية ، وما أعقبها من مآسى ديوان التحقيق وفظائعه ، وما أدى إليه ذلك من انهيار إسبانيا بضعة قرون . .

وفى الهند : أنت تعرف المأساة الطويلة التى نتج عنها تقسيم الهند إلى دولتين ثم إلى ثلاث ، والهند – فى الحقيقة – ميدان حروب دينية لا تنتهى . . .

وفى مصر ؟ . .

ولا مرة واحدة . .

نعمة . . لا ينكرها إلا جاهل بحقيقة مصر ، أو لا يحبها . .

فأما الجاهل بحقيقة مصر فمثاله بعض سلاطين المماليك الذين سور لهم جهلهم أن يمدوا يد الأذى إلى الأقباط . .

وأذى المماليك – على أى حال – امتد إلى الجميع : مسلمين وغير مسلمين . . وهم لم يحبوا مصر أبداً . .

وأما الذى لا يحب مصر ، فمثاله ذلك المعلم يعقوب ، أو الجنرال يعقوب . .

وهؤلاء جميعاً ذهبوا إلى خالقهم ليحاسبهم على ما فعلوا . .

وبقى دائماً على أرض مصر الطيبة الصالحون من أهلها ، الصالحون من

المسلمين والصالحون من الأقباط . .

هؤلاء – معاً ، يداً واحدة – نهضوا بثورة ١٩١٩ . .

وهؤلاء – معاً ، يداً واحدة أيضاً – نهضوا بثورة يوليو ١٩٥٢ التى جعلت رمزها : الدين لله والوطن للجميع . .

وهؤلاء – معاً – رددوا قول شوقى ، ذلك الملهم الذى أحس نبض قلب مصر وجرى شعره على وقع هذا النبض :

أعَهِدْتَنَا والقبطَ إلا أمــة للأرض واحــدة تروم مرامـا
نُعلى تعـاليم المسيح لأجلهم ويوقِّـرون لأجلنـا الإسلاما
الدينُ للـديّان جـل جلالُه لو شاء ربُّك وحَّـد الأقواما

وسنلمس الدليل من الماضى القريب

ولنعد إلى الوراء قليلا . . لنقلب معاً صفحات ثورة ١٩١٩ لنرى كيف وقفنا – معاً ، صفاً واحداً – أمام المحتل الغاصب ، فزعزعنا أركان الاحتلال والاستعمار ، وفتحنا لبلادنا أبواب الحرية واسعة . .

ولو لم نقف معاً فى ذلك الاتحاد المقدس ، لما تزعزع استعمار ولا زال احتلال ، ولكنا – إلى اليوم – أسرى فى الأغلال . .

ومهما تصورنا قوة إسرائيل – عدو الإسلام والنصرانية معاً – فهى لا تقاس إلى جزء من قوة بريطانيا سنة ١٩١٩ ، تلك المنتصرة الشامخة بأنفها التى كانت تسود الدنيا حقيقة لا مجازاً . .

وإسرائيل التى تسعى لإثارة الفتنة بيننا اليوم – لن تنجح فى ذلك قط ، وسيهزمها اتحادنا كما هزم بريطانيا وهى أقوى منها مئات المرات . .

وبين الإسرائيليين من الحزازات والخصومات والطائفيات ما يفوق ما يوجد فى أى أمة على وجه الأرض . .

ولو تُرك بعضهم لبعض لافترس بعضهم بعضاً . .

ولكنهم فى مواجهتنا يتحدون . .

واتحادهم هو الذى يجعل منهم بهذا الشبح الماثل . .

كما كان اتحادنا سنة ١٩١٩ ذلك الصرح الهائل . .

فهل يتحدون وتختلف ؟ . .

وهل يدوسون أحقادهم ونجعل نحن خلافاتنا تدوسنا ؟ . .

اللهم لو فعلنا لما استحققنا نسمة من هواء مصر ، ولا شربة من مائها ، ولا قبضة من ترابها . .

وإسرائيل – إذا تمكنت – فهى لن تبقى على مسلم ولا نصرانى . .

وأمامك ما يصنعون فى القدس وفى كل فلسطين . .

والقرى التى ينزلون بأهلها المذابح كل يوم ، يعيش فيها نصارى ومسلمون . .

وأمريكا – التى يقولون إنها نصرانية – لا تستطيع حيال اليهود شيئاً . بل إن إسرائيل تستخدمها لإشاعة الفتنة بيننا ، و « صوت أمريكا » و « بريد أمريكا » هما اللذان يحملان إلى أرضنا بذور الفتنة العمياء . .

وكما قال سعد : إن رصاص الإنجليز لم يفرق بين قبطى ومسلم ، فإن نار اليهود والأمريكيين لا تبقى على مسلم ولا نصرانى ، وهى تهدم الجامع والكنيسة معاً . .

ولن يجدى يومها ندم ولا عض بنان . .

لأن المخدوع لن يعيش حتى يندم . .

والخاطئ من النصارى لن يجد يومها السيدة العذراء يجثو أمامها لطلب الغفران . .

والمذنب من المسلمين لن يجد الجامع يطلب فيه من الله التوبة . .

افتحوا عيونكم أيها الناس ، واذكروا قول شوقى أيضاً :

يا قوم ، بان الرشدُ فانسوا ما جرى
وخذوا الحقيقةَ وانبذوا الأوهاما
هذى ربوعكم ، وتلك ربوعنا
متقـــابلين تعـــالج الأياما
هذى قبوركم ، وتلك قبورنا
متجـــاورين جماجماً وعظاماً
فبحرمـة الموتى وواجب حقهم
عيشوا–كما يقضى الجوار–كراما . .

الإنجليز يشعلون نار الفتنة . .

ومتى قال شوقى ذلك ؟ . .

فى فترة حالكة السواد قبيل ثورة ١٩١٩ . .

كانت تلك هى الأيام العصيبة التى ساد مصر فيها ثلاثة من عتاة الاستعماريين : إيفلين بيرنج المعروف باسم لورد كرومر ، ثم إلدون جورست ، وأخيراً هوراشيو كتشنر . .

فأما كرومر فكان يؤمن إيماناً عميقاً بأن الإنسانية هرم قمته الإنجليز ،

ثم تتدرج تحتهم الأمم حتى نصل إلى القاعدة أسفل الجميع ، وتتكون من العرب والمصريين والهنود والسود وبقية أهل الأرض . .

وكان يحكم مصر ، ويعامل المصريين جميعاً ، على هذا الأساس . .

وكان من رأيه أن أى وزير مصرى ينبغى أن يسير بحسب ما يملى عليه أصغر موظف بريطانى فى وزارته ، وكان الذى رسم له هذه السياسة هو اللورد دوفرين Duffrin قنصل إنجلترا العام فى الآستانة ، وكان فى ذلك الحين المخطط الأكبر لسياسة بريطانيا فى عالم العرب . .

وكان كلاهما يستند فى تفكيره إلى تقرير مشهور كتبه السير جون بوارنج Sir John Bowering رسم فيه صورة قاتمة لمصر والمصريين ، واتخذه رجال الإدارة البريطانية دستوراً ثابتاً . .

نصح دوفرين الإنجليز بالاعتماد على الأقباط فى حكم مصر . وهو لم يقل ذلك حباً فى الأقباط ، بل حباً فى بريطانيا وحدها . وكما نفر المصريون من كلام دوفرين وسياسة تلاميذه ، أنكرهما الأقباط . ولم يسر فى الخط الإنجليزى إلا رجال قلائل ، منهم بطرس غالى باشا . .

ولم يتحمس لبطرس غالى أحد من عقلاء الأقباط . .

واجتهد الإنجليز فى أن يتخذوا من ذلك الرجل شجى فى خلق مصر كلها . .

ثم جاءت حادثة دنشواى قرب شبين الكوم فى المنوفية . .

وأمر اللورد كرومر بأن يكون رئيس المحكمة التى تصدر أحكام الإعدام على تعساء دنشواى هو – بالذات ! – بطرس غالى باشا ، وكان إذ ذاك وزيراً للعدل . .

وصدرت الأحكام ، ونفذ الإعدام فى أربعة من المتهمين فى دنشواى نفسها ، وعلى مرأى من أهليهم . .

صدرت الأحكام فى ٢٧ يونيو ١٩٠٦ ، وتم تنفيذها فى ٢٨ منه . .

ومن الواضح أن كرومر أراد أن يجعل من مأساة دنشواى شرارة تشعل النار بين مسلمى مصر وأقباطها . .

وحدث ذلك بالفعل . .

فقد تولى الهجوم على إنجلترا مصطفى كامل فى « اللواء » وعلى يوسف فى « المؤيد » . .

وإذا كان مصطفى كامل وطنياً مصرياً قبل كل شىء ، فإن على يوسف كان شيخاً قبل كل شىء . .

وبينما اقتصر هجوم اللواء على الإنجليز ، تضمنت مقالات المؤيد هجوماً على بطرس غالى القبطى وسياسة كرومر حيال الأقباط . .

ووقع فى الشرك بعض المخدوعين . .

وأخذ الإنجليز يؤججون النيران بين الأشقاء . وأفلحت سياستهم مع الشيخ على يوسف ، وكان بينه وبين بطرس غالى عداء قديم ، منذ نبش بطرس غالى عن قانون قديم صدر فى ٢٦ نوفمبر ١٨٨١ ، وطبقه على الشيخ فى تهمة وجهت إليه فى ٢٥ مارس ١٩٠٩ . .

وهنا نجد المؤيد تهاجم بطرس غالى وأمثاله فى عنف شديد . .

ومن سوء الحظ أن رياسة تحرير اللواء صارت فى يونيو ١٩٠٩ إلى الشيخ عبد العزيز جاويش .

وكان الشيخ جاويش رجلا عاطفياً بالغ العنف ، كان من أولئك الذين إذا غضبوا وأمسكوا القلم نسوا كل شيء ، وهان عليهم إشعال نار تحرق الوطن كله ليشفى غليلا عارضاً . .

وما كاد يتولى رئاسة تحرير اللواء حتى ركب أعلى خيله واندفع يجول فى مخزن الخزف ، يكسر ويحطم دون أن يدرى ما هو فاعل : أخذ يهاجم الأقباط !

ونفر من كلامه عقلاء المسلمين ، وأنكروا تلك المقالات العمياء التى كتبها تحت عنوان « الإسلام غريب فى وطنه » . .

وكان المعتمد البريطانى إذ ذاك هو إلدون جورست Eldon Gorst الذى خلف لورد كرومر . . فأوعز إلى محررى الجريدتين القبطيتين – « الوطن » التى تأسست سنة ١٨٧٧ ، و « مصر » التى تأسست سنة ١٨٩٥ – بأن يردوا على عبد العزيز جاويش . .

وبلغ العدو الإنجليزى ما كان يتمنى . .

ثم تبين الأشقاء أن العدو يدفعهم معاً إلى الهاوية . .

لقد أخذ الأخ بخناق أخيه . .

ووقف العدو الإنجليزى المنتصر يتفرج ويفرك يديه شماتة وحقداً . .

وبلغ الأمر أن عقد مؤتمر قبطى عام فى أسيوط فيما بين ٥ و ٨ مارس ١٩١٠ برياسة بشرى حنابك – وكان من أغنى الأقباط وأوسعهم نفوذاً – وهو أخو سينوت حنا الذى سنراه فى طليعة المجاهدين فى سبيل مصر بعد قليل ، جنباً إلى جنب مع سعد زغلول . .

وعقد نفر من المسلمين مؤتمراً مقابلا . .

ولكن روح الاعتدال غلبت فى هذا المؤتمر ، فقد تقدم المؤتمرون إلى مصطفى رياض باشا يطلبون عقد مؤتمر قومى مصرى عام للمصالحة بين الأشقاء .

وعقد ذلك المؤتمر فى هليوبوليس فى المدة من ٢٩ أبريل إلى ٤ مايو ١٩١١ .

وعندما التقى الأشقاء تبينوا الهوة التى حفرها المستعمر تحت أقدامهم . .

وفى أثناء الحوار والأخذ والرد تبين الجانبان أن لا شىء بينهما غير الإنجليز ، وأن أحداً منهما لا يكسب من الخصومة شيئاً . . وإنما العدو وحده هو المستفيد . .

وفى هذا المؤتمر حضر شباب من المسلمين والأقباط ، وأنكروا ما رأوا من أحقاد الشيوخ وما كادت تؤدى إليه من كوارث . .

من بين أولئك الشباب من الأقباط كان سينوت حنا وويصا واصف وجورج خياط وواصف غالى ونجيب إسكندر ، وغيرهم ممن سيكونون بعد قليل فى طليعة النضال فى سبيل مصر . .

وحضره أيضاً شباب من المسلمين سنراهم بعد قليل فى صفوف سعد زغلول . .

على الجميع أشرقت شمس مصر ، وتمنوا من – قرارة قلوبهم – اليوم الذى يقفون فيه صفًّا واحداً للدفاع عن أعز شىء فى الوجود : مصر ، أم المسلمين وأم الأقباط معاً . .

وعندما انتقل إلى الدار الأخرى أبطال المعركة الأسيفة بين الأشقاء :

على يوسف ومصطفى كامل والشيخ جاويش وبطرس غالى ومن إليهم ، انفتح الطريق للعمل الجديد ، لأن الشباب من الجانبين تقدم الصفوف . .

والشباب – بطبعه – طاهر لا يعرف الأحقاد . .

حكى لى المرحوم الدكتور جورجى صبحى – وكان طبيباً عظيماً ووطنيًّا جليلا – خبراً لطيفاً يستحق أن يسجل هنا . .

كان جورجى صبحى من هواة تاريخ مصر القديمة ، وكان يحسن اللغة القبطية ويقرأ الهيروغليفية ، وفى معهد الآثار المصرية القديمة كان يلقى علينا دروساً كنا نحضرها ونحن طلاب فى الجامعة . .

وربطتنى بـه هواية تاريخ مصر بصداقة حميمة . .

سألته ذات ليلة ونحن منصرفون من معهد الآثار فى طريقنا إلى ميدان التحرير :

– هل صحيح أن بشرى حنا شقيق سينوت حنا ؟

– نعم . كان بشرى هو الأخ الأكبر ، وكان غير راض عن الاتجاه الوطنى المتطرف الذى سار فيه سينوت . .

وقد عاتب بشرى أخاه سينوت الذى كان شديد الحماس لمؤتمر مصالحة المسلمين والأقباط الذى عقد فى هليوبوليس . .

وكان بشرى يخاف على مركز العائلة وثروتها من الاتجاه الوطنى المتطرف ، فقال لأخيه يوماً :

– إذا أصررت على سلوك هذا السبيل فستسجن وتعذب ، وربما نفوك من البلد كما نفوا عرابى وطلبة وعبد العال حلمى . .

فقال سينوت ، وكان شاباً حييًّا بالغ الأدب :

– يا أخى بشرى لا تخف علىّ . إننى أسعى فى الحصول على استقلال مصر وإخراج الإنجليز منها ، لأن هذا هو الضمان الوحيد لسلامتنا جميعاً : أقباطاً ومسلمين . أنت تظن أن الإنجليز يحرسون أموالنا ويحمون حقوقنا نحن الأقباط . . هذا خطأ . إنهم لا يحمون إلا أنفسهم ، وها أنت ذا تراهم يستكثرون من نصارى الشوام ويعتمدون عليهم من دوننا ، وانظر عنايتهم بالأروام (اليونان) والأرمن والمالطيين ! أنت تعرف أن الحكومة الإنجليزية هى التى بنت من مالها كنيسة الروم وكنيسة الأرمن فى القاهرة ، وهم يمولون الآن المستشفى الإسرائيلى . . فهل ساهموا بقرش فى بناء كنيسة قبطية ؟ إنهم يا أخى أعداء المصريين جميعاً ، وأماننا الوحيد هو أن نظل متحدين مع إخواننا المسلمين ، فنحن وهم دائمون فى هذا البلد وما عدانا زائل . . هذا هو الأمان الوحيد لى ولك ولأموالك التى تخاف عليها . . »

إننى أذكر هذه العبارة بحروفها ، لأننى دونتها بمجرد عودتى إلى البيت . .

وأعود إلى كلام جورجى صبحى :

« . . وبعد ذلك بسنوات ، وبعد أن اجتمعت كلمة الأمة واتحد المسلمون والأقباط تحت زعامة سعد ، وبدأت دعائم الاحتلال تتزعزع ، وأصبح سينوت إلى جانب سعد وأصحابه من رجال مصر وأبطالها ، وصل بشرى ذات يوم إلى الفيوم فى زيارة عمل فوجد مظاهرة فى انتظاره ؛ وحمله الناس على أكتافهم ، لمجرد أنه أخو سينوت . . »

وعندما التقى بأخيه بعد ذلك بأيام قال له :

– كنت أنت على حق يا أخى . . لا تتصور كيف يستقبلنى الناس

الآن عندما أصل إلى الفيوم . . قبل ذلك ، وفى أيام الأزمة بيننا وبين إخواننا ، كنت أطلب من الحكمدار أن يرسل معى جندياً ، وينبه على العمد بضرورة حراستى . . مضى ذلك والحمد لله . . »

وزالت الغشاوة عن العيون . .

وهذا التطور الحاسم فى تفكير رجل مثل بشرى حنا يصور لنا – بصورة عامة – التطور العام فى التفكير وأساليب العمل الذى شمل مصر كلها نتيجة لتغير شامل فى المنظر السياسى الدولى العام . .

فقد كانت دوافع هذه العصبية الدينية عند المسلمين والأقباط ، راجعة إلى أن كلا من الفريقين كان يظن أن له خارج مصر ظهراً يحميه . .

كنا – جميعاً – نعانى من تلك الطفولة السياسية التى سادت تصرفاتنا ، منذ أن تبدت طلائع الوعى السياسى ، فى أثناء السنوات السوداء أواخر عصر إسماعيل وما تلاه من سنوات حالكة . .

كان المسلمون يتصورون أن وراءهم الدولة العثمانية بهيبتها وجلالها . .

كان فى ذهن مصطفى كامل ومحمد فريد وعلى يوسف ذلك الحلم الخادع الذى يسمى دولة آل عثمان . .

كانت مقالات « اللواء » تصر فى سذاجة غريبة على أن حلم الدولة العثمانية حقيقة . كان هناك من يتصورون – لا أدرى لماذا – أن مفتاح الموقف كله مازال فى يد خليفة آل عثمان المهيب الرابض كالأسد – وأى أسد ! – وراء بحر مرمرة على ضفاف البوسفور . .

وكان الشيخ على يوسف يدير لعبته – التى يتجلى فيها مكر صبى

يلهو – وقلبه معلق دائماً بدولة الخلافة الجليلة ، وإن كان إخلاصه الحقيقي أكثر من مشكوك فيه . .

ولم يكن هناك مفكر عاقل يرى الأمور على حقيقتها إلا محمد عبده ، ذلك الشيخ الذى سار فى أوحال ذلك العصر دون أن يسقط فيها ، بفضل ماملأ قلبه من إيمان عميق با لإسلام الصحيح ، وما ملأ ذهنه من علم واسع ، ثم ما حمل فى نفسه من حكمة فلاح مصرى أصيل ، ولد فى الظلام الحالك سنة ١٨٤٩ ، وخرج إلى الدنيا من بطن الريف قرب طنطا ، وسار فى حذر تقود خطواته تجارب آلاف السنين . .

هذا الرجل لم يخدعه حلم الدولة العلية ، ولا أرهبه خبث الخديو ورجال القصر ، ولا أخطأ فى فهم الإنجليز وما يعنيه احتلالهم لمصر . .

ولكن لم يأخذ عنه هذه الحكمة أحد من تلاميذه الشيوخ : لا عبد العزيز جاويش ولا رشيد رضا . . ظل كلاهما غارقاً فى أوهام الماضى . .

ولم يرث عنه هذه الحكمة وذلك الاعتدال ، إلا سعد زغلول وأحمد لطفى السيد ، وهذه السلسلة الباهرة من أهل العقل والحكمة والاعتدال ، الذين خرجوا بمصر من الظلمات إلى النور . .

وفى السنوات القليلة التى سبقت الحرب العالمية الأولى – لنقل فيما بين ١٩١٠ و ١٩١٤ – تبدد نهائياً من أذهان المصريين كل أمل فى آل عثمان .

وشعر المسلمون من أهل مصر أنهم وحدهم أمام العدو ، وأنهم إذا أرادوا الحرية والتقدم فلا اعتماد لهم إلا على أنفسهم . .

مثل هذا التطور حدث فى المعسكر القبطى . .

كان الذين اندفعوا منهم مع موجة التعصب يتصورون أن وراءهم
- آخر الأمر - بريطانيا العظمى ورجالها !

وقد اجتهد إلدون جورست فى أن يدفعهم فى هذا الطريق دفعاً ، حاسباً أنه يضمن بذلك أن يجعل منهم أنصاراً للاحتلال . .

فى هذه الفترة - فيما أعتقد - تجىء الحكاية التى يروونها بصور شتى وينسبونها إلى أكثر من بطرك من بطاركة الأقباط فى ذلك العهد ، والغالبية تنسبها إلى الأنبا كيرلس الخامس . .

هذه الحكاية تتلخص فى أن المعتمد البريطانى زار البطرك ، فوجده جالساً فى مصلاه خاشعاً بين يدى ربه ، فى غرفة هى الغاية فى الزهد والتقشف . .

وكأن المعتمد البريطانى ظن أن ذلك راجع إلى فقر يعانيه ، غير عالم أنه فى حضرة رجل مؤمن زاهد فى الدنيا وخيرها ، رجل من أهل الحقيقة كما يقول الصوفية . .

وعرض عليه أن يطلب - باسم الأقباط - حماية الملكة فكتوريا . .

واستمع الرجل الوقور إلى هذا السيد الضخم الذى ملأت أحلام الإمبراطورية والشر رأسه ، ثم نظر إليه وقال :

- هذه الملكة فكتوريا إنسانة ، بشر أقصد . .

- نعم . . ولكنها . .

- أقصد أنها ستموت يوماً ما . .

- ماذا تعنى ؟ . .

- أعنى . . أرجوك أن تقول لجلالة الملكة إن أقباط مصر

ليسوا فى حاجة إلى حماية بشر هالك ، لأنهم فى حماية الحى الذى لا يموت . .

كان كلام هذا الحبر الجليل رمزاً على تحول حاسم عميق عند الأقباط جميعاً . .

فإن الدون جورست مضى لشأنه سنة ١٩١١ وحل محله هوراشيو كتشنر ، وكان عسكرياً غشوماً لا يفكر إلا فى « بريطانيا العظمى » . .

وكانت فرنسا قد تخلت تماماً عن مصر ، وخيبت رجاء من كانوا يؤملون فيها ، وعقدت مع بريطانيا « الاتفاق الودى » سنة ١٩٠٤ وتركت المصريين – مسلمين ونصارى – للإنجليز يفعلون بهم ما يريدون . .

وأخذ كتشنر يعتمد على المرتزقة الأروام والمالطيين ، وكل من وجد فيه استعداداً لخدمة إنجلترا وحدها ، دون نظر إلى مصر أو المصريين . .

وفتح الجيل الجديد من أقباط تلك الأيام عينيه ليجد نفسه وحيداً فى المعركة . .

ووجد إلى جانبه جيلا مثله من المسلمين المصريين الجدد . .

وانتهى الجيلان إلى أن أملهما الوحيد هو مصر ، إنقاذ مصر ، النهوض بمصر . .

هى البداية ، وهى النهاية . . هى الأمل ، وهى النور . .

ويداً فى يد ، بدآ المسيرة من جديد . .

والدين لله ، والوطن للجميع . .

* * *

وماذا قال جمال عبد الناصر للصحفى الفنزويلى ؟

- . . ليست لنا سياسة « دينية » . . سياستنا « مصرية » ، وهذا يكفى . . وأعداؤنا الذين يهددون بإعلان الحرب علينا إنما يهددوننا جميعاً : مسلمين ومسيحيين . . والعرب الذين طردهم الإسرائيليون من بلادهم مسلمون ومسيحيون . .

(٢)

على منبر واحد ، هتف لمصر الشيخ والقسيس !

ماذا جرى لنا فى أثناء الحرب العالمية الأولى ؟

كانت سنوات الحرب العالمية الأولى - برغم سوء أحوالها وقسوتها على المواطن المصرى - فترة استجمام وهدوء ، تغير خلالها المنظر السياسى والاجتماعى فى مصر تغيراً حاسماً ، دون أن يكون لأحد فى ذلك كبير فضل . فى أثنائها خلا المسرح المصرى من كل أبطاله القدامى ، وساده السكون كأنما قد انتهت المسرحية ، ونسى الموكلون بالستار أن ينزلوه . .

ذهبت مع أمس الدابر أيام عباس حلمى بخبثه وجمود قلبه وأنانيته ، وذهب أيضاً كتشنر بصلفه وجبروته وإيمانه الساذج بأن الإنجليز هم بوليس العالم ، وحل محله عسكرى بريطانى قح يسمى السيرجون ماكسويل ، لا يعرف عن مصر ، إلا أنها قاعدة عسكرية إنجليزية ، وعن المصريين إلا أنهم طفيليون يعيشون حول هذه القاعدة . وكان إلى جانبه دبلوماسى بريطانى واستعمارى تقليدى يسمى ميلن تشيتهام Milne Cheetham ، يشغل وظيفة نائب المعتمد البريطانى ، وعمله يتلخص فى إيصال أوامر ماكسويل إلى حسين رشدى رئيس الوزارة ، ليقوم بتنفيذها . .

واختفى من الميدان الشيخ على يوسف وعبد العزيز جاويش ، وفرضت

الأحكام العرفية والرقابة على الصحف ، وتعطلت الأذهان عن الحركة . .

وأخذت السلطة الإنجليزية تستولى على كل شىء تريده ، دون أن تؤدى عنه إلا أبخس ثمن : القطن والقمح والذرة والبقر والجاموس والجمال والحمير . . والناس أيضاً . .

لم يفرق الإنجليز فى ذلك بين مسلم وقبطى ، نهبوا الجميع ، وأخذوا الناس من قراهم وساقوهم للخدمة فى مؤخرة الجيش البريطانى ، وعهدوا إليهم بأخس الأعمال : تمهيد الأرض ورفع الأتربة والرمال ، ووضع قضبان السكك الحديدية وبناء الثكنات ، وسوق الدواب التى تحمل المئونة للإنجليز . .

وفى هذه العمليات الخسيسة مات من المصريين ألوف بعد ألوف : بلا شرف ولا كرامة . .

وهذه أسوأ معاملة أنزلها بشر ببشر . .

وربما كان الشر أهون لو أنهم اعتبروهم جنوداً ، وسلحوهم ودربوهم وألقوا بهم فى الميادين . .

لأن المقاتل مقاتل على أى حال . .

وبعد الحرب ، ربما نفع الباقون منهم كمحاربين . .

أما أن يضحى بالألوف فى عمل كهذا ، فمهانة لا يلحقها إنسان بأخيه الإنسان إلا إذا تجرد من الضمير . .

ولكن ، رب ضارة نافعة . .

فقد رأى إخواننا الذين خدعهم مكر الإنجليز ، أنهم كانوا على وشك أن يحطموا وطنهم . .

وتلاحمت صفوف المصريين أكثر مما تلاحمت من قبل . .

ولا يصور لنا هذا التحول العميق إلا رجل مثل سلامة موسى . .

قبيل الحرب العالمية الأولى كان سلامة موسى شاباً متطلعاً للمستقبل ، طموحاً إلى العمل فى سبيل تحرير وطنه ، ولهذا سافر إلى أوربا ليستزيد من الثقافة ، وليتمكن من خدمة بلاده عن طريق الصحافة وتأليف الكتب . فى كتابه « تربية سلامة موسى » نشعر أننا نقرأ لمواطن مصرى كريم يحب بلده ويحس مشاعر مواطنيه ويحسن التعبير عنها ، ولا نشعر قط أنه يتكلم كقبطى ، وهذه هى الحقيقة الهامة التى أريد هنا أن أضع تحتها أكثر من خط . .

سلامة موسى الشاب كان نموذجاً لجيل جديد من شباب الأقباط ، ظهروا قبيل الحرب العالمية الأولى وفى أثنائها ، وقد تفتحت عيونهم على الحقيقة الخالدة : لن تنجح مصر إلا بتعاون جناحيها : المسلمين والأقباط . مصر بلدهم جميعاً ، ولا وطن لهم ولا مستقبل ولا أمل إلا فيها وبها ومنها . لن تنجح مصر بأمثال عبد العزيز جاويش ، ولن تنجح كذلك بأمثال بطرس غالى وبشرى حنا — قبل أن يهديه الله سواء السبيل . .

وإنما تنجح مصر بأمثال عثمان صبرى ، ذلك الرجل المعتدل المتزن الذى رأس تحرير « اللواء » بعد جاويش ، وسلامة موسى الذى عمل معه ، وأحمد لطفى السيد الذى قاد الحركة الثقافية فى ذلك العصر ، وسينوت حنا الذى وضع نفسه وماله فى خدمة مصر ، والشيخ محمود أبو العيون الذى كان يشترك فى إلقاء الخطب الوطنية فى المساجد والكنائس بصحبة القمص مرقص سرجيوس ، ذلك الثائر الملتهب الذى ظل

زوبعة لا تهدأ حتى بلغ الثمانين ، ومحمد كامل حسين الذى تجلى فيما بعد عن واحد من أنبغ أطباء مصر ورجال الفكر فيها ، والقمص بولس غبريال ، ذلك الخطيب البليغ الذى سار مع إخوانه المسلمين يخطب ويطالب باستقلال مصر . . وغيرهم مئات كثيرون ممن بدأوا فى تاريخ مصر صفحة جديدة . .

يعبر سلامة موسى فى كتابه عن شعور جيله هذا تعبيراً هادئاً موجزاً ولكنه صادق عميق . .

فهو يحكى كيف ضيقت عليه الرقابة البريطانية فى أثناء الحرب ، حتى اضطر إلى ترك العمل فى الصحافة والهرب إلى الأرياف .

وفى الأرياف رأى من ظلم الإنجليز واستبداد « السلطة » بأهل مصر ما جعل قلبه ينفطر أسفاً على مصير بلاده على أيدى المحتلين .

وهو يحكى كيف أراد مرة التوسط لفلاح شاب مسكين ، للحيلولة بين رجال السلطة وأخذه للعمل الشاق المهين والموت فى فلسطين ، فما كان من الموظف الإنجليزى إلا أن انتهره وهدده بربطه مع الشاب بنفس حبله وجره معه إلى فلسطين . .

وهو يحكى كيف أن توفيق دوس – وكان عضواً فى لجنة الثلاثين التى وضعت أول دستور لمصر بعد إعلان تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ – طلب أن يوضع فى الدستور نص يسجل للأقباط حقوقاً معينة ، فثار عليه شباب الأقباط أنفسهم وأفهموه أن مصر لا تعرف تفرقة دينية ، وأن مواطنيها جميعاً إخوة متساوون فى الحقوق والواجبات .

وهو يحمد الله على أن فتنة المتعصبين قد مرت ، وأن عصراً جديداً من

التسامح والوطنية الصادقة يتقدم بخطى ثابتة نحو مستقبل أسعد لمصر وأهلها ، ويؤكد أن اتحاد أهل مصر جميعاً ووقوفهم أمام كل عدو للبلاد ، هى الحالة الطبيعية للمصريين على طول تاريخهم ، وأن حالات الخلاف والفرقة نادرة ، ولا بد أن تكون من صنع أجنبى يريد الشر بمصر والمصريين جميعاً : مسلمين وأقباطاً . .

وهو يؤيد كلامه بالقول بأن اتحاد الأقباط مع المسلمين ، فى أوقات الشدة والجهاد والفداء ، ظهر أيضاً بأجلى مظاهره أيام الثورة العرابية . فى تلك الأيام كان عبد الله النديم – خطيب الثورة – يتناوب الخطابة على منابر المساجد مع الأقباط ، داعين للثورة والانضمام لعرابى وصحبه ، ومهاجمين الإنجليز أعداء البلاد .

وسلامة موسى – وهو من أفذاذ المفكرين ومن عظماء المصريين دون شك – يؤكد أنه ما من فتنة وقعت بين الأقباط والمسلمين ، إلا كان سببها الإنجليز وسعاياتهم ، وحرصهم الدائب على التفريق بين أهل البلاد . .

وصدور هذا الكلام عن قبطى جليل ، يعرف الأقباط وحقيقة مشاعرهم معرفة جيدة ، ينبغى أن يؤخذ على أنه وثيقة ، فما كان هذا الرجل الحر ليلقى هذا الكلام جزافاً . فإن ميزة سلامة موسى الكبرى كمفكر ، هى أنه كان يتحرى الصدق دائماً فيما يقول ، وكان حراً صريحاً جريئاً لا يناور ولا ينافق . ولقد زرناه مرة فى مجلة « الحياة الجديدة » التى كان يصدرها ، فإذا هو فى ضائقة مالية شديدة ، لأن المجلة استنفدت ماله . ونصحه واحد من أصحابنا بأن يكتب مقالا يؤيد به الأحرار الدستوريين – وكانوا فى الحكم حينذاك – فصمت سلامة موسى ، وكان شديد الحياء ،

وبدت فى أساريره أمارات الغضب والألم ، ثم قال لصاحبنا : الكلام دا عيب يا أخى . . .

ولم يزد ، ولكن الشاب لم يلبث أن نهض وانصرف . .

* * *

هذا التغير الحاسم فى النفسية المصرية الذى تم خلال الحرب العالمية الأولى هو الذى أخرج جيل ثورة ١٩١٩ ، وهو الجيل الذى قاده سعد زغلول . .

كان جيلا شاباً مؤمناً بمصر وحدها ، لا يعرف تفرقه بين مصرى ومصرى ، لأنه رأى بعينه أن المحتل ورجاله والخديو وأعوانه لا يريدون خيراً بأحد من المصريين : يستوى فى حسابهم المسلم والقبطى والفلاح والصعيدى . كلهم – فى نظرهم – عبيد ، ينبغى أن يعاملوا معاملة العبيد . . .

والصفة الأساسية فى سعد ، التى مكنت له من قيادة مصر كلها قيادة شاملة حازمة حاسمة ، هى أنه آمن بمصر وحدها واتخذ الإيمان بمصر أساساً للعمل ومقياساً للرجال .

فحسين رشدى باشا كان يرى نفسه من الطبقة التركية السائدة ، وقد تعاون مع الإنجليز طوال سنوات الحرب « بإخلاص » لا يحسد عليه . .

ولكن عندما بدأت الثورة وقف حسين رشدى إلى جانب قضية مصر ، وانضم إلى سعد فى طلبه التصريح للوفد بالسفر إلى أوربا لعرض قضية مصر على مؤتمرات الصلح ، فلما رفض الطلب استقال حسين رشدى فى ديسمبر ١٩١٨ .

وقد حمد سعد لرشدى موقفه هذا ، ونسى له ما كان منه أيام الحرب . .

وسعد نفسه كان من بين أولئك الذين تطور تفكيرهم السياسى تطوراً حاسماً فى أثناء الحرب . .

لقد خدم أيام الاحتلال ، وتولى الوزارة برضا كرومر ، ولم يجد فى ذلك غضاضة ، لأنه كان – مثل غيره – يحسن الظن بالإنجليز ، ويحسب أنهم صادقون فيما كانوا يقولونه من أن الاحتلال مؤقت ، وأنه سيزول فى يوم قريب . .

وكان المصريون – جميعاً – عقب الاحتلال يرون أن عدو البلاد الأول هو الخديو . ومحمد عبده نفسه كان يقول إن المصريين أمام عدوين : الخديو والإنجليز ، وأن الإنجليز أهون شراً ، وأن الخطر الحقيقى على مصر والمصريين هو الحاكم من شجرة إسماعيل ومحمد على .

وكان الخديو قبل الحرب هو توفيق الذى استعان بالإنجليز على مواطنيه ، وبعده جاء عباس حلمى ، وكان شيطاناً خبيثاً ، ورجلا جشعاً ينهب البلاد دون حياء . وكان – فى حقيقة الأمر – سند الاحتلال الأول . .

وكان سعد من أعداء الخديو .

فلما جاءت الحرب عزل الإنجليز الخديو عباساً وأقاموا مكانه السلطان حسيناً ، ثم أطلقوا أيديهم فى البلاد . .

ورأى سعد وغيره من أبناء جيله حقيقة الإنجليز ، فقد عسفوا أهل مصر جميعاً ونهبوهم على صورة هى أبشع ما حدث فى تاريخها ، وهل هناك أبشع من أعمال السلطة البريطانية التى ضحت بعشرات الألوف من المصريين دون رحمة ، وانتزعت الشباب من القرى لتلقى بهم فى وهج

الشمس ، يحفرون القنوات فى الصحراء ويمدون الخطوط الحديدية ، ولا غذاء للواحد منهم إلا رغيف جاف وطبق فيه من السوس أكثر مما فيه من العدس ، فإذا مات دفنه إخوانه حيث كان فى الطريق . .

هذا إلى سرقة خيرات البلاد ونهبها دون حساب . .

هذه الحقيقة التى ذكرها ووصفها سلامة موسى فى « تربيته » ، هى التى رفعت الغشاوة عن أعين سعد ومواطنيه . .

ولم يكن سعد ليستطيع أن يعمل شيئاً فى أثناء الحرب ، فلما انتهت أحس أن ساعة العمل قد أتت ، فسار فى طريقه المعروف .

وهو عندما فعل ذلك دخل فى دور جديد من حياته ، دور الثائر على العدوان على بلاده ، المكافح لدفع الظلم عن مواطنيه ، المناضل فى سبيل استقلالهم التام لا مجرد رفع الحماية عن بلادهم . .

وهذا هو الذى جعل نداءه يكتسح البلاد كلها ووصل بصوته إلى بطون الريف ، فاستجاب للنداء الباشا القديم الذى كان يخدم الاحتلال ، والطالب الناشئ الذى كان يستعد لمستقبله و « ابن البلد » الذى كان لا يزال يعيش فى أحياء مصر البلدية الغارقة فى العصور الوسطى إذ ذاك ، والفلاح الذى كان يعيش فى عصر الفراعنة فى بطون الريف . .

وهذا النداء نفسه هو الذى أزال كل أثر للشك والريبة من نفوس المسلمين والأقباط ، وأنساهما أحاديث مؤتمر الأقباط وضلال بطرس غالى وصرخات الشيخ جاويش ، وجعل من هؤلاء جميعاً جيشاً مصرياً واحداً ، يخدم مصر ويطلب الموت فى سبيلها . .

سينوت حنا ، رمز لجيل مجيد

فى هذه الظروف ظهر أقباط مصر بطبعهم الصادق ومعدنهم الصافى ، فأيدت غالبيتهم العظمى سعداً ووقفوا تحت رايته مناضلين .

وعندما قرر الوفد توسيع نطاقه بضم نفر من أعضاء الحزب الوطنى فى أبريل ١٩١٩ ، تقدم نفر من زعماء الأقباط ليأخذوا مكانهم فى صفوف الجهاد .

وفى الوقت الذى ضم الوفد إلى قيادته مصطفى النحاس والدكتور حافظ عفيفى (وكانا من رجال الحزب الوطنى) ضم أيضاً رجالا آخرين هم : سينوت حنا وجورج خياط وواصف غالى ، إلى جانب حمد الباسل وإسماعيل صدقى ومحمود أبو النصر وحسين واصف وعبد الخالق مدكور .

ونقف لحظات عند سينوت حنا . .

لقد رأيناه من قبل يعارض أخاه بشرى حنا فيما كان ماضياً فيه عندما عقد المؤتمر القبطى .

وكان سينوت إذ ذاك شاباً ذا مركز ممتاز ، فقد كانت أسرته من أغنياء الصعيد . كانت لهم ضياع واسعة فى ناحية ببا بمديرية بنى سويف ، وكان لهم مصرف خاص وأملاك أخرى فى مديرية الفيوم .

ومنذ أن دخل سينوت الوفد وقف صامداً ثابتاً إلى جانب سعد ، دون أن يبدو منه فى مرة من المرات أى تردد أو شك .

ولقد نفى واضطهد وفقد الكثير من ماله ، وظل – برغم ذلك – ثابتاً ثبات الصخرة ، زاهداً فى كل جزاء حتى انتهت أيام سعد . .

وبعد سعد زغلول وقف سينوت إلى آخر حياته إلى جانب خليفته مصطفى النحاس ، حتى لقد فداه بنفسه مرة ، إذ تلقى بصدره حربة وجهها أحد جنود البوليس إلى ظهر النحاس ، فى أثناء وزارة إسماعيل صدقى التى كانت إحدى التجارب التى لجأ إليها القصر والإنجليز ، ليكسروا شوكة شعب مصر ، ويكسبوا على الشعب ذلك الكسب الضئيل الذى ناله من تصريح ... فبراير ١٩٢٢ .

ومع عظيم تفانيه وتضحيته لم ينل سينوت شيئاً ، لأنه لم ينظر إلى مقابل أو جزاء . .

لقد أنفق من ماله على الحركة الوطنية ألوفاً كثيرة ، ومع ذلك فكلما جاءت وزارة وفدية تراجع إلى الوراء وترك غيره يحظى بالمنصب الكبير . .

وكان لا يهتم بالظهور قط ، كان دائماً يعمل فى صمت ووقار دون أن يستهويه لقب أو منصب . .

كان إيمانه بمصر وحقها صادقاً خالصاً عميقاً .

وبإخلاصه هذا ضرب للمصريين مثلا عظيماً فى الوطنية .

حتى أخوه بشرى حنا اقتنع بما لم يكن يؤمن به ، فدخل الوفد وصار من رجاله . .

وكان سعد يحب سينوت حباً شديداً ، فكان لا يمر يوم دون أن يراه ، ولا يقطع برأى دون مشورته ، ثقة منه فى صدقه وإخلاصه .

وبعد نفى سعد النفى الأول إلى مالطة ، نجد سينوت حنا بارزاً بين الطبقة الثانية من الوفديين ، الذين تولوا قيادة الثورة فى غياب سعد .

ويبدو اسمه فى النداء الذى وجهه قادة الأمة فى ٢٤ مارس ١٩١٩ إلى

الشعب ، ينصحونه بالتزام الهدوء بعد أن بلغت الثورة ذروة عنفها ، وتساقط الشهداء بالمئات فى نواحى القطر كله . .

هنا نجد إمضاءه إلى جانب ستة أقباط آخرين فى مقدمتهم الأنبا كيرلس بطريرك الأقباط . .

من ذلك الحين لا نجد عملا وطنياً فى الصراع مع الاحتلال إلا وسينوت حنا فى طليعة المشتركين فيه . .

وعندما خرج سعد إلى منفاه فى سيشل مساء الخميس ٢٩ ديسمبر ١٩٢٠ كان معه ثلاثة من المسلمين : فتح الله بركات وأخوه عاطف ومصطفى النحاس ، واثنان من الأقباط : سينوت حنا ومكرم عبيد . .

ويقال إن سعداً عندما بارح داره فى الطريق إلى المنفى كان شديد التأثر بادى الهم . .

وأنه عندما أقلعت به السفينة إلى منفاه فى جزيرة نائية فى المحيط الهندى وضع يداً على كتف سينوت ويداً على كتف مصطفى النحاس وابتسم وقال : مع أبنائى لا أشعر بأننى منفى . . كان الله فى عون أبنائى الذين تركتهم فى مصر . .

وفى سيشل كان سعد ينسى آلامه ، عندما يتمشى مع سينوت فى حديقة داره فى المنفى .

صورة رائعة من صور الإخاء فى وطننا الخالد . .

سعد زغلول الذى لم يرزقه الله ولداً من صلبه ، رزقه الله ولدين كانا أحب إليه من أبناء الصلب ، هما سينوت حنا ثم مكرم عبيد . .

وعلى هذه الصورة من الولاء والتضحية ظل سينوت حنا إلى وفاته : لم يطلب لنفسه يوماً شيئاً ، ولا هو استعظم تضحية فى سبيل وطنه . .

القمص مرقص سرجيوس ، الثائر الذى لا يسكن :

وسنتحدث فيما بعد عن ويصا واصف وواصف بطرس غالى ومكرم عبيد . .

ولكننا نقف وقفة قصيرة عند مواطن قبطى آخر يعد من طلائع رجال ثورة ١٩١٩ وشخصياتها التى لا تنسى : القمص مرقس سرجيوس ، الذى كان طوال حياته ثائراً على كل ما لا يرضيه : على الاحتلال البريطانى ، وعلى بعض أوضاع خاصة داخل الكنيسة القبطية ، بل على البطريرك يؤانس الذى كان طوال مدة بطريركيته نموذجاً للراعى الصالح لشعبه وللمسيحى المخلص لكنيسته . .

ولكن القمص مرقس سرجيوس كان زوبعة ثائرة على كل شيء .

وسط الثائرين المصريين كان مرقس سرجيوس أشبه الناس بعبد الله النديم ، ذلك الثائر البطل الذى تتلخص حياته فى كلمات : حب مصر . الثورة على الاحتلال . . الجهاد حتى الموت . . لا هدنة مع الشر والفساد .

عاش عبد الله النديم نصف حياته العملية فى المنفى : لم يهادن المحتل قط ، ولا تخلى عن إخلاصه لأحمد عرابى بعد أن تخلى عنه كل الناس ، ونفى إلى الشام مرتين ، وأخيراً مات منفيًّا بعيداً عن بلاده فى الآستانة . .

كان مصرياً أصيلا وثائراً بطلا . .

وكذلك كان مرقس سرجيوس . .

كان يحمل بين جنبيه قلب أسد ونفساً صافية ، وقد وهبه الله لساناً فصيحاً يهز أوتار القلوب ، كما كان عبد الله النديم . .

عندما قامت الثورة ألقى بنفسه فى غمارها . . ومضى إلى الأزهر ، فارتقى المنبر وجعل يخطب . .

ودهش الناس عندما رأوا قساً قبطياً على منبر الأزهر يبدأ خطابه قائلا : بسم الله الرحمن الرحيم ! ويقول إن الوطن لله ، وإن عبادة الوطن هى وعبادة الله سواء ، وإنه فى سبيل مصر ينسى أنه قبطى ، لأن مصر لا تعرف قبطياً ولا مسلماً ، وإنما هى تعرف أن الكل أبناؤها ، وتطلب منهم جميعاً أن يقفوا دونها صفاً واحداً ، ليحموا من العدو الإنجليزى المحتل أرضها . .

وفى خطبة من خطبه أمام فندق الكونتننتال قال إن الإنجليز ليسوا مسيحيين ولا يعرفون الله ، وإنما هم كفار . . لأن الذى يغتصب بلاد الناس ويقتل الشباب الهاتف لوطنه كافر ، وظل يردد : كافر . . حتى أسرع نحوه جندى إنجليزى مصوباً مسدسه إلى صدره . وصاح الناس : سيقتلك يا أبانا . . اسكت يا أبانا . . ولكن القس مضى فى خطابه يقول : متى كنا نخاف من الرصاص والموت ؟ دعوه يقتلنى لتطهر أرض مصر بدمى وتحل عليها بركة الرب . .

وعندما أحس أن بعض إخوانه الأقباط متقاعسون بعض الشيء ، مترددون بين التزام الهدوء وبين السير مع الثورة ، هاجمهم ومازال بهم حتى دفعهم فى عباب الثورة . .

وفى حرارة إيمانه وثورته نسى الجميع مخاوف الماضى ، وعرفوا أن الإنجليز أعداء لوطنهم مصر ، ولا خير يرجى من عدو ، لا لمسلم ولا لقبطى . .

وفى صحبة الشيخ محمود أبو العيون – من كبار علماء الأزهر إذ

ذاك – عاد إلى الأزهر الشريف واعتلى منبره ، وخطب معلناً أنه مصرى أولاً وثانياً وثالثاً ، وأن الوطن لا يعرف مسلماً أو قبطيًّا ، بل يعرف مجاهدين فقط ، دون تمييز بين عمامة بيضاء وعمامة سوداء . .

كان يخرج من كنيسته فى الفجالة مع الصباح متجهاً إلى الأزهر – وكان ملتقى الثوار – وهناك يلتقى بالشيوخ . .

فى ذات مرة ظل يخطب هو وعلى الغاياتى أربع ساعات متوالية على منبر جامع ابن طولون . .

وعلى إثر ذلك قبض عليه الإنجليز ونفوه إلى رفح ، مع الشيخ الغاياتى ومحمود فهمى النقراشى ونفر آخر من رجال الثورة . وهناك – على ساحل قطعة عزيزة من أرض مصر – سار الشيخ والقس يتحدثان عن مصر ويرتلان أناشيد حبهما لمصر . .

وبعد أن عاد من الاعتقال أخذ يكتب المقالات الوطنية فى صحيفة « المنارة المرقسية » . . ولم يكتف بما كان يكتب من مقالات ثائرة يوقعها باسمه ، بل كتب مقالات أخرى وقعها باسم « يونس المهموز » . .

وفى سكون الصمت والمنفى الذى مات فيه عبد الله النديم . . مات أيضاً مرقس سرجيوس منفيًّا عن وطنه ، وإن كان فيه !

مات سنة ١٩٦٤ . .

حقاً ، إن أمة فيها أمثال عبد الله النديم ومرقس سرجيوس لا يمكن أن تموت . .

وقبل أن أترك هذه الفقرة أحب أن أسأل قرائى : لماذا تسمى الكنيسة القبطية « الكرازة المرقسية » ؟

فأما « الكرازة » فتحريف للفظ « الكلازة » ، والكلازة هي الصورة العربية الدارجة للفظ Ecclesia اليوناني ومعناه الجماعة المسيحية ، أو « الشعب » في قاموس أقباط مصر .

و « المرقسية » نسبة إلى القديس مرقس ، أو مرقس البشير . ومرقس كان من أهل القدس ، وهو لم ير السيد المسيح ولا سمع منه وإنما تتلمذ على بولس وبرنابا . وعندما اختلف بولس مع برنابا انفصل مرقس عن بولس ، وتبع بطرس وأخذ عنه وأصبح تلميذه ، وكتب عنه ما يسمى بإنجيل بطرس ، وهو من الأناجيل التي أبطلت .

وكان مرقس مبشراً رحالة . عاش حياته متنقلاً بين فلسطين وآسيا الصغرى وقبرص ومصر وروما .

وفي طريقه من القدس إلى روما مر بالإسكندرية ، وبقربها كتب إنجيله الذي يعتبر أصغر الأناجيل حجماً ولكنه أبلغها لغة . وفي تلك المناسبة أيضاً وضع أساس كنيسة الإسكندرية ، فهو منشئها ، ولهذا فهي كنيسة مرقس ، وقد سميت أولا كرسي مرقس Cathedra Marci .

وبعد ذلك رحل إلى روما ولحق ببطرس ، ثم عاد إلى الإسكندرية وفيها مات .

وفي طريقه إلى مصر مرّ ببلدة أكيليا Aquileia التي قامت على أنقاضها البندقية Benedictia . وأهل أكيليا هم الذين أنشأوا البندقية التي تحرفت إلى فينيسيا ، ويقال إن مرقس هو الذي أنشأ كنيستها أيضاً .

وفي القرن العاشر المسيحي – أيام الفاطميين – أغار على شواطئ الإسكندرية قراصنة إيطاليون فسرقوا رفات القديس مرقس وأخذوه إلى

بلدهم ، وعلى ضريحه فى البندقية أقاموا كنيسة سان ماركو – أوسمّاركو – التى طالما أعجب بها زوار البندقية .

وإذن فكنيستنا – أوكرازتنا – المرقسية من أقدم وأجل كنائس الدنيا ، وهى من الأعلام الكبرى فى تاريخ حضارة مصر الزاهر . .

فى الإسكندرية كتب واحد من الأناجيل الأربعة . .

وفى الفسطاط كتب محمد بن إدريس الشافعى مذهبه بعد ذلك بثمانية قرون ، وهو أحد مذاهب الإسلام الأربعة .

أى تاريخ جليل رائع هو تاريخ مصر ! . .

وأى أرض مباركة هى أرض مصر ! . .

وعندما تبادل الشيخ محمود أبو العيون والقمص مرقس سرجيوس الخطب على منبر الأزهر ، بدا وكأن الرسول مرقس يمد يده من وراء القرون ليصافح محمد بن إدريس الشافعى !

أى تاريخ جليل نحن ورثناه؟!

فهل نحن جديرون بهذا التراث ؟ . .

أرجو . . . بل لا أشك فى أننا جديرون به . .

لأن صورة سعد زغلول جالساً فى جزيرة نائية وراء أمواج المحيط ، وقد وضع يمناه على كتف سينوت حنا ويسراه على كتف مكرم عبيد ، وثلاثتهم صامتون وقلوبهم تصلى من أجل مصر . . هذه الصورة صورة شعب عظيم . .

وأرض مصر التى ضمت رفات القديس مرقس ، ثم رفات البطاركة العظام كيرلس وديوسقوروس وأوتيخا ، الذين هزوا عرش الطاغية فى

القسطنطينية ، إلى جانب رفات عمرو بن العاص الذى قضى على عرش هذا الطاغية ، ثم رفات الليث بن سعد وأولياء الله من سكان القرافة عند سفح المقطم ، ومحمد بن إدريس الشافعى « عالم قريش الذى ملأ طباق الأرض علماً » . . (هكذا نقرأ على ضريح الإمام) ، هذه الأرض لا بد أن تكون أرضاً مقدسة . . .

* * *

نعم ، وماذا قال جمال عبد الناصر للصحفى من فنزويلا ؟

— . . . ليست لنا سياسة « دينية » . . سياستنا « مصرية » ، وهذا يكفى . . وأعداؤنا الذين يهددون بإعلان الحرب علينا ، إنما يهددوننا جميعاً : مسلمين ومسيحيين ، والعرب الذين طردهم الإسرائيليون من بلادهم إنما هم مسلمون ومسيحيون . .

(٣)

الاتحاد ، دستور مصر الخالد . .

فى « سيرة كوكب البرية القديس الأنبا أنطونيوس المصرى » (من أسيوط) بقلم القمص كيرلس الأنطونى (القاهرة ١٩٥٠ ، ص ١٤٣) تقرأ قصة « المرأة المسيحية الغيورة ، التى جرت بسرعة فى زمان الاضطهاد وسط صفوف الجند ، لتلحق بإخوتها المسيحيين خارج المدينة ، وكانت تعرف أن هؤلاء الجنود ماضون فى طريقهم للبحث عن المؤمنين وقتلهم ، فأمسك بها أحد الجنود وأوصلها إلى القائد فقال لها :

– لماذا تركضين هكذا مسرعة ؟

– لكى ألحق بإخوتى المسيحيين خارج المدينة ؟

– عجباً . . ألا تعلمين أننا ماضون إلى هناك لقتلهم وتشتيت شملهم ؟

أجابت :

– إننى أعرف هذا جيداً ، ولذا أركض مسرعة مخافة أن ينالوا إكليل الشهادة قبلى . .

هذه القصة تصلح تصويراً لموقف الأقباط من الثورة بعد أن انضم إليها الرعيل الأول منهم : مرقس سرجيوس وسينوت حنا وويصا واصف وواصف غالى ومرقس غبريال ، ومن إليهم ممن سيرد ذكرهم فيما بعد . . .

لقد اعتقل سعد وأصحابه الثلاثة فى ٨ مارس ١٩١٩ ، وأبعدوا منفيين إلى مالطة . .

ويوم الأحد ٩ مارس ١٩١٩ اندلعت نيران الثورة . .

ويوم الاثنين ١٠ مارس ١٩١٩ سقط أول شهيدين : رجل وطفل مجهولان . . هما رمزان على جهاد الألوف من جنود مصر المجهولين . .

وفى يوم الثلاثاء ١١ مارس ١٩١٩ سقط أول شهداء الثورة الذين عرفنا أسماءهم : محمد عزت البيومى ، طالب فى عز شبابه ، اغتاله رصاص الإنجليز عند كوبرى شبرا وسجلت وفاته فى دفتر وفيات قسم السيدة زينب . .

وفى اليوم نفسه ، الثلاثاء ١١ مارس ١٩١٩ ، كان أول إضراب منظم ، هو إضراب المحامين . اتخذوا القرار فى مجلس نقابتهم ووقعه أعضاء مجلس النقابة . . نجد من بينهم اثنين من المسيحيين هما إدوار قصيرى وميخائيل جرجس . .

وفى ١٦ مارس ١٩١٩ كانت مظاهرة السيدات وهو حادث لم يكن يتصوره أحد . . منظر لو رآه قاسم أمين لظن أنه فى دنيا غير دنياه . .

ولم يكتفين بالمظاهرة ، بل كتبن إلى المعتمد البريطانى احتجاجاً على الاحتلال ، وقعه عشرات منهن . .

إلى جانب إمضاءات : حرم حسين رشدى ، وصفية زغلول ، وهدى شعراوى ، وحرم محمود رياض (باشا) ، وحرم محمد سعيد ، وحرم إسماعيل صدقى ، وحرم محمود سامى البارودى ، وكريمته . . نقرأ إمضاءات : حرم حنا مسيحة ، وحرم عزيز مشرقى ، وحرم نجيب إسكندر مسيحة ، والآنسة جولييت صليب ، ومدام روفائيل بغدادى ،

وحرم ويصا واصف ، وحرم صليب منقريوس ، وحرم ميخائيل لبيب ، والآنسة مارى ميرهم . .

عشر سيدات وآنسات قبطيات يذكرننا بـ « المرأة المسيحية الغيورة » التى روينا خبرها أول هذا الحديث . . أولئك المصريات كن غيورات أيضاً ، جازفن بأنفسهن وركضن مسرعات مخافة أن ينال غيرهن من المواطنين شرف الشهادة قبلهن . .

وكانت تلك المظاهرة موضوعاً لقطعة من أجمل شعر حافظ إبراهيم :

خرج الغوانى يحتَجِجْنَ ورحت أرقب جمعَهُنَّهْ
فإذا بهنَّ تَخِذْنَ من سود الثياب شعارَهُنَّهْ

إلى آخر هذا الشعر الطريف ، الذى خفف عن أهل مصر فى تلك الأيام بعض ما كانوا يقاسونه وبلادهم ترزح تحت نير الاحتلال ، وقادتهم فى المنفى البعيد لا يعرف أحد ماذا تصنع بهم يد الظلم والجبروت . .

وفى معارك الصعيد تلاشى أمل المستعمر فى التفريق بين الأشقاء

وفى بلاد مديرية أسيوط وما يليها جنوباً – حيث يختلط المسلمون والأقباط فى كل قرية بل فى كل كفر ، حيث نجد الجامع والكنيسة متجاورين فى كل مكان – أخذت الثورة على الإنجليز صورة معركة حامية الوطيس ، فى أسيوط وديروط وديرمواس وسوهاج وقنا ، وكان الإنجليز يحسبون أن الثورة عليهم لا تصل إلى هناك أبداً . .

كان ذلك فى ١٨ مارس ١٩١٩ ، والأيام التى جاءت بعد ذلك التاريخ . .

بقلب واحد وقف القبطى والمسلم يناجزان العدو الإنجليزى دفاعاً عن وطنهما العزيز ، كما وقفا سنة ١٧٩٩ يناجزان الفرنسيين ويدافعان عن أرضهما شبراً شبراً . والقائد الفرنسى ديزيه Desais (أوديزه كما يسميه الجبرتى) متعجب من ثباتهما واستبسالهما . .

هناك فى صعيد مصر انضم مراد بك الهارب أمام الفرنسيين إلى مقاتلى الصعيد ، أولئك الفرسان الذين كان الواحد منهم يشطر الفرس شطرين بضربة من سيفه . لقد تعلم الوطنية على أيديهم ، وعرف الشهامة منهم . عاش عمره سلطاناً ضالاً ظالماً ، ومات وطنياً مجاهداً عندما فتح له أهل مصر قلوبهم . فى سوهاج مات ، وفيها دفن . .

وفى سوهاج عرف الإنجليز أن أهل مصر جيش واحد وقلب واحد ، وأنه لا سبيل إلى قهرهم . .

وكانت للإنجليز معسكرات فى أسيوط وديروط وديرمواس . .

وفى أول صدام مع الإنجليز والصعايدة سقط ثمانية من الإنجليز ، على رأسهم القائمقام بوب بك مفتش السجون فى الوجه القبلى ، والميجر جارفس والملازم ويلبى وخمسة جنود . .

واشتدت المعركة بين الجانبين ، وقام المصريون بما أمكنهم من السلاح القديم ، يواجهون الإنجليز حتى اضطر هؤلاء فى ٢٣ و ٢٤ مارس إلى إرسال طائرتين حربيتين ألقتا القنابل على أسيوط وديروط . .

وإلى أسيوط أرسلت القيادة البريطانية جنرالاً – كأنما كانوا يحاربون الألمان ! . .

وصل البريجادير جنرال هدلستون إلى أسيوط وقاد المعركة ، وفى ١٢ أبريل أصدر بياناً عسكرياً يقول فيه إنه تمكن من السيطرة على الموقف ، وقبض على ٤٠٠ رجل من أسيوط اتهمهم بالاشتراك فى الثورة . .

ثم نقل مركز قيادته إلى سوهاج ، ثم إلى أسوان . .

وقد وقفت عند معارك أسيوط وديروط وما يليهما جنوباً ، لأن اللورد كرومر تكلم طويلاً فى كتابه « مصر الحديثة » Modern Egypt عن إمكان التفريق بين الأقباط والمسلمين والاستفادة من هذا الوضع ، وأوصى فى بعض هذا الكتاب بأن تعتمد الإدارة البريطانية على الأقباط دون المسلمين . .

وفى تقرير السير باورينج كلام كثير عن هذا الموضوع ، وقد أثنى على الأقباط ثناء خبيثاً لم يرد منه الدفاع عنهم ، وإنما أراد نصح دولته بألا تعتمد فى إدارة مصر إلا على الأقباط ، فيكرههم – لهذا – إخوانهم المسلمون وتقع الفرقة بين شقى الأمة ، فيبتلى بعضهم ببعض ويجنى الإنجليز وحدهم الثمر . .

وقد أبى أهل أسيوط وديروط وديرمواس وسوهاج إلا أن يكذبوا هذه الدعوى ، ويقفوا مع إخوانهم يداً فى يد ، منافحين عن وطنهم الغالى ضد العدو اللئيم الذى يريد الشر بهم جميعاً ، وفى شوارع بلادهم وقراهم الممتدة على ضفاف النيل – نهر الجنة – خاضوا لظى معارك دامية استشهد فيها منهم مئات ، ذهبوا للقاء ربهم وعلى أذرع بعضهم وشم الصليب وعلى أذرع الآخرين وشم الهلال . .

واقرأ عند عبدالرحمن الرافعى فى تاريخه لثورة سنة ١٩١٩ (١ / ١٥٦)

تفاصيل هـــذه المعارك وإحصاء من استشهد فيها من أبنـــاء مصر جميعاً . . ستشعر وأنت تقرأ هذه السطور أنك لن تكون جديراً بمصر حتى تقدم دمك فداء لها عن قلب صادق كما فعلوا . .

وكنا ، نحن أهل مصر ، أول من طالب بالاستقلال فى إفريقيا وآسيا . بعد اليابان . .

لا تنس أننا فى سنة ١٩١٩ . .

فى تلك السنة ، وإلى الحرب العالمية الثانية ، لم يجرؤ على الثورة المسلحة فى وجه الاستعمار فى آسيا وإفريقيا وأمريكا اللاتينية إلا أبناء مصر . باستثناء أهل اليابان . .

وشعر الإنجليز بأنه لا مقام لهم فى هذا البلد . .

عاجلاً أوآجلاً لا بد أن يرحلوا . .

وهذا ما قاله أعضاء الوفد الذين كانوا يقودون الأمة فى مصر ، عندما كان سعد زغلول وأصحابه فى المنفى .

كانوا أحد عشر ، من بينهم اثنان من الأقباط : سينوت حنا وجورج خياط . .

ومن عجائب الفكر الاستعمارى أن اللورد كيرزون ـ وزير المستعمرات ـ ألقى فى مجلس اللوردات خطاباً عن الحالة فى مصر ، وصف فيه الثورة بأنها عمليات سلب ونهب ، وقال إنه تبين أن قادة الثورة يريدون إخراج الإنجليز من مصر ! . .

وهذا – فى رأيه – جريمة ! . .

وفى ٧ أبريل ١٩١٩ اضطر الإنجليز إلى الإفراج عن سعد وأصحابه المنفيين فى مالطة ، فسافروا إلى باريس لعرض قضية مصر على مؤتمرات الصلح ، ولحق بهم نفر من أعضاء الوفد فى مصر ، من بينهم سينوت حنا وجورج خياط .

وفى يوليو ١٩١٩ قبضت السلطات البريطانية على عبد الرحمن فهمى وزملائه ، ممن اتهمتهم بتأليف « جمعية الانتقام » غرضها – فيما قالت – « خلع عظمة السلطان وقلب حكومته والتحريض على الانتقام والقتل » . .

ومن بين أعضاء هذه الجمعية نجد ستة من الأقباط : توفيق صليب ومنير جرجس عبد الشهيد وكانا طالبين بمدرسة الأقباط ، وكامل جرجس عبد الشهيد وكان طالباً بمدرسة الحقوق ، وقرياقص ميخائيل الصحفى ، وعازر غبريال وناشد غبريال . . .

وهكذا : فى كل عمل من أعمال الثورة ، وفى كل خطوة من خطواتها ، نجد المسلمين والأقباط جنباً إلى جنب . .

وكلما طال أمد الثورة ، توثقت الوحدة بين المسلمين والأقباط . .

وبعد أن أخفق الوفد فى الحصول على أى كسب وطنى من اتصالاته فى باريس ثم لندن ، عاد إلى مصر فى ٤ أبريل ١٩٢٠ . هنا بدأ الخلاف بينه وبين عدلى على من يتولى رياسة وفد المفاوضات ، الذى دعته إنجلترا للتفاهم معه على مصير مصر . .

هل يرأسه سعد ، رئيس الوفد الذى منحته الأمة ثقتها ووكلته عنها ؟

أو يرأسه عدلى يكن ، الذى ألف وزارة وطنية وأيدها سعد ، ولذلك سميت « وزارة الثقة » ؟ . .

ووقع الانشقاق بين أعضاء الوفد ، وانفصل عنه خمسة وقفوا إلى جانب الحكومة . .

وبقى مع سعد – أى فى جانب الأمة – مصطفى النحاس وواصف بطرس غالى وسينوت حنا وويصا واصف وعلى ماهر .

أى أن الوفد أصبح مكوناً من ستة أعضاء : ثلاثة من المسلمين ، وثلاثة من الأقباط . .

ومرت الأيام سراعاً والشعب صامد فى موقفه متمسك بمطلبه : الاستقلال . .

وفى أكتوبر ١٩٢١ ، رأى سعد أن يقوم بجولة سياسية فى الوجه القبلى هدفها تقوية جبهة المقاومة الشعبية – التى كان يقودها – أمام ضغط الحكومة ورجالها . .

وذهب مع صحبه فى باخرة نيلية رست فى ١٤ أكتوبر ١٩٢١ فى أسيوط ، وكانت تلك أول محطة لها . .

وهنا خرج شعب أسيوط الباسل – مسلمين وأقباطاً – لاستقبال الرجال المناضلين عن الحرية . .

وأرادت السلطات أن تمنع سعداً من النزول إلى البر . .

وهنا بلغ غضب الشعب مداه ، وقرر رجال أسيوط – وفيهم عدد

كبير من الأقباط – أن يتحدوا الحكومة والبوليس . .

وجمع حامد جودة رجال بلدته ، فوقفوا صفاً واحداً حتى تمكن سعد وأصحابه من النزول ، ثم أخذهم فى سيارات إلى ضيعته ، وهناك تجمع الأقباط والمسلمون للترحيب بالمناضلين . . . لقد نص عبد القادر حمزة على هذه الحقيقة فى مقال له نشرته جريدة « الأخبار » التى كانت تصدر فى ذلك الحين . .

وبلغ من عنف المعركة بين الشعب والحكومة ، أن غرق ثلاثة من المواطنين فى النيل ، وقتل مواطن وجرح ثلاثون . .

وحدث ما يشبه هذا فى جرجا . .

وعقب ذلك أصدرت الإدارة أمراً بمنع الوفد من مواصلة الرحلة . .

وفى ٢٢ ديسمبر ١٩٢١ أصدرت السلطة العسكرية البريطانية أمراً إلى سعد بالكف عن النشاط السياسى ، وأمرته بمغادرة القاهرة إلى بلده ، وبأن يظل هناك تحت تصرف مدير المديرية . .

وتلقى مثل هذا الأمر ثمانية من أعضاء الوفد ، هم : فتح الله بركات وعاطف بركات ومصطفى النحاس وجعفر فخرى وأمين عز العرب وصادق حنين ومكرم عبيد وسينوت حنا . .

ويقول الصحفى الكبير عبد القادر حمزة فى كتابه « اذكروا سعداً وأصحابه المنفيين » إن سعداً عقد اجتماعاً لأعضاء الوفد فى بيته لتدارس الموضوع ، وطال النقاش . . وبينما هم مجتمعون وصل مكرم عبيد إلى بيت الأمة وانضم إلى الاجتماع ، وأشار برفض الإنذار البريطانى وحث على ذلك بكل حرارة . . قال عبد القادر حمزة : « . . وكانت كلمة

الأستاذ مكرم عبيد هى القول الفصل » .

وهكذا تقرر رفض الإنذار . .

وفى اليوم التالى كتب سعد إلى الفيلد مارشال أللنبي رده التاريخى الذى قال فيه كلمته الخالدة : « وبما أنى موكل من قبل الأمة للسعى فى استقلالها ، فليس لغيرها سلطة تخلينى من القيام بهذا الواجب المقدس . لهذا سأبقى فى مركزى مخلصاً لواجبى ، وللقوة أن تفعل بنا ما تشاء أفراداً وجماعات . . »

وقررت الحكومة البريطانية نفى سعد وأصحابه إلى جزيرة سيشل ، وفى ٢٩ سبتمبر ١٩٢١ غادروا السويس إلى المنفى المجهول . .

فى صحبة سعد كان مصطفى النحاس وسينوت حنا ومكرم عبيد ، وكان فى تقدير الإنجليز أن مصيرهم ينبغى أن يكون مصير عرابى وأصحابه : مات منهم فى المنفى من مات ، وعاد عرابى إلى بلاده محطماً فاقد البصر ، وقد انتهت حياته السياسية تماماً . .

أى أن النفى لم يكن مجرد إبعاد عن الوطن لفترة طويلة أوقصيرة ، بل كان حكماً بالسجن المؤبد أو الموت البطىء . .

هذا ما حدث لأحمد عرابى ، وهو ما أراد الإنجليز أن يحدث لهؤلاء الأربعة . .

وإذا كان عرابى المسكين قد ذهب ولم يعد إلا حطاماً ، فلأن الأمة لم تكن قادرة على إنقاذه فى ذلك الحين . .

وإذا كان هؤلاء الأربعة قد عادوا من منفاهم ، فلأن الأمة — التى أيقظها سعد — كانت قادرة على تحطيم قيودهم واستعادتهم . .

وقد عرفت الأمة يوم القبض على سعد ماذا يراد بها . . كان القبض عليه فى فجر ٢٣ ديسمبر ١٩٢١ . . انتزعوه من فراشه – وكان فى الخامسة والستين ، متعباً بل منهوك القوى – وأرادوا إخراجه إلى الطريق بملابس النوم ، فأبى إلا أن يرتدى ثيابه كاملة ، وزوجته صفية تعاونه وهى – من فيض دموعها – لا تكاد ترى شيئاً . .

ولا يدرى أحد كيف علم الشعب بالخبر . .

إنه إحساس الشعب . . إلهام شبيه بما تحس به الأم عندما يصاب ابنها بمكروه وهو بعيد عنها . .

جماعات جماعات ، أقبل الناس طوال الليل ورابطوا فى زمهرير الشتاء حول بيت الأمة والمنافذ المؤدية إليه . .

ودافعهم الجنود بالرصاص ، وفى ظلام الليل روعت الطلقات أمن الناس فى مراقدهم . .

وفى سكون الليل أصيب جرحى وسقط قتلى ، حملهم أهلهم وواروهم التراب فى صمت . .

ومع أولى خيوط الفجر نزل الجنود الإنجليز يحيطون بالشيخ الذى كان – يومئذ – يمثل إرادة مصر .

ومن خلفه أتت صفية زغلول تجرى ، وتحاول انتزاعه من أيدى الجبابرة . .

وفى وقار وثبات نظر إليها سعد وقال : صفية ! أرجوك . . ما تبهدليش نفسك . . ما تبهدلينيش . .

فوقفت السيدة الجليلة أم المصريين فى مكانها ، وتركته لمصيره

وهى تقول : لا عاش من يبهدلك يا سعد . .

وسار إلى الطريق ، وسرح نظره فى الجماهير الحاشدة التى أتت لوداعه على غير موعد . .

وضجت الجموع بالبكاء ، وتعالت أصوات تخنقها العبرات : إلى أين يا سعد ؟ . . إلى أين يا سعد ؟ . .

وتحدرت الدموع على وجنتى الشيخ الجليل ، ورفع رأسه وهو يسير بين حراسه إلى مصيره المجهول . .

سار رابط الجأش ثابت الجنان بخطى متزنة ، ويده اليسرى فى جيب معطفه واليمنى تتحرك بعصاه حركة منتظمة ، كعهده دائماً . .

إلى المصير المجهول ذهب ، ومن المصير المجهول استعادته أمته . .

هل تذكر جنازة عبد الناصر والجماهير الباكية التى أصرت يومها على أن تكمل المشوار ؟ . .

كما استعادت الأمة سعداً ، ستكمل المشوار . .

تلك أمتكم يا قوم !

من شك فيها فهو ليس منها ، ما فى ذلك ريب . .

مكرم عبيد ، قصة نضال تنتظر من يكتبها

وهذه أول مرة يرد فيها ذكر مكرم عبيد فى هذه الدراسات . .

ولكنه كان عريقاً فى الجهاد فى سبيل مصر ، برغم صغر سنه إذ ذاك . .

أصله وعائلته من قنا ، درس الحقوق فى إنجلترا ، وبعد عودته عمل مدرساً فى مدرسة الحقوق . .

وانضم إلى صفوف المجاهدين منذ اللحظة الأولى ، واتصل بسعد فتكشفت مواهبه ، ولمس فيه سعد الحماسة والفصاحة وحدة الذكاء والإخلاص ، فاستدناه وأصبح من أقرب تلاميذه إليه حتى سماه الناس « ابن سعد البار » ، وأصبح هذا لقبه المشهور به طوال حياة سعد . .

وعندما رأت السلطة البريطانية اتصاله الوثيق بسعد نقلته إلى وزارة الحقانية (العدل الآن) ، ولم يلبث أن استقال من خدمة الحكومة ليتفرغ للجهاد . .

كانت أسرته ذات ثراء ، وكذلك كانت زوجته عايدة ابنة مرقس حنا باشا ، فانفقا معاً على الحركة الوطنية فى سخاء . .

وفى فترة الخلاف بين سعد وعدلى كان مكرم عبيد حركة دائبة لا تسكن ، كان يخطب فى المجتمعات ويدبج المقالات ويناقش فى دار نقابة المحامين .

كان قد قيد نفسه فى سجل المحامين ونذر وقته كله للدفاع عن المقبوض عليهم فى تهم سياسية . كان يتنقل من محكمة إلى محكمة ، ويعود آخر النهار إلى بيت الأمة فيظل فيه إلى ساعة متأخرة من الليل . .

يحكون أنه فى ذات ليلة لبس معطفه ليعود إلى بيته ، كان الوقت بعد منتصف الليل ، وكانت الثورة على أشدها ، وجند الإنجليز يملأون الشوارع . .

ونظر إليه سعد ، فإذا مصطفى النحاس ينهض للخروج معه . .

فقال سعد : سيقتلونكما قطعاً . . ابقيا هنا إلى الصباح . .

فقال النحاس : أنا ومكرم شىء واحد . . نعيش معاً ونموت معاً . .

وخرجا معاً ، واختفيا فى ظلام الليل . .

كأنها كانت نبوءة . .

فعندما اختلف النحاس ومكرم ماتا معاً ، وهما على قيد الحياة ! . .

ومات الوفد أيضاً . .

* * *

خلف سعد وراءه فى مصر بقية أعضاء الوفد الذين ثبتوا معه ، وهم : حمد الباسل وويصاً واصف وعلى ماهر وجورج خياط ومرقس حنا ومراد الشريعى وواصف بطرس غالى ، وقد استمروا فى العمل غير مكترثين بتهديد الإنجليز . .

وفى ٢٥ يناير ١٩٢٢ قبضت عليهم السلطة الإنجليزية ، وحبستهم فى ثكنات قصر النيل . .

وفى الحال ظهرت الهيئة الوفدية الثانية ؛ كان تنظيم سعد محكماً . .

وكانت هذه الهيئة تتكون من : المصرى السعدى وحسين القصبى ومصطفى القاياتى ومحمد نجيب الغرابلى وسلامة ميخائيل وفخرى عبد النور . .

أربعة من المسلمين ، واثنان من الأقباط . .

ثم أفرجت السلطة عن أعضاء الوفد المعتقلين فى ثكنات قصر النيل فانضموا إلى إخوانهم الجدد ، فأصبح أعضاء الوفد الثانى ١٤ ، منهم ٨ من المسلمين و٦ من الأقباط . .

إننى أنص دائماً على هذه الأرقام ، ليرى الناس كيف كان اتحادنا متيناً . .

واستمرت الثورة وازدادت عنفاً ، وازداد نشاط الفدائيين خلال الشهور الأخيرة من وزارة محمد توفيق نسيم المشئومة ، التى تعتبر من أول

حكومات عهد الاحتلال وأكثرهم عداء للوطن وأهله . .

وبعد أن ألقيت قنبلة على المعسكر البريطانى فى جزيرة بدران بشبرا فى ١٢ فبراير ١٩٢٢ فقد الإنجليز السيطرة على أعصابهم ، ففرضوا غرامة قدرها ١٨٠٠ جنيه على سكان المنطقة (وكلهم فقراء) وجمعوا الغرامة منهم بكل أساليب العنف . .

وفى ٢٠ فبراير ١٩٢٢ اقتحم الإنجليز بيت الأمة ، فأخذوا منه ما أرادوا من الأوراق ثم أغلقوه . .

واستدعى محافظ القاهرة أعضاء الوفد وأبلغهم نبأ إغلاق بيت الأمة ، وقال إنه يعتبرهم مسئولين – شخصياً – عن أى عمل يقوم به الفدائيون . .

وفى ٤ مارس ألقيت قنبلتان على بعض الجنود فى ميدان الخازندار ، فاعتقل الإنجليز أعضاء الوفد وبعض أعضاء الحزب الوطنى . .

وعلى إثر ذلك تألفت الهيئة الوفدية الثالثة من : حسن حسيب وعلى الشمسى وحسين هلال ومصطفى بكير وإبراهيم راتب وعطا عفيفى وعبد الحليم البيلى وسلامة ميخائيل ، وأصدروا بياناً يحثون فيه الأمة على المثابرة على الجهاد . .

كان ذلك كله بعد صدور تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ ، الذى اعترفت فيه إنجلترا – تبرعاً منها ولوجه الشيطان – باستقلال مصر ، ورفعت به صنيعتها السلطان فؤاد إلى مراتب الملوك ، فارتقى من « صاحب عظمة » إلى « صاحب جلالة » . .

وفى أثناء ذلك – والمواطنون يساقون إلى السجون ويقتلون فى الشوارع والطرقات ، وسعد وأصحابه فى المنفى – كانت لجنة الدستور تعقد اجتماعاتها ،

لتضع دستوراً لشعب يعيش فى الأغلال وخلف السدود والقيود . .

حقًّا إن الاستعمار ذل وشر . .

ذل وشر عندما يأخذ ، وذل وشر أكثر عندما يعطى . .

وكان الإنجليز يعملون على إيجاد هذا الدستور – دستور سنة ١٩٢٣ – ليكون لعبة فى أيديهم يصرفون به نظر المصريين عن الاستقلال . . قبل دستور ١٩٢٣ ، كان المصريون يطالبون بالاستقلال . . وبعد دستور ٢٣ ، أصبحوا يطالبون بدستور ١٩٢٣ !

وفى الوقت الذى اختاروا فيه يحيى إبراهيم ليؤلف الوزارة التى تمهد لتطبيق الدستور ، كانوا يدربون أحمد زيور على عملية اختطاف الدستور الأولى ، ومحمد محمود على عملية اختطافه الثانية ، وإسماعيل صدقى على عملية اختطافه الثالثة . .

وقد قدر الإنجليز ماذا سيحدث بعد ذلك . . فبعد تعب ونصب واضطهاد وجرى وراء الدستور . . وبعد انتخابات ومآس ومهازل ، يكون اللاعبون جميعاً قد كلوا وملوا وطلبوا الراحة والأمان . .

وهنا ، وبدون مناقشة طويلة ، يوقعون جميعاً معاهدة ١٩٣٦ . . ويفرحون بها . .

اقرأها ، ستجدها – مع تغيير شكلى – هى مشروع ملنر ، هى مشروع كيرزون ، هى مشروع ماكدونالد ، هى مشروع هندرسون . . مع تغيير وتعديل لفظى هنا وهناك . .

دستورنا الأكبر : اتحادنا . .

ولكن شعبنا – على أى حال – جاهد وطاول وقاوم وصبر وصمد . .

وقد قاوم وصمد لأنه كان متحداً ضد الاستعمار ورجاله ، ضد فؤاد ورجاله . .

والذين كانوا فى المنفى كانوا مسلمين وأقباطاً . .

والذين كانوا فى السجون كانوا مسلمين وأقباطاً . .

وبعد الإفراج عن سعد فى ٢٠ مارس ١٩٢٣ ، تفتحت أبواب السجون فى مصر ، وخرج الأبطال المجاهدون ليبدءوا جولة جديدة من الجهاد . .

من سيشل وصل إلى مصر فى ١٩ يوليو ١٩٢٣ مصطفى النحاس ويده فى يد مكرم عبيد ، وفتح الله بركات ويده فى يد سينوت . .

ومن سجون مصر خرج المصرى السعدى وفخرى عبد النور . . وخرج محمد نجيب الغرابلى يصاحبه راغب إسكندر . . وخرج عبد القادر حمزة ويده فى يد صادق حنين . . وهكذا ، خرجوا جميعاً إخواناً متحابين متعاونين . .

وهذا – فى رأيى – هو الدستور الأكبر ، لا دستور ١٩٢٣ . . دستور الاتحاد بين أهل مصر جميعاً : أقباطاً ومسلمين . . لأن وحدة مصر هى السد الهائل الذى يحمى مصر وكل عالم العرب . . إنها الدرع الواقى لعالم العرب الشاسع . .

نعم ، ومكرم عبيد الذى عاد من المنفى فى ١٩ يوليو ١٩٢٣ وقف بعد عودته بأيام – فى أغسطس ١٩٢٣ – يخطب فى شباب شبرا ويقول

لهم مهاجماً ما كان الإنجليز يسعون إليه – إذ ذاك – من الدس لمصر والتفريق بين أهلها :

« . . . بقيت لى كلمة أخيرة عن تلك الدسيسة المنكرة التى يقوم بها المستعمرون للتفريق بين المسلمين والأقباط . .

يقولون : أقباط ومسلمون ، كلا . . بل قولوا لهم : هم مصريون ومصريون . . آباء وأمهات وبنون . .

أو قولوا لهم : إخوة ، لأنهم بدين مصر يؤمنون . .

أو أشقاء ، لأن أمهم مصر ، وأباهم سعد زغلول . .

أيقال هذا القول فى مصر ، وعن مصر ، التى علمت العالم والشرق خاصة – معنى الاتحاد المقدس ، حتى إن الهنود فى ممباسا كانوا يقولون لنا : إن مصر أستاذة الهند ومثلها الأعلى فى اتحاد طوائفها ؟ !

وإنى لأذكر أنه فى وقت خروج المنشقين من الوفد ، دب الضعف فى نفسى وذهبت مع بعض أصدقائى وقلت للرئيس : إنه لا يصح أن تكون الأغلبية فى الوفد من الأقباط ! فغضب الرئيس كل الغضب وقال : ماذا تقول ؟ إنى لا أعرفك أنت ولا إخوانك كأقباط . . بل أنتم مصريون وكفى . .

قولوا لهم : عبثاً تحاولون فصم وحدتنا ، فقد جمعتنا دماء آبائنا التى تجرى فى عروقنا ، ودماء أبنائنا التى جرت فى شوارعنا . .

عبثاً يذكروننا بانقسام مضى ، فقد غسلناه بدموعنا . .

عبثاً يقولون : هم أقباط ومسلمون فى وفدهم أو برلمانهم ، فقد كنا – ولا نزال – مصريين فى سجوننا . . .

عبثاً يفرقون بين آمالنا ، فقد اتحدت آلامنا . .
عبثاً والله . . كله عبث ، فقد اكتشفنا سر الحياة : الإخلاص .
وما اتحادنا إلا اتحاد قلوبنا ونفوسنا ومشاعرنا . .
ولن يفصلها فاصل بعد أن جمعها الواحد القهار . . »

* * *

هذا ما قاله مكرم عبيد سنة ١٩٢٣ . .

نعم ، وماذا قال جمال عبد الناصر للصحفى الذى طلبت إليه صحيفته أن يسافر من فنزويلا إلى مصر ، ليحقق أمر العجيبة التى سمعوا بها ، وهى أن جمال عبد الناصر – زعيم مصر المسلم الشاب – أمر ببناء كنيسة ؟

قال :

– كنيسة واحدة ؟ . ولماذا واحدة فقط ؟ . . هذا بلد المصريين – مسلمين ومسيحيين من مئات السنين . . الحكومة ليس لها أن تصرح أولاً تصرح ببناء مساجد وكنائس . . من أراد أن يبنى مسجداً فليبن مسجداً ومن أراد أن يبنى كنيسة فليبن كنيسة . . فالمسجد مصرى . والكنيسة مصرية . . نحن نقول . . الدين لله والوطن للجميع . . هذه شعاراتنا . . ألم تقرؤه أبداً .

(٤)

والسلام على من اتبع الهدى . . .

ونهض شباب السودان للدفاع عن وحدة وادى النيل

صدر الدستور فى ١٩ أبريل ١٩٢٣ .

صدر بعد جهاد حقيقى مع الملك فؤاد ، الذى حاول – مستعيناً برئيس وزرائه محمد توفيق نسيم – أن يجعله دستوراً ملوكياً ، هدفه الأساسى أن يحيط الملك وأسرته وأمواله بالرعاية الكاملة حتى تصبح مصر ومن فيها ضيعة له ، بحكم الدستور . .

صدر بعد أن حذف الإنجليز منه المواد التى تنص على وحدة مصر والسودان ، فكانت تلك جريمة فى حق مصر والسودان .

صدر كسيحاً مشوهاً . . وزفه يحيى إبراهيم إلى الشعب بمقدمة ، هى فى الواقع صلاة على روح الدستور . .

وبدأت اللعبة المشئومة التى وضع الإنجليز قواعدها . .

وبدأ الإفراج عن المعتقلين والمنفيين ابتداء من ٣٠ مارس ١٩٢٣ .

وفى ١٧ سبتمبر ١٩٢٣ عاد سعد وأصحابه من المنفى .

وفى ٢٨ يناير ١٩٢٤ تألفت وزارة سعد زغلول ، الأولى والأخيرة . .

فرض عليه الملك أن يأخذ معه فى الوزارة ثلاثة من خدمه وخدم

الإنجليز : محمد توفيق نسيم ومحمد سعيد وأحمد مظلوم . . وتركوا له ست وزارات يضع فيها من يشاء ، فاختار حسن حسيب وفتح الله بركات ومصطفى النحاس ومحمد نجيب الغرابلى ومرقس حنا وواصف بطرس غالى .

وقد لوحظ أن سعداً اختار لوزارته اثنين من الأقباط ، بينما جرت التقاليد بأن يكون فى الوزارة قبطى واحد ، فقال سعد كلمته الخالدة : « هذه وزارة الثورة . وعندما كان الإنجليز يطلقون علينا الرصاص لم يراعوا نسبة الأقباط إلى المسلمين . . . » إلى آخر هذه العبارة الجميلة . . .

وسارت وزارة سعد فى طريقها الحافل بالعقبات . .

وحسب البريطانيون أن المصريين قد شغلوا بأنفسهم ، وأن الوقت قد حان لفصل السودان عن مصر ، أى تعويض ما خسروه فى مصر من ظاهر السلطان بتحويل السودان إلى مستعمرة صرفة . .

وكان التمهيد لذلك حذف المواد الخاصة بالسودان من الدستور . .

وكانت أصداء الثورة المصرية قد انتقلت إلى السودان ، ونهض شبابه ليضعوا أيديهم فى أيدى إخوانهم المصريين .

وفى سنة ١٩٢٠ تألفت فى الخرطوم جمعية الاتحاد .

وفى سنة ١٩٢٢ قام الضابط السودانى الباسل على عبد اللطيف بحركته الصادقة التى نادى فيها بوحدة مصر والسودان ، فكان جزاؤه أن قبض عليه وقدم لمحكمة الجنايات فى الخرطوم وحكم عليه بالسجن سنة . .

وما كاد سعد يتسلم مقاليد الحكم حتى بدأ يوجه اهتمامه إلى شئون

السودان ، فاحتج على تمثيله فى معرض ويمبلى الذى أقيم للمستعمرات البريطانية .

وفى يونيو ١٩٢٤ بدأ الاحتكاك الحقيقى الحاسم بين سعد والإنجليز بشأن السودان ، وتكلم سعد فى البرلمان مقرراً تمسكه بوحدة مصروالسودان .

وفى الشهر نفسه تكونت فى السودان جمعية اللواء الأبيض ، للمحافظة على وحدة وادى النيل .

ثم تلت ذلك مظاهرات ضخمة ، شبيهة بمظاهرات مصر سنة ١٩١٩ . .

وعادوا إلى القبض على على عبد اللطيف ، وحكموا عليه بالسجن ثلاث سنوات ، ثم عشر سنوات أخرى فى قضية تالية . .

رحم الله على عبد اللطيف ، فقد ظل طول عمره مجاهداً فى سبيل وحدة وادى النيل ، حتى توفى فى القاهرة فى نوفمبر ١٩٤٨ .

ويوم وقف سعد هذا الموقف من السودان ، قررت الحكومة البريطانية إبعاده عن الحكم بأية وسيلة . .

وكانت الوسيلة التى اختاروها هى مصرع السير لى ستاك سردار (أى قائد عام) الجيش المصرى وحاكم السودان فى ١٩ نوفمبر ١٩٢٤ !

وفى دراسة أخرى سنلقى ضوءاً جديداً على هذه الجريمة ، ونثبت بالبرهان الساطع أن الإنجليز هم الذين دبروا اغتيال رجلهم هذا ، للقضاء على وحدة وادى النيل . .

وفى ٢٤ نوفمبر ١٩٢٤ تألفت وزارة أحمد زيور ، وكان شعارها التسليم للإنجليز بكل ما يطلبون . .

وفى ٢٤ ديسمبر ١٩٢٤ حل مجلس النواب . .

وعدنا إلى الحالة التى كنا عليها قبل صدور الدستور . .

وعرفنا حقيقة تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ ، والاستقلال الذى أعلنوه فيه . .

وعندما وصل إلى القاهرة لورد جورج لويد مندوباً سامياً – خلفاً للجنرال أللنبي – قوبل مقابلة الملوك ، وتصرف هو تصرف أولاد الملوك . .

ولم يعرف تاريخنا مع الاستعمار مندوبين سامين فى صبيانية جورج لويد ، وبرسى لورين من بعده ، ثم مايلز لامبسون ، وهو آخر أطفال الأرستقراطية البريطانية الذين أرادوا العبث بمصر ، فلم يعبثوا إلا بمن قبل أن يجعل من نفسه أداة أو موضعاً لعبثهم . .

أما شعب مصر فقد عامل أولئك الجبابرة الصغار بكل احتقار . .

وبينما كان المستوزرون وصغار النفوس من أصحاب الألقاب أو الطامعين فيها ينحنون أمام جورج لويد كان محمد التابعى ، الكاتب السياسى الأول إذ ذاك ، والدكتور سعيد عبده شاعر مصر السياسى الذى لا يضارع فى ميدان الزجل السياسى ، كانا « يمسحان البلاط » – كما نقول – باللورد جورج لويد والسير برسى لورين ، ومن جرى وراءهما من الضعاف وصغار النفوس ، مستعينين فى ذلك بأستاذ الرسم الكاريكاتيرى الذى لا ينسى إدواردو سانتيس ، وهو إسبانى . .

وعادت الأمة إلى ميدان الصراع من جديد

ومن أسف أن صغار النفوس كثروا فى تلك الأيام . .

كثيرون جدًّا تعبوا بعد كفاح قليل لا يذكر ، وكثيرون آخرون ظنوا

أن قضية الاستقلال قد سويت ، بصدور تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ وانتقال صاحب العظمة إلى مراتب ذوى الجلالة . .

وبينما كان أحمد زيور – وأمثاله من موالى الإنجليز – يجتهدون فى تصفية القضية ، بالتسليم المطلق للإنجليز ، بقى فى الميدان نفر من قادة المصريين ، متمسكين بالحق سائرين فى طريق الكفاح ، وعلى رأسهم سعد زغلول – وهو يخطو نحو السبعين ، ولكنه صلب كشجرة سنديان – وحوله رجاله : مصطفى النحاس وسينوت ومكرم وفتح الله بركات وأخوه عاطف ومحمود فهمى النقراشى وأحمد ماهر ومن إليهم . .

وبقى فى الميدان أيضاً رجال الحزب الوطنى : الرافعيان أمين وعبد الرحمن ، والصوفانيان عبد اللطيف وعبد العزيز ، وعبد الحميد سعيد ، ونفر من الأحرار الدستوريين أكبرهم عبد العزيز فهمى .

فى تلك الأيام كان منظر المسرح السياسى عجيباً فريداً . .

ملك مصر ورئيس وزرائه أحمد زيور والمندوب السامى يعملون ضد مصر . . والوفديون والحزب الوطنى ونفر من كبارالمصريين يقفون إلى جانب مصر وشعبها وأمانيها .

ملك مصر ورئيس وزرائه والمندوب السامى يصدرون أوامر يكبلون بها مصر ، التى لم تكد تشم نسيم الحرية حتى أغلقوا عليها النوافذ والأبواب . .

يصدرون قانوناً يحرم الاجتماعات ، وآخر يضع فى أقدام الكتاب والصحفيين كرات ضخمة من الحديد . .

ومع ذلك يتطلع الملك فؤاد إلى الخلافة ! ويأمر بفصل الأستاذ على عبد الرازق من سلك القضاء لأنه أصدر بحثاً يقول فيه إن الخلافة

ليست عنصراً أصيلاً فى بناء جماعة الإسلام ، ثم أخرجه من زمرة العلماء فى أغسطس ١٩٢٥ . .

ويحتج عبد العزيز فهمى على ذلك فيطرد من الوزارة .

وصاحبنا الملك فؤاد – المتطلع إلى الخلافة – يأخذ من مصلحة الأملاك الأميرية تفتيش بشبيش ، ويعطيها بدلا منه قصر الزعفران لتستعمله الحكومة قصر ضيافة لضيوف جلالته ، أى أنه يسرق تفتيش بشبيش سرقة صريحة . .

وأصحابنا « العلماء » الذين أخرجوا من صفوفهم على عبد الرازق – امتثالاً لأمر جلالته – يحتفلون . . . ولكن ، معذرة ! لندع هذه . . عسى ربك سبحانه أن يكون قد غفر لمن تاب عليه منهم . .

ويجيء نوفمبر ١٩٢٥ وفى البلاد برلمان معطل بأمر إدارى ، ولكنه متمسك بحقه فى الاجتماع فى السبت الثالث من نوفمبر دون استئذان الحكومة . .

ولكن الحكومة تحظر عقد الاجتماع ، وتغلق أبواب المجلس بالسلاسل الحديدية وتحرمه على رجال الأمة وممثليها . .

وفجأة ، فى صباح السبت ٢٠ نوفمبر ١٩٢٥ يجتمع البرلمان فى فندق الكونتننتال . . .

هنا نجد رجال مصر الأحرار – مسلمين وأقباطاً – يعلنون إرادة مصر ، ويقررون أنها فوق إرادة الملك والمندوب السامى ورئيس وزرائه جميعاً . .

هنا نجد – بين عشرات النواب والشيوخ – خيرة الأقباط : سينوت ومكرم وويصا واصف ونجيب إسكندر وجورج خياط . . إلى آخر كتيبة

المجاهدين من إخوتنا الكرام . .

بل نجد بشرى حنا . .

لقد عاد بشرى إلى الصفوف بفضل سينوت المكافح الصامت . .

ومما يلفت النظر أن سعداً – عندما رشح رجالاً من الوفديين للوزارة الائتلافية التى رأسها عبد الخالق ثروت – رشح سينوت ليكون وزيراً ، فزهد فى المنصب ورشح مكانه مرقس حنا .

وفى الثالث والعشرين من أغسطس ١٩٢٧ توفى سعد زغلول وهو فى الحادية والسبعين من عمرة ، فقد ولد سنة ١٨٥٦ فى بلدة إبيانة مركز فوة (بمحافظة كفر الشيخ اليوم) .

وانتهى بموته مجلد ضخم من تاريخ جهاد مصر فى سبيل الحرية والكرامة . .

وزارات الانقلاب ، إنما هى أحكام بتوقيع عقوبات على شعب مصر . .

وفى ١٧ مارس ١٩٢٨ بدأ مجلد من تاريخ جهاد مصر يحمل على غلافه اسم : مصطفى النحاس .

فى ذلك اليوم تألفت وزارة مصطفى النحاس الأولى ، وفى تلك الوزارة نجد واصف بطرس غالى وزيراً للخارجية ومكرم عبيد للمواصلات .

وكان مكرم قد انتخب سكرتيراً للوفد بعد موت سعد زغلول .

وانتخب ويصا واصف لرئاسة مجلس النواب .

وكان ويصا من تلاميذ سعد الذين تربوا فى مدرسته ، مثله فى ذلك

مثل سينوت حنا ومكرم عبيد ، وقد أثبت أنه – بالفعل – جدير بالثقة التى أولته الأمة إياها .

قبل دخوله الوفد كان من رجال الحزب الوطنى البارزين ، وكان قانونياً مشهوداً له بالكفاية ، وبيته فى أسيوط عريق مشهور .

ومنذ البداية بدا وكأن فؤاداً وجورج لويد أخطآ تقدير النحاس ، وكان ذلك منهما خطأ جسيماً . .

لأن مصطفى النحاس – حتى زواجه من السيدة زينب الوكيل – كان رجلاً عظيماً جديراً بالأمانة التى حملها . .

وبعد زواجه منها بدأ ينحدر . .

ولا نزاع فى أن دخول هذه السيدة ميدان السياسة – عن طريق الزواج بمصطفى النحاس – كان كارثة على النحاس وعلى الوفد وعلى مصر ، بل على عالم العرب كله . .

فلننظر الآن فيما جرى أيام وزارة النحاس الأولى ، أيام السعود . .

قلنا إن فؤاداً وجورج لويد استخفّابه . .

وقد أدى بهما هذا الاستخفاف إلى الوقوع فى أخطاء جسيمة ، كانت قاضية عليهما كليهما فى النهاية . .

وفؤاد كبرت شخصيته – بالفعل – وهو ينافس سعداً ، كما يرتفع مقام ملاكم صغير عندما يتحدى بطلاً . .

ولكنه عندما مات لم يحزن لوفاته أحد ، لأنه – بالفعل – فقد بعد وفاته سعد ذلك التماسك الذى حفظ عليه شيئاً من المهابة . .

فقد ذلك التماسك وجرى فى أعقاب جورج لويد ، ذلك الدبلوماسى

الإنجليزى الغر ، الذى يمثل أنفه لون من ألوان الاستعماريين . .

وأقدم على العبث بالأمة مستعيناً بمحمد محمود مرة ، وبإسماعيل صدقى أخرى . . ولا يدرى أحد لماذا أراد كل من هذين الرجلين أن يبطش بالأمة التى أنجبته ويعذبها ، كأن هذه الأمة لم يكفها بطش الأعداء فجاءها البلاء من ناحية بعض أبنائها ! . .

فى أثناء هذه العواصف كلها ، كان النحاس يعتمد اعتماداً شديداً على أنصاره الذين تكشفوا عن رجال بمعنى الكلمة ، ثبتوا وصبروا وصابروا وقادوا الأمة فى الطريق السليم . .

وتبدأ القصة برفض الأمة لمشروع معاهدة ثروت – تشيمبرلين فى ٤ مارس ١٩٢٨ . .

وقرر فؤاد وجورج لويد عقاب هذه الأمة !

وبدأ ذلك عقب تولى مصطفى النحاس وزارته الأولى . .

ففى ٤ مارس – أيضاً – أرسل المندوب السامى مذكرة إلى وزارة ثروت ، يحذرها فيها من التدخل فى أى موضوع يمس سلطان بريطانيا على مصر . .

ووجد النحاس هذه المذكرة على مكتبه عندما تولى الوزارة ، فرفضها .

وفى ٢٩ مارس ١٩٢٨ أرسل المندوب السامى إنذاراً للوزارة ، طالباً سحب قانون الاجتماعات الذى كان معروضاً على البرلمان . .

ورفض النحاس هذه المذكرة أيضاً . .

وفى يونيو ١٩٢٨ اتهم مصطفى النحاس وويصاً واصف وجعفر فخرى ، بأنهم ظلوا وكلاء عن الأمير سيف الدين فى قضية رفع الحجر عنه ، بعد أن تولى مصطفى النحاس رئاسة الوزارة . .

وفى ٢٥ يونيو أقبل النحاس ، وبعد ذلك بيومين تألفت وزارة محمد محمود . .

وفى ١٩ يوليو حل البرلمان وعطل الدستور . .

وأصر البرلمان المصرى على أن يتحدى إنجلترا ومندوبها السامى وفؤاداً ورئيس وزرائه محمد محمود ، واعتبر قرارى تعطيله وحله لاغيين . .

وفى مساء السبت ٢٨ يوليو اجتمع البرلمان فى دار مراد الشريعى بشارع محمد على (القلعة الآن) ، وقرر أن الحكومة خارجة على الدستور وأن المجلس لا يثق فيها وأنها – لهذا – ينبغى أن تتخلى عن الحكم . .

وفى ٢٩ يوليو ١٩٢٨ ألقى السير أوستن تشيمرلين وزير الخارجية البريطانية كلمة فى مجلس العموم قال فيها – بصراحة – إن إنجلترا تعاقب مصر على رفضها مشروعه الذى كان قد اتفق عليه مع عبد الخالق ثروت

وفى السبت الثالث من نوفمبر ١٩٢٨ عاد البرلمان إلى الاجتماع بدار جريدة البلاغ .

وبذلت وزارة محمد محمود غاية وسعها فى الانتقام من الشعب الذى رماها عن يد واحدة . .

وبينما كان محمد محمود يسير فى طريقه حاسباً أنه يزداد من رضا الإنجليز يوماً بعد يوم ، إذا بالحكومة الإنجليزية تقيل صاحبه جورج لويد . .

وكما هى العادة ، كانت لمحمد محمود مفاوضاته . . دارت هذه المرة مع المستر هندرسون وزير الخارجية البريطانية . .

وكما هى العادة أيضاً مع حكومات الاستبداد ، لم تؤد المفاوضات إلى شيء . . وكانت إيذاناً بنهاية تجربة محمد محمود ، فاستقال فى ١٢ أكتوبر ١٩٢٩ . .

الوطنية ديننا ، والاستقلال حياتنا . .

وكما يحدث فى كل الأوقات التى يشتد فيها الصراع بين مصر وأعدائها ، يظهر ما يسمونه بالخلاف بين المسلمين والأقباط فى مصر . .

فتنة تطل برأس الحية بين الحين والحين ، يحركها خصوم مصر والمصريين على أمل إضعاف جبهة مصر وإرغامها على الاستكانة والتسليم . .

ظهرت عندما دخل الفرنسيون مصر ، وكان أداتها – إذ ذاك – ذلك الجنرال التعيس يعقوب ، وقد حكينا ما كان من أمره . .

وظهرت سنة ١٩١٠ – ١٩١١ ، عندما اشتدت معارضة الحزب الوطنى وتحرج مركز الاحتلال فى مصر فى أعقاب مذبحة دنشواى وعزل اللورد كرومر ، وقد روينا خبرها أيضاً . .

وظهرت سنة ١٩٢١ ، عندما وقع الخلاف بين سعد وعدلى على قيادة المفاوضات وقد رأينا الموقف الحاسم الذى وقفه منها مكرم عبيد . .

وها هى ذى تظهر سنة ١٩٢٨ ، كجزء من العقاب الذى كانت إنجلترا تصبه على مصر وأهلها ، لترغمهم على التسليم بمطالبها وتوقيع معاهدة معها تعترف فيها بالاحتلال . .

فقد ظهرت إذ ذاك فى بعض الصحف مقالات صفراء ، تتحدث عن سخط الأقباط ومطالبتهم بحقوق أوضمانات معينة . .

من ذلك مقال نشرته صحيفة « مصر » ، تحدثت فيه عن الموظفين الأقباط ، وزعمت أنهم مضطهدون ومظلومون ، وأنهم لا ينالون حقوقهم . .

وهنا تصدى للفتنة سينوت المخلص الصادق ، فكتب فى « البلاغ » مقالاً ضافياً عنوانه « الوطنية ديننا ، والاستقلال حياتنا » . . جاء فيه :

« لا قبطى ولا مسلم ، وإنما كلنا أمام الوطن مصريون . .

وما هذه الضجة التى ثارت فى الأيام الأخيرة ، باسم الأقباط المضطهدين فى بعض الوظائف ؛ إلا إثم فى حق الوطنية وحق الحكم الدستورى ، كما هى إثم فى حق الواقع . وإنه ليكفى الإنسان أن يذكر أولئك الشهداء الذين جادوا بأرواحهم – مسلمين وأقباطاً – فداء للوطن المصرى ، لا للوطن المسلم أوالوطن القبطى ، حتى يسعر بما فى ذلك من الجلال والسمو . . »

وكان سينوت حنا يعرف أنها دسيسة ، وأن المراد منها الإضرار بمصر وأهلها جميعاً . .

وانضم المبشرون إلى صفوف أعداء الوطن . .

وبعد ذلك بقليل وقع ما أثبت صدق نظره . .

فقد روى الأستاذ محمد سيد كيلانى ، فى كتابه القيم الآنف الذكر عن الأدب القبطى ، أن المبشر الأمريكى زويمر ذهب فى يوم من تلك الأيام إلى الجامع الأزهر ، فى زى طلبة العلم ، واندس فى إحدى حلقات الدروس . .

وزويمر هذا كان صعلوكاً ينسب نفسه إلى الدين والعلم ، وهو – فى

الحقيقة – جاسوس خبيث تنفق عليه جماعة دينية فى ولاية كونيكتكات Connecticut الأمريكية ، وكان يحتمى بالسفارة الأمريكية ويكتب مقالات فى مجلة تسمى العالم الإسلامى The Moslem World، مازالت تصدر إلى الآن فى مدينة هارتفورد بالولاية المذكورة ، يطعن فيها فى الإسلام دون حياء أوخجل . .

ومثله فى هذا مثل صاحبه الأب اليسوعى هنرى لامانس ، الذى كان يقوم بعمل مشابه فى بلاد الشام ، قبل أن تقسم إلى سوريا ولبنان والأردن وفلسطين . .

اندس زويمر بين الطلاب ، ثم دخل فى حديث مع طالب وتناول كتبه ينظر فيها ، ثم أعادها إليه بعد أن دس بينها رسائل من تأليفه فى الطعن على الإسلام ، طبعها فى مطبعة إحدى الجمعيات القبطية . .

وكان غرضه الخبيث من ذلك أن تقوم الفتنة بين المسلمين والأقباط ما دامت الرسائل قد طبعت فى مطبعة قبطية . .

ولكن لم يلبث أمر الدسيسة أن انكشف . .

ونشرت الصحف مقالات لنفر من علماء الأزهر ، يستنكرون فيها عمل المبشر الخسيس . .

ونشرت « البلاغ » مقالاً عنيفاً لكاتب قبطى – هو « كليم أبوسيف » – بعنوان « المبشرون » قال فى بعض فقراته :

« عجيب أمر هؤلاء المبشرين ، فهم – برغم أننى أستطيع أن أقسم على أنهم لا دين لهم – ما زالوا يرتكبون باسم الدين كل المنكرات والمحرمات التى ينهاهم عنها الدين ، وهم ما زالوا يتمادون فى صفاقتهم

وتحديهم لشعور المصريين – بتلك الأعمال – تمادياً لا أظن أناساً رزقوا شيئاً من الحياء أو الأدب يستطيعون إتيانه وتحمل مسئوليته . .

أنتم أيها المبشرون لا أكثر من جواسيس للاستعمار . أتيتم إلى هذه البلاد لا لنشر فضيلة دين معين ، بل لاتباع سياسة شريرة موحى بها من جهات معينة . ومن نتائج هذه السياسة وقوع الخلاف بين المصريين ، والشقاق بين أبناء الأسرة الواحدة . . .

إذن ، أنتم لستم مبشرين تحثون على التحلي بالفضيلة . . إنما أنتم مجرمون تتخذون الدين ذريعة لارتكاب المنكرات وأنتم تعلمون »

وعدنا إلى كرسي التعذيب مرة أخرى !

وجاءت وزارة عدلى يكن الثانية لتمهد لعودة الحياة النيابية . .

تألفت فى ٤ أكتوبر ١٩٢٩ ، من وجوه قديمة ذات تقاطيع تركية أو شركسية ، كانت راقدة فى أضابير عهد الحماية والاحتلال ، ثم خرجت لتستنشق شيئاً من الهواء وتعود إلى أضابيرها فى سلام فى ٣١ ديسمبر ١٩٣٠ . .

وقامت وزارة النحاس الثانية فى أول يناير ١٩٣٠ .

إلى جانب النحاس نجد واصف بطرس غالى ومكرم عبيد ، وللمرة الأولى يدخل محمود فهمى النقراشى الوزارة . .

ونلاحظ أن مكرم عبيد انتقل إلى وزارة المالية ، وهو انتقال جلب عليه المتاعب فيا بعد . . وليته بقى فى وزارة المواصلات . .

وعندما اجتمع مجلس النواب الجديد انتخب ويصا واصف رئيساً له ،

أما رئيس مجلس الشيوخ فكان عدلى يكن .

وفى ٢٠ مارس ١٩٣٠ بدأت مفاوضات مصطفى النحاس مع هندرسون . .

وكان الإنجليز يحسبون أنهم أعطوا هذه الأمة درساً قاسياً على يد محمد محمود ، وأنهم – أى المصريين – لهذا – لابد قابلون ما رفضوه قبل إنزال العقاب . .

ولكن المحادثات دلت على أن الأمة مازالت قوية البنيان ثابتة فى مكانها كشجرة سنديان ضخمة . .

وعلى صخرة تمسك مصر بالسودان تحطمت المفاوضات . .

وقال الإنجليز لابد من جولة جديدة من التعذيب . .

وبدأت طلائع الإيقاع بوزارة النحاس بعريضة رفعها الأحرار الدستوريون – الذين فعلوا بالأمة الأفاعيل أيام وزارة محمد محمود – يضرعون فيها إلى « المليك المفدى » أن يتلافى الأمر بحكمته . . .

وتفضل المليك المفدى بالاستجابة للضراعة . . واستقالت وزارة النحاس الثانية فى ١٧ يونيو ١٩٣٠ . .

وكلما زادت المحنة زدنا تماسكاً . .

وقامت وزارة إسماعيل صدقى فى ٢٠ يونيو ١٩٣٠ . .

كانت محنة جديدة أريد منها استعمال أقسى وسائل العنف لتحطيم بنيان الأمة الذى زادته المحن السابقة صلابة وتماسكاً . .

وأعتقد أن القارئ يتذكر الكثيرمن بشاعات هذه الوزارة وأعمالها ، مما يغنينا عن الإعادة والتفصيل . .

وفى الظلام الدامس الذى ساد مصر خلال هذه الفترة ، وقعت ثلاث حوادث تدخل فى صميم موضوع هذه الدراسة من وحدة المصريين :

الحادثة الأولى هى ما سعى إليه المندوب السامى الجديد – وهو السير برسى لورين ، ولم يكن أحسن حالاً من سابقه جورج لويد – مرجعنا فيها بحث لمؤرخ مستشرق أمريكى من أصل أرمنى يسمى إدوارد فلافيان ، عن المندوبين السامين فى مصر ، من بعد تصريح ٢٨ فبراير إلى توقيع معاهدة١٩٣٦ .

وملخص الخبر أن سير برسى لورين عندما وصل إلى مصر مندوباً سامياً – خلفاً للورد جورج لويد فى صيف ١٩٢٩ – رأى أن يجرب بصورة جدية سلاح التفريق بين المسلمين والأقباط ، كوسيلة لتحطيم الحركة القومية فى مصر بصورة نهائية . .

بدأ باتصالات شخصية مع توفيق دوس ونخله المطيعى ، وكان وزيراً للزراعة فى وزارة محمد محمود ، فلم يرحبا بالفكرة أول الأمر . ثم جدد محاولته مرة أخرى بعد تأليف وزارة إسماعيل صدقى فى يونيو ١٩٣٠ ، وكان توفيق دوس وزيراً للمواصلات فيها . وسمع بذلك بطريرك الأقباط فاستاء استياء شديداً ، وخاف مغبة السير فى ذلك الطريق الخطر ، فأرسل رسولاً إلى توفيق دوس يرجوه أن يكف عن السير فى هذا الضلال ، ثم استدعاه إليه وحذره تحذيراً شديداً ، وأفهمه أنه لو تقدم بأى مشروع فى هذا الاتجاه فإنه – أى البطريرك – سيعقد المجلس ويعلن براءة الأقباط جميعاً من ذلك العمل . .

وعلى إثر ذلك قاطع كبار الأقباط توفيق دوس ، وظل فى عزلة تامة

حتى استقال من وزارة صدقى .

والحادثة الثانية هى الموقف الجليل الذى وقفه ويصا واصف ، رئيس مجلس النواب الذى حله محمد محمود فى ١٩ يوليو ١٩٢٨ ، ثم عاد إلى الوجود فى أثناء وزارة النحاس الثانية على إثر انتخابات ديسمبر ١٩٢٩ .

فقد كان صدقى قد بدأ بتأجيل انعقاد البرلمان شهراً بقرار أصدره فى ٢١ يونيو ١٩٣٠ ، وكان من المقرر أن يجتمع البرلمان بعد ذلك بيومين ، وأعلن رئيسا المجلسين عزمهما على الاجتماع . فأرسل صدقى إلى ويصا فى ٢٣ يونيو ١٩٣٠ يأمره بألا يتم ذلك الاجتماع ، فردّ ويصا واصف فى اليوم نفسه مؤكداً للطاغية أنه ليس من حق الحكومة أن توجه هذا الخطاب إلى رئيس مجلس النواب .

وعقب ذلك أمر صدقى – وكان وزير الداخلية ورئيس الوزراء معاً – بإغلاق دار المجلس بالسلاسل وإحاطتها بالجند . وحضر ويصا واصف والنواب ، فأمر قائد بوليس البرلمان بتحطيم السلاسل ، ودخل النواب إلى قاعة المجلس ، وجلس ويصا واصف على منصة الرياسة توكيداً لسيادة الدستور ونواب الأمة ، وأصدر المجلس قراراً باحتجاجه على تصرف الحكومة بإغلاقها المجلس ، وباستنكاره عدوانها على الدستور . .

فى ذلك اليوم – ٢٣ يونيو ١٩٣٠ – ارتفع ويصا واصف إلى مصاف رجال مصر الخالدين : لقد تحدى الحكومة التى وراءها الملك والمندوب السامى . .

وفى الوقت نفسه أرسل عدلى يكن رئيس مجلس الشيوخ إلى الحكومة

احتجاجاً شديد اللهجة . .

والحادثه الثالثة هى وقوف سينوت حنا أمام القوة الغاشمة فى المنصورة ، ليحمى بصدره مصطفى النحاس من حراب جنود كان صدقى قد أوعز إليهم بقتل النحاس ، فى أثناء زيارته لعاصمة الدقهلية فى جولة سياسية كان يقوم بها تحدياً لصدقى والملك والإنجليز .

كان النحاس واقفاً فى سيارته يرد تحية الجماهير ، وإلى جانبه سينوت . .

واندفع جنود بالحراب ليطعنوا النحاس فى ظهره . . وفى لمح البصر قفز سينوت وتلقى الحراب بذراعه . .

ونكتفى بهذه الصور الثلاث التى تبين جانباً من الدور الوطنى العظيم الذى قام به إخواننا فى الوطن ، فى أثناء السنوات السود التى خاضت مصر خلالها معارك مريرة حافلة بالدماء والمآسى والآلام . .

إن قارئ تاريخ مصر يرى أننا بنيناها معاً . .

مسلمين وأقباطاً أنشأنا هذا الوطن الأعز . .

من يوم دخل عمرو بن العاص مصر ووضع يده فى يد المقوقس — ذلك المصرى الجليل الذى خاطبه النبى صلى الله عليه وسلم بقوله : إلى عظيم القبط ! وحياه فى آخر الخطاب بقوله : والسلام على من اتبع الهدى — من ذلك اليوم تحالف العرب مع قبط مصر — يمثلهم المقوقس — على الروم وكان يمثلهم قيرس ذلك الأجنبى الطاغية ، الذى أرسله هرقل ليعاون القائد تيودور على اضطهاد أهل مصر . .

لقد طالما خلطوا بين المقوقس وقيرس ، والفرق بين الاثنين جسيم . .

فالمقوقس عظيم القبط مصرى صميم من الدقهلية فى الأغلب ،

فقد عثرنا له على أسرة وأقارب هناك وفى نواح أخرى من مصر . وابنته هى أرمانوسة المصرية – تلك الراهبة الحلوة التى خلدها جرجى زيدان بقصته المشهورة – تعتبر نموذجاً للمصرية الجميلة العفيفة المؤمنة . .

لقد أحب العرب المقوقس قبل الإسلام . كان تجارهم يسمونه القس ، وكان يعرج عرجاً خفيفاً فدللوه بقولهم « المقوقس » ، كما دللوا بنيامين أسقف مصر لأول الفتح فسموه أبا الميامين .

وتداخل العرب والقبط ، فأسلم من القبط من أسلم وبقى على نصرانيته من بقى ، وبهذين الجناحين طارت مصر عبر التاريخ . .

سلمت مصر . وسلم الجناحان !

* * *

وبعد فقد طال الحديث . . .

وتخطينا ثورة سنة ١٩١٩ وما بعدها ، ونحن الآن نتجه اتجاهاً سريعاً نحو معاهدة ١٩٣٦ ، التى ختمت مجلدًا ضخماً من مجلدات تاريخ مصر الطويل . .

وبدأ بعدها عصر مائع ، لم نكن ندرى خلاله إلى أين تسير مصر . .

لقد عاد مصطفى النحاس إلى مصر بعد توقيع المعاهدة . لم يشعر بأنه عندما وقع المعاهدة وضع نهاية لجهاده ، إذ لم تعد له وظيفة واضحة . . بل لم تعد للوفد كله وظيفة بعد ذلك ، ولهذا فقد أخذ ينحدر سريعاً ، حتى وصل إلى تناول ولاية الحكم من يد الإنجليز فى ٤ فبراير ١٩٤٤ . .

كان النحاس قد تزوج السيدة زينب الوكيل قبيل توقيعه المعاهدة ودخل بذلك فى دور محزن من تاريخه . فقد استسلم لحرمه ، وكانت

ذات طموح طامح إلى المال والجاه . .

وكان إلى جانبه مكرم عبيد ، على عهده دائماً من الإخلاص للوفد ورئيس الوفد . .

وبدأ الصراع بين زينب الوكيل ومكرم عبيد . .

صراع طويل مشئوم ، حكى بعض أطرافه محمد التابعى بأسلوبه الفريد فى بابه . .

وفى يوم من الأيام أحس مكرم أنه يقف وحده أمام مصطفى النحاس وزينب الوكيل وأحمدحسنين والقصر والإنجليز !

قصة طويلة تنتظر من يكتبها . .

قصة مكرم ابن سعد . . الذى كان يحفظ القرآن ويضمّنه كلامه بمهارة تدعو إلى الإعجاب . .

مكرم الذى قال فى دعاء ألقاه يوم ٩ أكتوبر ١٩٤٤ على إثر خروجه من السجن إلى الوزارة : « اللهم اجعلنا نحن المسلمين لك وللوطن أنصاراً ، ونحن النصارى لك وللوطن مسلمين . . »

وأعتقد أن هذا دعاء جميل يصلح ختاماً لهذه الدراسة . .

وهو يذكرنا بما قاله جمال عبد الناصر للصحفى الفنزويلى :

« . . . هذا بلد المصريين – مسلمين ومسيحيين – من مئات السنين . . والحكومة ليس لها أن تصرح أو لا تصرح ببناء مساجد أو كنائس . . من أراد أن يبنى مسجداً فليبن مسجداً ، ومن أراد أن يبنى كنيسة فليبن كنيسة . . فالمسجد مصرى ، والكنيسة مصرية . . نحن نقول : الدين لله ، والوطن للجميع . . . هذا أهم شعاراتنا . . ألم تقرأه أبداً . ؟ . . »

الفصل الرابع

تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ ميلاده ووفاته . .

بعد إلحاح وضغط شديدين من جانب اللورد أللنبي — حتى بلغ الأمر حد التهديد بالاستقالة — أعلنت الحكومة البريطانية تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ ، تعطى به مصر استقلالا زائفاً ، وحكومة دستورية وهمية . . . وكان أللنبي يتصور — ومعه كان يتصور القصر ، قصر سلطان مصر — أن لعبة الاستقلال ، والدستور ، والأحزاب والانتخابات ، والبرلمان ، ستصرف المصريين عن المطالبة بالاستقلال والجلاء وستمهد الطريق لفصل السودان عن مصر وتحويله إلى ضيعة بريطانية . .

وفى ٢٨ يناير ١٩٢٤ ، تألفت وزارة سعد زغلول ، على أساس من الدستور . .

وفى ١٥ مارس ١٩٢٤ اجتمع البرلمان ، وبدأت الحياة الدستورية . .

وفوجئ القصر — قصر « ملك » مصر — وفوجئ الإنجليز ، بما لم يكن لهم فى حساب . .

فإن الاستقلال الوهمى ، والدستور ، والأحزاب ، والانتخابات ، والبرلمان لم تصرف شعب مصر عن المطالبة بالاستقلال الكامل ووحدة وادى النيل . .

ومنذ الأسبوع الأول من حياة البرلمان ، بدأ الصراع العنيف بين

الشعب والملك على السلطان ، وتمسك الشعب بأنه – هو وحده – صاحب البلاد . .

ومنذ الأسبوع الأول – أيضاً – من حياة البرلمان ، بدأ الصراع بين الشعب والإنجليز على السودان ، فقد أصر البرلمان على أن شعب وادى النيل شعب واحد لا يتجزأ .

وشعر اللورد أللنبى بخيبة أمل .

فإن المصريين – الذين تصورهم أطفالا – أثبتوا أنهم رجال . .

ومادت الأرض تحت قدمى الملك . .

فإن رعاياه – الذين تصورهم عبيداً – أثبتوا أنهم سادة ، سادة فى بلادهم وسادة على الملك أيضاً . .

وأصدر الإنجليز ، وأصدر القصر ، حكم الإعدام على الدستور ، والبرلمان ، والشعب ، والوفد ، وسعد زغلول ، جميعاً . .

وبدأ التنفيذ منذ الأسبوع الأول من حياة الدستور . .

أى أن تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ لم يعش أبدًا . .

لم يكد يخرج إلى النور حتى بدأت عملية إعدامه . .

والذين خلقوه هم الذين خنقوه .

والواقع أنهم ما خلقوه إلا ليخنقوه !

وكانت عملية الإعدام عنيفة ، وحشية ، دامية . .

وفى أثناء المعركة ، والرصاص يتطاير ، سقط السردار السيرلى ستاك . . أصابه حظ مصر السيئ برصاصة قاتلة . .

من الذى دبر قتله ؟ . .

٢٧٣

يقول رجال القانون : ابحث عن المستفيد . .

فى هذه الدراسة سنبحث عن المستفيد . .

وسنحاول كشف النقاب عن حقائق أعجب فترة من فترات تاريخ مصر الحديث الحافل بالأعاجيب . .

(١)

لعبة تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ . .

استقلال وهمى . .

فى ٢٨ فبراير ١٩٢٢ أعلنت بريطانيا تصريحها المشهور ، الذى يعطى مصر استقلالاً وهمياً ، ويحتفظ لبريطانيا بالسلطان المطلق فى كل ما هو حيوى وهام من شئون البلاد . .

احتفظت لنفسها بالحرية الكاملة فى اتخاذ كل إجراء من شأنه تأمين مواصلاتها مع آسيا وشرق إفريقية عن طريق مصر . . وهذا يبيح لها التصرف كما تشاء فى موانى مصر كلها ، وقناة السويس ، وكل طرق المواصلات ووسائلها فى مصر . .

واحتفظت لنفسها بما سمته حق الدفاع عن مصر ، أى بأن تبقى فيها كل القوى العسكرية التى ترى إبقاءها ، ومعنى ذلك استمرار احتلال البلاد عسكرياً وسياسياً . .

واحتفظت لنفسها بما سمته حماية المصالح الأجنبية فى مصر ، وحماية الأقليات . وكان الأجانب إذ ذاك – يسيطرون سيطرة تامة على الاقتصاد المصرى ، ومعنى ذلك استمرار بقاء تجارة مصر وصناعتها ومحصولاتها الزراعية فى أيدى الأجانب ، وإيقاف كل تقدم صناعى للبلاد ، لأن ذلك يضر بمصالح الأجانب . .

أما حماية الأقليات – وأرادوا بالأقليات إخواننا الأقباط – فمعناها أن بريطانيا نصبت نفسها حامية للأقباط ، مع أن الأقباط كانوا – منذ قيام ثورة ١٩١٩ – من أشد المصريين عداء للإنجليز واحتلالهم البلاد !

أما الأمر الرابع الذى احتفظت بريطانيا لنفسها بتقرير مصيره ، فهو السودان . .

وهذا التحفظ الرابع – السودان – كان فى الحقيقة هو المقصد الأول لبريطانيا ، كما سترى فى هذه الفصول . .

وهذا هو الاستقلال الذى فرح به السلطان فؤاد ، وزفه إلى « شعبه الكريم » فى خطاب حقير وجهه إلى الشعب يقول فيه : « لقد منَّ الله علينا بأن جعل استقلال البلاد على يدنا ، وإنا لنبتهل إلى المولى عز وجل بأخلص الشكر وأجل الحمد على ذلك ، ونعلن على ملأ العالم أن مصر – منذ اليوم – دولة متمتعة بالسيادة والاستقلال ، ونتخذ لنفسنا لقب « صاحب الجلالة ملك مصر » ليكون لبلادنا ما يتفق مع استقلالها من مظاهر الشخصية الدولية وأسباب العزة القومية . . . » !

وقد بيّنا فى فصولنا السابقة عن الفدائيين أن هذا التصريح – الذى أصدرته بريطانيا من جانب واحد ، ودون دافع واضح لذلك – إنما كان نتيجة لتزايد أعمال الفدائيين المصريين وتعرض حياة الموظفين الإنجليز فى مصر للخطر. وهذا – فى ذاته – كان يضعف مركز بريطانيا فى مصر أمام الدول ، فهو يدل على أن بريطانيا عاجزة عن حماية أرواح رعاياها فى مصر ، فما بالك بأرواح الأجانب الآخرين ؟ . .

فهذا التصريح يضع حكم مصر الداخلى فى يد المصريين (فى الظاهر

وأمام الرأى العام الأوربى) . . فإذا وقع حادث عدوان من الفدائيين بعد ذلك ، على إنجليزى أو أجنبي غيره ، تحملت مصر وحدها اللوم والنتائج . .

ثم إنه يحول غضب الفدائيين إلى صدور حكامهم المصريين أنفسهم . . فبناء على هذا التصريح تصبح الإدارة المصرية مسئولة عن كل ما يصيب البلاد من أضرار ، وعلى رجالها – وحدهم – تقع المسئولية وينصب انتقام الوطنيين . .

وقد كان صدوره استجابة مباشرة لما طلبه عبد الخالق ثروت فى ٢ فبراير ١٩٢٢ ، عندما فوتح فى تولى الوزارة بعد استقالة وزارة عدلى يكن وبقاء البلاد بلا وزارة مدة تزيد على شهرين ، فى خلالهما كانت بريطانيا تحكم مصر حكماً مباشراً تحت ظل الأحكام العرفية ، وتتحمل – نتيجة لذلك – المسئولية عن أعمال رجال الوفد وضربات الفدائيين . .

وإذ ذاك كان الفيلد مارشال إدواردهنرى هايمان أللنبي هو المعتمد البريطانى ، أى حاكم مصر الأعلى . . وكان قد قدم إلى مصر قائداً عظيماً من قواد بريطانيا فى الحرب العالمية الأولى ، وكان يشعر بأن ثورة مصر وحوادثها وأعمال الفدائيين وعجزه عن الوقوف أمامها – كل ذلك يضر بهيبته وينزله من عرش مجده الرفيع . .

وكانت مطالب عبد الخالق ثروت – أو شروطه – لتولى الوزارة ، كثيرة ، منها : قبول الحكومة البريطانية إلغاء الحماية على مصر ، والاعتراف باستقلال مصر ، وإعادة وزارة الخارجية المصرية (كانت قد

ألغيت عقب احتلال إنجلترا لمصر فى سبتمبر ١٨٨٢) . وإنشاء تمثيل دبلوماسى وقنصلى مصرى . .

واشترط ثروت إنشاء برلمان من مجلسين : مجلس نواب ومجلس شيوخ . . ومعنى ذلك وضع دستور للبلاد . .

ورأى اللورد أللنبى أن الاستجابة لهذه المطالب « على الطريقة الإنجليزية » تحيلها إلى مشغلة للمصريين . . بالدستور ومواده ، والبرلمان ، والانتخابات ، والخطب والمناقشات ، والأحزاب وما إلى ذلك . . .

كل هذا يصرف نظر المصريين عن الهدف الأسمى ، وهو تحرير البلاد وإجلاء البريطانيين عن مصر . .

لهذا سعى اللورد أللنبى حثيثاً ، حتى لقد ذهب إلى إنجلترا لهذا الغرض خاصة ، فى أوائل فبراير ، وأقنع المستر لويد جورج رئيس حزب الأحرار ورئيس وزراء بريطانيا إذ ذاك ، ووزير خارجيتها اللورد كيرزون ، بضرورة إصدار هذا الإعلان أو التصريح . .

ووصل أللنبى عائداً من إنجلترا إلى مصر فى ٢٨ فبراير ١٩٢٢ ، فأعلن تصريحه فى اليوم نفسه . .

وفى أول مارس – أى فى اليوم التالى لإعلان التصريح – تألفت وزارة عبد الخالق ثروت . .

وفى ٣ أبريل ١٩٢٢ تألفت لجنة وضع الدستور – المعروفة بلجنة الثلاثين – نسبة إلى عدد أعضائها .

رفضه المصريون ورضي به السلطان

وإذ ذاك كان سعد وخمسة من أصحابه فى المنفى . وكانت تمثل الوفد فى غيابهم هيئة مؤلفة من : حمد الباسل ،وويصا واصف ، وعلى ماهر ، وجورج خياط ، ومرقس حنا ، وعلوى الجزار ، ومراد الشريعى ، وواصف غالى . .

وكانت هذه الهيئة قد رفضت الشروط التى طلبها عبد الخالق ثروت ، ومعنى هذا أن الوفد رفض مقدماً تصريح ٢٨ فبراير . وقد ظل على عدم الاعتراف به إلى النهاية ، وإن كان سعد – بعد الإفراج عنه وعودته إلى مصر – لم ير مانعاً من دخول الانتخابات على أساس الدستور ، ولكن دون قبول للتصريح . .

وفى ٢ مارس ١٩٢٢ رفض الحزب الوطنى ذلك التصريح ، والتزم مبدأه المعروف الذى يقوم على الجلاء أولا ثم المفاوضات . .

ومعنى ذلك أن القوى الوطنية والثورية – كلها – فى البلاد ، رفضت ذلك التصريح . .

ولم يقبله إلا السلطان أحمد فؤاد ومماليكه وجماعة المعتدلين وعلى رأسهم عدلى يكن وعبد الخالق ثروت ، وكانوا أفرادًا يعدون على الأصابع . .

ومع ذلك فقد تولى عبد الخالق ثروت الوزارة على أساس التصريح ، وشرع فى إعداد الدستور ، لأنه اعتقد – كما سنرى – أن هذا التصريح قد صدر لصالح السلطان وتلك الأقلية من المعتدلين فحسب . .

ونقطة الضعف عند عبد الخالق ثروت وجماعته ، هى أنهم لم يفهموا –

قط – قوة الحركة الوطنية التى قامت فى مصر ، ولم ينتبه – هو بالذات – إلى التطور الحاسم الذى شمل هذه الحركة بقيادة سعد زغلول ، وظل طول حياته السياسية بعيدًا عن إدراك هذه الرؤية ، متباعدًا عن جمهور المصريين ، معتقدًا – فيما بينه وبين نفسه – أن هذا أمر لا يليق به وبأمثاله . .

ومع أن الدستور الذى وضعته لجنة الثلاثين تحت إشرافه كان عملا قانونيًّا يستحق الثناء ، لأنه كان يتضمن الكثير من مبادئ الحرية الحقة ، إلا أن تفكيره الشخصى كان أن هذا الدستور ينبغى ألا يوضع إلا فى يديه هو وأمثاله من أهل تلك الطبقة من أبناء البيوتات المصرية ، التى نشأت فى عصر الاحتلال على فكرة أن جماعتهم هى أهل مصر الذين يعتد بهم ، وأن من عداهم من المصريين لا ينبغى أن يمسوا ذلك الدستور أو يضعوا أنوفهم فيه فيفسدوه ! وأن مهمة المواطنين تنتهى عند انتخاب نفر من أولئك السادة لمجلس النواب ، ونفر آخر لمجلس الشيوخ ، ثم ينفضون أيديهم من الأمر كله ، فلا يناقشون الحكومة ولا النواب فى شىء بعد ذلك !

وكان أمثال عبد الخالق ثروت وعدلى يكن وحسين رشدى ويحيى إبراهيم وعبد الفتاح يحيى ومن إليهم ، يرون أنهم – هم دون غيرهم – أهل الأمانة والنزاهة من السياسيين الذين ورثوا الحكم والسيادة كابراً عن كابر . . وأنهم – وحدهم – هم الجديرون بالحكم ومسئولياته ، والوصاية على الشعب « الجاهل » – فى نظرهم – مهما كثر عدد المتعلمين فى هذا الشعب . .

ونظرة إلى أسماء أعضاء وزارته التى ألفها فى أول مارس ١٩٢٢ ، تدلك على أنهم – جميعاً – كانوا من الطبقة التى سميناها « مماليك »

عصر الاحتلال وعبيد السراى : إسماعيل صدقى . . إبراهيم فتحى . . جعفر ولى . . مصطفى ماهر . . محمد شكرى . . مصطفى فتحى . . حسين واصف . . واصف سميكة . .

فهؤلاء – جميعاً – كانوا رجالاً كأنهم الكراسى المذهبة التى كانت تزدان بها قصور الماضى : كراسى فخمة وغالية الثمن ، ولكن الجلوس عليها عذاب ، كل قيمتها فى منظرها . .

ومن الواضح أن عبد الخالق ثروت كان يرى أن دستوره تحفة غالية ، ينبغى ألا توضع فى أيدى الجهال والعوام : غرفة جلوس مذهبة فاخرة ، صنعت على نمط فرنسى بلجيكى ، ومن ثم فلا يجوز أن يدخلها ويجلس على أرائكها الأفندية وأولاد الأفندية والفلاحون وأولاد الفلاحين . .

ومن المؤكد أن هذه أيضاً كانت فكرة الملك فؤاد والإنجليز عن الدستور . . أما الملك فكان – من أول الأمر – لا يريد دستوراً ولا برلماناً ، لأنه كان لا يعترف لشعب مصر بأى وجود ، ولهذا لم يكفّ عن معارضة كل كلمة تنص على الحرية ، وكل مادة تعطى للشعب أى حق ، وكل سطر يمكن أن يفهم منه أن فى مصر شيئاً غير الإنجليز ورجال الإنجليز والقصر ورجال القصر . .

وبلغ من تماديه فى هذا الطريق أنه تحالف مع الإنجليز فى محاولات تجريد هذا الدستور من أى مادة تعطى هذا الشعب أى حق حقيقى ، بل زاد على الإنجليز فى ذلك وحاول أن يمسخ الدستور مسخاً ، ولكن هؤلاء لم يجاروه فى هذا الطريق إلا إلى حد محدود ، وكان اهتمامهم موجهاً إلى إزالة كل ما يشير فى الدستور إلى صلة مصر بالسودان ،

فلما اطمأنوا إلى ذلك ، أذنوا فى توقيع الدستور وإصداره . ولم يعترض الملك فؤاد على ما فعل الإنجليز من تجريد الدستور من كل ذكر لصلة مصر بالسودان ، ولكنه كان ينفر من الدستور كله . ولهذا ظل يعارض فى إصداره إلى النهاية ، حتى أرغمه الإنجليز على ذلك فى مشهد أليم مهين لأى رجل فضلاً عن الملك . والغريب أن فؤاداً عندما أراد الانتقام لنفسه انتقم من الشعب ، لا من الإنجليز !

وهذا التصور لتفكير عبد الخالق ثروت السياسى ، هو الذى يفسر لنا كيف كان يشرف على لجنة الثلاثين ، التى وضعت الدستور ونصت على الحريات فى الوقت الذى كان فيه سعد وأصحابه فى المنفى السحيق . .

وهذا أيضاً يفسر لنا كيف أقدم ذلك الرجل على مصادرة الحريات وتعطيل الصحف على حين كانت لجنة الدستور تعمل ، وكيف سكت للسلطة البريطانية عن اعتقال المصريين دون استئذان منه ، وهو رئيس الوزارة ووزير الداخلية الذى يضع الدستور كافل الحريات . .

ذلك لأن المصريين الذين كان يمثلهم سعد زغلول لم يكونوا — فى نظر عبد الخالق ثروت — هم المصريين الذين يضع لهم الدستور ، ولأن المصريين الذين اعتقلهم الإنجليز — تحت أنفه وهو وزير الداخلية — لم يكونوا المصريين الذين صنعت لهم الغرفة المذهبة ذات الكراسى الفاخرة الغالية ! ومن هم عبد الرحمن فهمى ومصطفى القاياتى وفخرى عبد النور ومحمود فهمى النقراشى ومحمد نجيب الغرابلى ونجيب إسكندر ومحجوب ثابت وعبد الستار الباسل ومن إليهم ؟ . .

وهل كان عبد الخالق ثروت يتصور أن محمد نجيب الغرابلى —

مثلاً ، ذلك المحامى الصغير (إذ ذاك) فى طنطا – يمكن أن يكون وزيراً ؟ . . أو أن محمود فهمى النقراشى – ذلك « الخوجه » الشاب ، الذى كان القصر والإنجليز لا يرون فيه أكثر من مدبر مؤامرات واغتيالات – يمكن أن يتولى وكالة وزارة الداخلية ، بل رياسة الوزارة نفسها يوماً من الأيام ؟ . .

لهذا كله ترك ثروت السلطة البريطانية تعتقل من شاءت اعتقاله من هؤلاء الرجال دون أن يحرك ساكناً . . لأن ثروت وطبقته كانوا لا يرون أن سعداً يستحق أى تقدير خاص ، فما هو – فى حسابهم – إلا متسلق اقتحم ميدان الوزارة والرياسة فى ظروف لا يرضون عنها ، وبطريقة غير مقبولة فى نظرهم . .

وقد غاب عنهم – جميعاً – الفرق الشاسع بين سعد وصحبه من ناحية ، وبين طبقتهم من ناحية أخرى . فقد أدرك سعد قدر هذه الأمة وعرف القوة الكامنة فى كيانها ، وهذا أيقظ الملكات الكبيرة التى كانت خافية فى نفسه ، فتقدم وحمل الراية . والتحم سعد مع الشعب وكسب ثقته ، وتحدث باسمه وطالب له بحقوقه ، ونصب نفسه محامياً عن هذه الحقوق وأخلص فى ذلك ، فتشجعت الأمة وسارت فى طريقها ، وتفجرت ينابيع الثورة فى كيانها ، وتكشفت عن شعب صلب غنى بالمواهب والملكات والقدرات ، وارتدت إليها ثقتها فى نفسها بعد طول خوف وتردد ، وأطلعت رجالاً ذوى عزم وإيمان وعلم وشجاعة ، ليحلوا محل ذلك الطراز القديم من أهل الحكم ، وليصححوا مسيرة مصر كلها . ولهذا أحبت هذه الأمة سعداً وصحبه وأولتهم ثقتها ، ونفرت من أهل الحكم

القديم من مماليك القصر والإنجليز وأسقطتهم من حسابها ؛ وأبغضها هؤلاء بدورهم وتصدوا لعقابها . .

هذه الحقيقة - حقيقة وجود الأمة المصرية ونهوضها وتقدمها - كانت فى ذلك الحين خافية عن أذهان هذا الطراز من السياسيين ، الذين تكتلوا فى أكتوبر ١٩٢٢ وأنشأوا حزباً اتخذوا له اسماً يعبر عن طبيعتهم وطريقة تفكيرهم أصدق تعبير : حزب الأحرار الدستوريين . .

وما كانوا بأحرار ولا دستوريين . .

وكيف كانوا أحراراً أولئك المقيدون دائماً بأوامر الإنجليز والقصر ؟ . .

وهم دائماً على وفاق مع الإنجليز والقصر ، فيما خلا لحظات من الغضب عليهم - بين الحين والحين - من جانب دار الحماية أو قصر عابدين . ولكنه غضب السيد على تابعه ، غضب السلطان على نديمه لا يلبث أن يزول . .

وكيف كانوا دستوريين ؟ إلا على طريقة مولاهم وسيدهم ، فالدستور - عندهم - لعبة خاصة بهم ، كما قلنا . لهم - وحدهم - الحق فى أن يتصرفوا فيها على هواهم : فقد يحطمونها - مثلاً - كما فعل محمد توفيق نسيم ومحمد محمود وإسماعيل صدقى ، ويظلون - برغم ذلك - يرون أنفسهم أحراراً . . ويرون أنفسهم دستوريين أيضاً !

فؤاد . . سلطان مملوكى

ولكنهم كانوا - على أى حال - أقل سوءاً وأذى من الملك فؤاد ، ذلك السلطان المملوكى الذى يمثل الحلقة قبل الأخيرة فى سلسلة ملوك

وطواغيت تعاقبوا على عرش مصر ، منذ أصيبت بالغزوة الفارسية القاصمة للظهر سنة ٥٢٥ قبل الميلاد .

وقد كانت قاصمة للظهر لأنها جاءت فى نهاية صراع طويل جداً ، بين أمة مصر وعوامل الضعف التى لا تزال تبرى الأمم كأنها عوامل التعرية التى تزيل الجبال الشوامخ . وشعب مصر – الذى غزاه قمبيز بجحافل من أسوأ العناصر الآسيوية – كان قد خلف وراءه أكثر من ٢٥ قرناً من المقاومة والعمل والتقدم ، والسير فى طليعة الأمم والدفاع عن أرض الوطن ومعالم الحضارة . . فلا عجب أن أصابت هذه الغزوة البلاد بخراب شديد ، وكان لا بد لمصر من زمن طويل لتجمع نفسها من جديد ، ولكن كان عليها أن تواجه بعد غزوة الفرس حقد الإغريق وغيرتهم من مصر ورغبتهم فى القضاء عليها . ثم جاء الإسكندر الأكبر يحمل نسمة من انتعاش لهذا البلد ، ولكن كاسراً من كواسر ضباطه – وهو بطليموس الملقب لاجوس ، أى الأرنب – استبد بمصر عقب وفاة الإسكندر سنة ٣٢٣ قبل الميلاد معتمداً على جنده المرتزق ، وبدأ فى تاريخ مصر سلسلة الطغاة التى انتهت بفؤاد ثم فاروق ، مارة فى أثناء ذلك بعشرات من الغاصبين لم يصنع أحد منهم لمصر شيئاً ذا قيمة ، إلا نفراً يعدون على الأصابع . وليس من بين هؤلاء القليلين – قطعاً – عقبان السياسة العربية فى عصور الضعف وغيبة القانون ، من أمثال أحمد ابن طولون ومحمد بن طغج الإخشيد والصعلوك كافور ، ومن تلا . . . بعد ذلك فى عصور طويلة أسود من الهباب . .

فؤاد هذا كان نموذجاً من هؤلاء الطغاة : مصر – فى نظره – كانت

مزرعة هو وحده مالكها وصاحب كل شيء فيها . عيبها الكبير – فى نظره أيضاً – أن لها أصحاباً يسمون المصريين ، وهؤلاء المصريون مصابون بهوس المطالبة باسترداد بلادهم والسلطة عليها من يد الغاصب ، ويقولون فى جرأة غير معقولة : « الحق فوق القوة ، والأمة فوق الحكومة ! » . .

هذه العبارة البسيطة ، التى قالها سعد زغلول فى إحدى خطبه ، كانت زلزالاً خطيراً اهتز له صرح من الظلم طوله خمسة وعشرون قرناً ، وأحس لها فؤاد الجاثم على قمة ذلك الصرح بدوار شديد . .

ولكن هذا الدوار بعث السرور فى نفس ممثل بريطانيا « الفيلد مارشال إدوارد هنرى هيننن أللنبى لورد أوف مجدّو » ، الذى تربع على عرش السياسة المصرية – بعد ريجنالد ونجيت – من أبريل ١٩١٩ إلى يونيو ١٩٢٥ . وسبب سروره أن الهدف الرئيسى الذى رمى إليه عندما اقترح إعلان تصريح ٢٨ فبراير من جانب واحد – وهو شغل المصريين بعضهم ببعض وإيقاع الخلاف الشديد بينهم – قد تحقق ، وتوقفت أعمال الفدائيين ضد الإنجليز . وكان الصراع بين المصريين والقصر ، جزءاً من ذلك الصراع الداخلى الذى توقعه لورد أللنبى . .

وما نقول هذا من عندنا ، بل ذكره جورج لويد – المندوب السامى الذى خلف أللنبى – فى كتابه المسمى « مصر منذ عهد كرومر » ، قال : « إن الحكومة البريطانية عارضت معارضة شديدة فى الاستجابة لما اقترحه لورد أللنبى من إعلان تصريح بالاستقلال الذاتى لمصر مع تحفظات معينة ، ولكنها وافقت أخيراً بعد أن اقتنعت بأن ذلك يهدئ من ثائرة المصريين الذين أسرفوا فى استعمال لعبة الاغتيالات »

إننى أنصح كل دارس لتاريخ هذا البلد أن يقرأ الفصل الرابع من الجـزء الثانى من كتاب جورج لويد « مصر منذ عهد كرومر » (ص ٤٨ وما بعدها) ليعرف حقيقة الصراع الذى خاضه اللورد أللنبي ليقنع حكومته بالموافقة على اقتراحه . وكانت الحجة الكبرى التى اعتمد عليها هى أنه لا أمل فى أى تفاهم أو صداقة مع المصريين ، إلا إذا قدمت لهم الحكومة الإنجليزية بعض التنازلات التى تخفف من حدة غضبهم على بريطانيا ، وتصرف ذلك الغضب إلى وجهة أخرى .

الدستور فى تقدير الإنجليز :

وكان فى تقدير الإنجليز أن الدستور سيكون أداة إغراء وضغط وإفساد فى يد صنيعتهم الملك ، فمن رضوا عنه جعلوا الملك يرفعه إلى كرسى الحكم ، ومن غضبوا عليه أزالوه عنه ، وتكون هذه المداولة بين الطامعين فى الحكم سلاحاً فعالاً فى يد بريطانيا ، تؤدب به من تشاء وتكافئ من تشاء ، وتحول حركة المطالبة بالاستقلال فى مصر إلى حركة تنافس على الحكم وتناحر على مغانمه . .

ولم يكن هذا بالشيء الجديد على السياسة الأستعمارية الإنجليزية فى ذلك الحين ، ففى كل ممتلكاتها – الكبيرة والصغيرة – نجحت إنجلترا فى بناء أشكال براقة من الحكم المحلى ، تعطى المتمتعين به ألقاباً طنانة وملابس وقصوراً فخمة .وسلطاناً مطلقاً على الناس ، فأصبحت هذه المظاهر والبهارج شغل عملائها الشاغل فى المستعمرات ، وصرفتهم عن بلادهم ومصالحها . .

وقد نفر فؤاد وحواشيه ومماليكه من تفكير أللنبي نفوراً شديداً ، وأبدى له مخاوفه من أن يؤدى هذا الاستقلال – الذى يسعى لمنحه للمصريين – إلى طمعهم فيما هو أكثر منه ، وأن من رأيه أن تظل الأمور كما هى ، لأن المصريين – فى نظره – راضون بما هم فيه لأنهم لا يستحقون أكثر منه ، وما يقوله سعد وأصحابه إن هو إلا كلام مهيجين سياسيين ، لا يسعون إلا لتحقيق مآربهم الشخصية ، وأن الشعب مخدوع فيهم ، ولن يلبث أن يتبين خداعهم ويعود إلى الالتفاف حول العرش !

ولكن أللنبي أوضح لفؤاد أهدافه . وأفهمه أن هذا الدستور سيكون مصدر قوة له لا مصدر ضعف ، وأنه يستطيع أن يستعمله – فى حكمة – لصالح العرش وحليفته بريطانيا . ولم يقتنع فؤاد بذلك الكلام أبداً ، ولكنه اضطر إلى السكوت لأن مولاه أللنبي أمره بذلك . .

* * *

ولكن سعد زغلول ومن ورائه رجال مصر ، قلبوا هذا التفكير على أصحابه جميعاً : القصر وطبقة أهل الحكم والإنجليز وأذنابهم . .

فقد صدر تصريح ٢٨ فبراير وسعد وخيرة رجاله فى المنفى أو فى المعتقلات .

وأراد فؤاد أن يسارع بالقبض على الدستور والحكومة الدستورية بكلتا يديه ، حتى إذا عاد سعد من المنفى وخرج رجاله من المعتقلات وجدوا أنفسهم بغير عمل ؛ فها هى ذى فى البلاد حكومة دستورية قائمة ، وبرلمان قائم يتربع على كراسيه رجال « منتخبون يمثلون إرادة الشعب » كما ينص الدستور .

ولهذا فقد حرص على أن يتتبع أعمال لجنة الدستور ، ويتدخل فى كل مادة تقترحها تتضمن أى مساس بالسلطة المطلقة التى لا يرضى الملك بأقل منها . سائراً فى ذلك على درب المستبدين ، من أيام جدهم السحيق بطلميوس الأرنب ، مؤسس أسرة البطالمة أو اللاجيين .

وقد ضاق ذرع عبد الخالق ثروت بذلك ، لأنه تبين بوضوح أن الملك يتصور أن الدستور ينبغى أن يكون وسيلة لزيادة سلطة القصر لا للحد منها ؛ وأنه يرى أن الدستور الذى يضعه ثروت سيؤدى إلى إخراج الحكم من يده وأيدى حواشيه ، وتسليمه إلى الرعاع والمهيجين ومن لا يقدرون الحكم ومسئولياته ، ممن يسمون أنفسهم وكلاء الشعب وممثليه . .

وأحس ثروت أن الإنجليز من ورائه ، فجعل لا يلقى بالا إلى إرادات الملك وتوجيهاته واعتراضاته ، ومضى فى طريقه . فأبغضه فؤاد بغضاً شديداً ، وعول على الخلاص منه ومن وزارته فى أقرب فرصة . وأحس ثروت بذلك ، فجعل يحث لجنة الثلاثين على الإسراع فى عملها ليفوت على الملك هدفه .

وأصبحت المسألة سباقاً بين فؤاد وثروت ، أو الملك وطبقة المعتدلين من أهل الحكم الذين تحدثنا عنهم ، ممن نشأوا فى أيام الاحتلال وبلغوا الجاه والقوة فى ظله ، وأصبحوا يعتقدون اعتقاداً حقيقياً أن مصالح مصر لا تتحقق إلا إذا ظل الاحتلال قائماً ليحمى مصر ومصالحها من العدوان الخارجى ، ووضعت مقاليد الحكم فى يد هذه الطبقة وحدها . فبينما كان ثروت يوحى إلى لجنة الثلاثين بأن تتوسع فى سلطات البرلمان والحكومة الدستورية – على اعتبار أنه هو وطبقته هم الذين سيؤلفون

هذا البرلمان ويقومون بهذه الحكومة الدستورية – كان فؤاد يعمل على ضمان أكبر قدر من الامتيازات لنفسه ولبيته قبل أن يصدر الدستور . .

فى ١٣ أبريل ١٩٢٢ – ووزارة عبد الخالق ثروت ماضية فى وضع الدستور – أصدر فؤاد مرسوماً بحصر الملك فى نفسه وأولاده من بعده ، ويعين ابنه فاروقاً ولياً للعهد .

وفى ١٠ يونيو ١٩٢٢ أصدر مرسوماً آخر بتنظيم الأسرة المالكة ، يجعل به نفسه صاحب الولاية المطلقة عليها ، ويحصر من يجوز لهم أن يسموا أمراء ويؤلف مجلس البلاط ، وذلك كله خشية أن يخطر ببال أحد من الأمراء أن يستفيد من الأوضاع الدستورية القادمة ، بالتقرب إلى رؤساء الوزارات أو النواب أو الشيوخ . .

وفى ١٧ يوليو ١٩٢٢ صدر مرسوم بتصفية أملاك الخديو عباس حلمى الثانى ، حتى لا يبقى له فى البلاد أى أثر ، فلا يخطر ببال أحد من أولاده أن يطمح بنظره إلى ملك أبيه . .

وفى أكتوبر ١٩٢٢ – وبعد أن تم وضع الدستور ولم يبق إلا إعلانه – أنشئ حزب الأحرار الدستوريين ، وهو مؤسسة ملكية صرفة حدد بها الملك من الذين سيقومون بالحكم فى ظل الدستور ، حتى إذا ما صدر هذا الدستور تسلم الحكم أصحابُ الحق فيه . .

وقد فطن إلى هذه الحيلة عدلى يكن ، وأحس أن الملك عندما رشحه رئيساً لحزب الأحرار الدستوريين ، إنما أراد أن يستر أتباعه وزعانفه

بشخصية عدلى ، فاستقال وحل محله فى رئاسة ذلك الحزب عبد العزيز فهمى .

ولم تخف هذه الحيلة على الشعب اليقظ ، فاغتال الفدائيون إسماعيل بك زهدى وحسن باشا عبد الرازق عضوى مجلس إدارة الحزب فى مساء ١٦ نوفمبر ١٩٢٢ . ولم يكن الفدائيون يريدون اغتيال هذين الرجلين بالذات ، وإنما أرادوا أن يقولوا للملك : « لقد عرفنا حيلتك وما ترمى إليه من وراء إنشاء حزب أحرارك الدستوريين ، فهم أعداؤنا كما أنت عدونا ، وهذا مصيرهم على أيدينا » . ثم أصاب الرصاص أول الخارجين من دار الحزب فى شارع المبتديان بعد اجتماع ليلى طويل ، وأراد القدر وحده أن يكونا إسماعيل زهدى وحسن عبد الرازق . .

وفى ٢٩ نوفمبر ١٩٢٢ ، وبعد إتمام الدستور ، استقال عبد الخالق ثروت دون أن يذكر فى كتاب استقالته سبباً ، ولكن لهجة الكتاب تدل على أن الملك ظل يطارده حتى ألقاه خارج الباب . .

وفى اليوم التالى للاستقالة ، عهد الملك إلى مملوكه وربيبه محمد توفيق نسيم فى تولى الوزارة .

الدستور . . فى تقدير الملك

وكتاب نسيم بقبول تولى الوزارة يصور بأجلى بيان سياسة الحكم « الدستورى » الذى رسمه فؤاد لمصر فى عصر الحرية والدستور وسيادة الشعب . قال محمد توفيق نسيم : « لما كنتُ فى سعة دائمة من فضل مولاى ، فقد تعطف ودعانى لتولى الحكم والبلاد ترى وضع نظامها وفق

ما أنالها جلالته وأعطاها . وما أنا إلا عبد من رعاياه فرضت عليّ طاعته . . . ».

وبقية الخطاب على هذا النحو الذليل . .

واصطحب محمد توفيق نسيم معه مجموعة من مماليك القصر ، ممن يشاركونه فى الاعتراف بأنهم من عبيد الملك « الذى فرضت عليهم طاعته » ، كأنه هو الذى خلقهم من دون الله سبحانه !

وقد اختار الملك نسيماً ليحقق له غرضاً معيناً : هو تجريد الدستور من كل مادة تنص على حقوق الشعب ، وكل لمحة يمكن أن تحد من السلطان المطلق الذى تمسك به فؤاد تمسكاً شديداً ؛ وما عجز الملك عن إدراكه أيام ثروت حاول إدراكه أيام نسيم . .

وتوكل محمد توفيق نسيم وأصحابه على الملك – لا على الله – وأعادوا النظر فى الدستور ، فأزالوا منه النص على أن الأمة مصدر السلطات ، وجعلوا للملك حق إصدار مراسيم لها قوة القانون ولو فى أثناء دور انعقاد البرلمان ! وأخرجوا بعض معاهدات من رقابة البرلمان ، وأطلقوا يد الملك فى الأوقاف وأموال الأوقاف ، وأخرجوا الميزانية من سلطة مجلس النواب ، حتى تكون تحت تصرف الملك يفعل بها ما يشاء . . ومسائل أخرى عديدة حصرها عبد الرحمن الرافعى فى الجزء الأول من كتابه « فى أعقاب الثورة » (ص ٩٠) خلاصتها أنهم جعلوا الدستور ثوباً مفصلاً على مقياس الملك وحده . .

وعندما رأى الإنجليز ذلك تشجعوا هم أيضاً وطالبوا بتعديل بعض مواد الدستور التى لم تكن ترضيهم ، وأهمها – فى نظرهم – المادة ٢٩ التى تنص على تلقيب الملك بـ« ملك مصر والسودان » فطالبوا بأن

يكون لقبه « ملك مصر » فحسب ، أى أنهم فصلوا السودان عن مصر فصلاً تاماً باعتراف مصر نفسها ؛ وهى جريمة كبرى وافق نسيم ووزراؤه على ارتكابها دون مبالاة !

وطالب الإنجليز بإزالة كل ما يشير إلى الصلة الطبيعية بين مصر والسودان ، لأن فصله عن مصر تماماً للانفراد به كان هدفهم الأول من إعلان تصريح ٢٨ فبراير ، كما سنرى فيما يلى من هذه الفصول . . .

أى أن الملك وعبده محمد توفيق نسيم جعلا من الدستور وثيقة اعتراف من مصر بالتسليم فى كل حقوقها ، بدلاً من أن يكون وثيقة اعتراف بحقوق شعب مصر ، بعد جهاده الطويل فى سبيل هذه الحقوق . .

وأغرب ما فى الأمر أن محمد توفيق نسيم استقال بعد أن أدى هذه المهمة !

وما زلت أقول لنفسي بين الحين والحين : هل يمكن أن يبلغ بإنسان التلذذ بالتعبد للعرش وصاحب العرش درجة تجعله يجرم فى حق بلاده ومواطنيه دون أن يكون له من وراء ذلك كسب يذكر؟ . .

فإن نسياً لم يكسب من وزارته تلك شيئاً . .

فقد كان – من قبل هذه الوزارة – غنياً ، وكان من أصحاب السعادة الباشوات ذوى المال والجاه . ولم يكن أحد ليضطره إلى تولى الوزارة لوشاء الاعتذار عن توليها ، والمعاذير والتعلات كثيرة ، لو أنه أراد أن يلتمس معاذير يتجنب بها ارتكاب هذه الجريمة الشنعاء . .

ولكن محمد توفيق نسيم قبل الوزارة ليقوم بجريمة فى حق بلاده ، لأنه كان من أولئك الذين يحسون أنهم عبيد الملك حقاً ، وأن وظيفتهم

فى الحياة هى طاعة الملك ، ليظلوا دائماً فى رعايته السامية ، فيمنحهم المزيد من المال الحرام . .

إن غضب الله أهون عند هؤلاء الناس من غضب الملك !

وفى هذا المجال لم يكن محمد توفيق نسيم - وا أسفاه ! - فريداً فى بابه فى تاريخ مصر أو غيرها من دول الشرق فى ذلك الزمان . .

* * *

وردّت الأمة على ذلك التفريط المشين بمزيد من أعمال الفدائيين ، أيام وزارة نسيم وبعد استقالتها .

وقامت السلطة - بدورها - باعتقالات جديدة .

وفجأة طلع على الناس بيان بتأليف وزارة جديدة يرأسها يحيي باشا إبراهيم ، وكان أحد وزراء نسيم .

ولا يحتاج الإنسان إلى تفكير طويل ليفهم لماذا تألفت هذه الوزارة فجأة فى ١٢ مارس ١٩٢٣ ، بعد أن ظلت البلاد دون وزارة مدة شهر بعد استقالة نسيم .

فإن يحيي إبراهيم نفسه يقول - فى خطاب تشكيل وزارته - إنه معتمد فى أداء مهمته على مساعدة المندوب السامى ، وهى عبارة انفرد بها دولته من بين أصحاب الدولة الذين توالوا على الحكم فى ذلك العصر المنكود .

وتفسيرها - بحسب ما نفهم - أن يحيي إبراهيم يقول - بصراحة - إنه رجل الإنجليز ، كما كان توفيق نسيم رجل السراى . .

فإن الملك حينما عهد بالوزارة إلى نسيم كان يسعى لضمان مصالحه هو ، وتناسى الهدف الرئيسى الذى دفع الإنجليز إلى إعلان تصريح

٢٨ فبراير ، وهو التستر بالاستقلال الزائف من غضب الشعب وضربات الفدائيين ، والتمهيد لفصل السودان عن مصر والانفراد به انفراداً تاماً . .

ولهذا كان لا بد للإنجليز أن يبعدوا توفيق نسيم ، ويأتوا إلى الحكم برجل يحقق لهم مآربهم . .

وكانت أعمال الفدائيين – إذ ذاك – على أشدها ، وكان الإنجليز فى حالة رعب من هذه الأعمال ، فأرادوا أن يوقفوها ، وكانت وسيلتهم فى ذلك إبعاد هذه الوزارة البغيضة ، والإتيان بأخرى للتمهيد لتصحيح الانحراف الشديد ، الذى ارتكبه الملك ورجاله عن الطريق الذى رسمه أللنبى . .

فجعلوا يحيي إبراهيم يعيد الدستور إلى الصورة التى وضعتها لجنة الثلاثين ، فيما عدا حذف كل ما ينص على وحدة مصر والسودان . .

فهذا كسب ما كانوا ليفرطوا فيه بأية حال . .

وكل تصرفات يحيي إبراهيم – بعد ذلك – تدل على أنه رجل الإنجليز ، وأن مهمته كانت الإسراع بإصدار الدستور كما وضعته لجنة الثلاثين ، فيما عدا ما يتعلق بصلة مصر بالسودان . .

وفى ١٩ إبريل ١٩٢٣ أمر الإنجليز يحيي إبراهيم بأن يذهب إلى الملك ، وينقل إليه أمراً بضرورة توقيع الدستور مساء ذلك اليوم . .

وفى الساعة التاسعة والدقيقة ٤٥ ، طأطأ الملك المتعاظم على الشعب رأسه أمام الإنجليزوجمع وزراءه فى قاعة العرش ، وفى الحادية عشرة وقع الملك الدستور أمام الوزراء . .

وفى ٣٠ أبريل صدر قانون الانتخاب .

وكانت الحكومة البريطانية قد قررت فى ٢٧ مارس الإفراج عن سعد وصحبه وسمحت لهم بالعودة إلى مصر ، وأصدرت بذلك بياناً فى ٣١ مارس ١٩٢٣ . وكانت صحة سعد قد تأثرت من حياة النفى فى جبل طارق ، فاتجه إلى إيكس ليبان فى فرنسا ليستعيد ما ضاع من صحته . ويذهب لورد جورج لويد فى كتابه إلى أن طبيب سعد نصحه بالذهاب إلى فرنسا دون حاجة حقيقية إلى ذلك ، وإنما كانت هذه تعليمات إنجليزية هدفها إبعاد سعد عن مصر أطول مدة ممكنة ، دون أن يكون منفياً . .

وتوالت أوامر الإفراج عن المنفيين والمعتقلين .

وفى ٢ يوليو ١٩٢٣ صدر ما يسمى بقانون التضمينات ، وهى ترجمة خاطئة لاسمه بالإنجليزية ، وبه قبلت حكومة مصر الاعتراف بقانونية كل ما أصدره الإنجليز من أوامر وقرارات ظالمة فى ظل الأحكام العرفية . وذلك لكى يضمنوا أن البرلمان لن يعيد النظر فيما اقترفه الإنجليز ، وأن أحداً لن يطلب تعويضاً ، فكان الأولى أن يسمى هذا القانون قانون إلغاء التعويضات . .

وبهذا لم يعد لأى مصرى جرى عليه ظلم – من فصل من عمله أو مصادرة فى ماله أو نفسه أو حرمان من حق له – أن يعود على الحكومة البريطانية بطلب تعويض .

وفى ٥ يوليو ١٩٢٣ ألغيت الأحكام العرفية .

وفى يوم ١٨ يوليو ١٩٢٣ صدر قرار بتعويض من يريد ترك خدمة الحكومة المصرية من الإنجليز تعويضاً سخياً . وقد خسرت مصر بهذا القانون بضعة ملايين ، ولكنها – كذلك – تخلصت من عشرات من

الموظفين الإنجليز .

وفى ١٩ سبتمبر ١٩٢٣ عاد سعد زغلول إلى مصر ، ودبت الروح فى المسيرة الوطنية من جديد .

وفى ١٢ يناير ١٩٢٤ أجريت الانتخابات .

ومن دلائل كراهية الشعب للملك والإنجليز وكل من ينتسب إليهم أنه لم يفز من الأحرار الدستوريين إلا ستة أفراد ، فازوا فى مناطق أملاكهم وحصلوا على أصوات مزارعى قراهم . .

وفى ٢٨ يناير ١٩٢٤ ألف سعد وزارته ، وزارة الشعب .

كان – إذ ذاك – شيخاً فى الثامنة والستين من عمره ، ولكنه دخل الوزارة فى عزمة رجل فى أربعينياته : دخل قوياً متحمساً مؤيداً من الشعب مستعداً للصراع . .

ولم تنقض أيام على تسلم وزراة الشعب مقاليد الحكم ، حتى أحس الفيلد مارشال أللنبي بخطأ ما صنع عندما أصر على إصدار تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ . .

فإن سعداً عرف كيف يفيد من الكسب القليل الذى أعطاه هذا التصريح ، على نحو روع الإنجليز والملك جميعاً . .

ومن أول يوم دخل فيه الحكم ، عول على أن يخوض مع السراى معركة حقوق الشعب ، ومع الإنجليز معركة السودان . .

ومنذ الأسبوع الأول لوجود سعد فى مبنى مجلس الوزراء القديم فى ميدان لاظوغلى ، قرر الإنجليز والقصر القضاء على سعد وعلى الدستور . .

وتلك هى المقدمة الأولى لاغتيال السردار !

(٢)

اختلاس السودان . .

ينفرد أحمد فؤاد بخاصية فريدة فى بابها بين خصائص الملوك على طول التاريخ . .

ذلك أنه كان يكره شعبه كراهة بالغة العمق . فى أحاديثه الخاصة كلها كان دائم الوقوع فى شعبه ، ولا يزال يكرر القول بأنه شعب جاحد للجميل لا يستحق أى « إحسان » . . وأن هذا الشعب مدين لأجداده من أسرة محمد على بكل شىء . .

وفى الوثائق البريطانية التى وضعت تحت تصرف الجمهور منذ سنتين — عبارات يتعجب لها الإنسان ، قالها أحمد فؤاد لممثلى بريطانيا ورجال المندوب السامى فى مصر . فقد كان يصر دائماً على تحقير شعبه واتهامه بالحمق والاستسلام للمهيجين ، ويلح على الإنجليز فى ترك قياد هذا الشعب له وحده ، فهو يعرف كيف يؤدبه !

ولكن الإنجليز الذين كان يتحدث إليهم أحمد فؤاد كانوا لا يثقون فيه ، وكانوا يعرفون من نقائصه أكثر مما كان شعب مصر يعرف ، وأظهر هذه النقائص أنه كان لصاً ، يسرق الأراضى والضياع والعقار والأموال من الأوقاف ومن الأملاك الأميرية ، بل من أقاربه هو . . ومن المعروف أن الأميرتين اللتين تبرعتا بجزء كبير من مالهما لإنشاء الجامعة المصرية القديمة ، إنما فعلتا ذلك حتى لا يستولى فؤاد على ذلك المال !

وقد أوضحنا فيا سبق مقدار معارضة فؤاد فى إصدار تصريح ٢٨ فبراير – على ضآلته – وحرصه على منع إصدار الدستور ، ثم سعيه فى تشويهه . .

وعندما أمره الإنجليز بأن يمتثل لأوامرهم وأن يدع الدستور على الصورة التى يريدون ، أسرع فدعا وزراءه ووقّع على ذلك الدستور أمامهم قرب منتصف الليل . .

ولكنه حرص فى الخطاب الذى وجهه إلى سعد ليقوم بتأليف الوزارة – عقب فوزه الساحق فى الانتخاب – على ألا يشير بحرف واحد إلى فوز سعد أو إلى ثقة الأمة فيه . .

لأن هذه الأمة كانت جزءاً من التركة التى ورثها فؤاد ، ونفسه لاتطاوعه على الإقرار بأنها رفضت الملك ورجاله وبايعت الرجال الذين شاءت أن توليهم ثقتها . .

ولهذا فهو يقول لسعد فى ذلك الخطاب ، بعد الديباجة :

« . . ولما أنتم عليه من الصدق والولاء ، وبما تحققناه فيكم من عظيم الخبرة والحكمة وسداد الرأى فى تصريف الأمور ، وبما لنا فيكم من الثقة التامة . .

قد اتجهت إرادتنا توجيه مسند رياسة وزرائنا مع رتبة الرياسة الجليلة لعهدتكم ، وأصدرنا أمرنا هذا لدولتكم للأخذ فى تأليف هيئة الوزارة » . . هكذا ولا زيادة !

ولا كلمة واحدة عن الشعب وثقته ، والانتخابات ونتيجتها !

وجاء رد سعد على تكليف الملك وكأنه صفعة لم يتعود مثلها فؤاد . . فهو يقرر – المرة بعد المرة – أنه جاء للحكم بقوة الشعب ، وباسم الشعب ،

ليحقق مطالب الشعب فى الاستقلال والتقدم والعدالة ، وأن قبوله مسئولية الحكم لا تعنى قبوله لأى وضع أو حـــال يستنكره الوفد لتعارضه مع مبادئه . .

ويحكون حكاية قصيرة تصور موقف الملك من سعد فى ذلك الحين . .

قالوا – والحكاية هنا تبدو صحيحة – إن سعداً عندما ركب إلى جوار الملك ، فى العربة المذهبة تجرها الجياد المطهمة ، لافتتاح البرلمان فى يوم السبت الخامس عشر من مارس ١٩٢٤ ، تعالت هتافات الشعب على طول الطريق لسعد وحده . .

وعندما وصل سعد إلى البرلمان ، وقبل أن يلقى خطاب العرش ، نادى حسن ياسين – وكان أصغر النواب سنًّا – وهمس فى أذنه يوصى لجنة الطلبة ، التى كانت تشرف على نظام جماهير الشعب فى طريق الموكب فى ذلك اليوم ، بأن تجعل هتافها : « يعيش الملك ويحيا سعد ! » فى أثناء عودة الملك إلى قصره . .

وعندما ترددت هذه الهتافات ، والعربة المذهبة ذات الجياد المطهمة تتبختر عائدة من البرلمان إلى قصر عابدين ، همس سعد فى أذن الملك :

– الشعب يهتف لجلالتكم . .

فابتسم الملك ذو الوجه الأحمر فى لون طربوشه ابتسامة صفراء فى لون مرارته الملتهبة وقال :

– متأكد ؟ !

وهذا التراشق الهامس ، بين سعد والوريث قبل الأخير لبطليموس الأرنب ، يذكرنا بما يسمى فى مصطلح مصارعة الثيران بتغيير الثُّلث

el cambio de tercio ، عندما يتعالى صوت النفير الأخير ، مطالباً مساعدى المصارع بأن يخلوا الحلبة لكيلا يبقى فيها غير الثور والمصارع وجهاً لوجه . .

* * *

وبينما كان سعد يتأهب ليخوض جولته مع الملك ، إذا بالخصم الثانى لشعب مصر .. وهم الإنجليز – يعلنون أنهم يدخلون المعركة هم الآخرون ضد هذا الشعب . .

السودان : نداء المعركة مع الإنجليز :

ولم يمهلهم سعد لكى يستعدوا ، بل بادر هو إلى التحدى . .

واختار موضوع السودان ليكون مجالا للمعركة معهم . وكانت إنجلترا قد رسمت خطتها على فصله عن مصر نهائيًّا ، وتحويله إلى مستعمره خاصة بها ، بعد أن فقدت الأمل نهائيًّا فى شعب مصر ، ذلك الشعب المشاغب الذى شق بصوته الغاضب المحتج عصا الطاعة على الإنجليز ، وروع سكون الاحتلال – أو ما يسمى بالسلام البريطانى « باكس بريتانيكا » Pax Britannica – بثورته التى قلبت كل حسابات الإنجليز . .

وقد رأينا كيف حرصت بريطانيا على أن تجعل هذا القدر الضئيل من الاستقلال الذى نالته مصر مقصوراً على جزء من أرضها ، دون أن يمتد فيشمل بقيتها فى ذلك العصر وهو السودان . .

ونحن اليوم نفخر بالسودان الأخ الشقيق والجار المستقل الذى يتلمس طريقه – مثلنا – نحو التقدم والقوة والرخاء . .

ولكن السودان ، فى أيام سعد ومنذ مطالع القرن التاسع عشر ، كان جزءاً من وطن وادى النيل الكبير ، الذى كان يشمل – قانونيًّا وسياسيًّا – حوض النيل كله من منبعه إلى مصبه .

وفى أيام محمد على ثم إسماعيل ، كان هذا الوادى كله مديريات – أى أقساماً إدارية – من بلد واحد ، تبدأ من مديرية خط الاستواء – أو إكواتوريا – وتستمر إلى الإسكندرية ورشيد ودمياط وسيناء .

ولو كان قد سار سيره الطبيعى ، أى لو أن الإنجليز تركوا هذا الوادى وشأنه لكان مصيره إلى الأمة الواحدة .

وكان هذا يكون أجدى على أمم الوادى جميعها ، فإن عالم اليوم والغد عالم قُوى ضخمة ومساحات شاسعة .

وما يسمى اليوم بالطوابع المحلية ، أو الاختلافات الإقليمية – فى بلاد إفريقية وآسيا خاصة – إن هو إلا من عمل الاستعمار الذى تسلم – على سبيل المثال – قطراً واحداً تاريخيًّا وعنصريًّا وسياسيًّا ، هو بلاد الشام بمفهومه العربى المعروف ، فقسمه إلى أربع وحدات سياسية ، هى سوريا والأردن ولبنان وفلسطين . .

فكان من أولى نتائج هذا التقسيم ، تسليم فلسطين للصهيونية لتفعل بها ما فعلت .

والخطة التى رسمتها بريطانيا لوادى النيل فى عصر سلطانها الاستعمارى الشامل شبيهة بما رسمته هى وفرنسا لبلاد الشام . فقد بدأت ففصلت أقاليم منابع النيل وحولتها إلى مستعمرات ، ثم سعت لفصل مصر عن السودان لتستبد وحدها بالسودان . .

ثم بدأت التآمر على السودان نفسه لتجزئته ، ومأساة جنوب السودان مازالت مشكلة خطيرة يواجهها القطر الشقيق ، وكل ما جرى ويجرى هناك إنما هو حلقات من سياسة واحدة ، رسمت منذ أيام كرومر ، هدفها تحطيم وادى النيل . .

وفى العصر الذى نتحدث عنه ، لم يكن هناك – فى الحقيقة – قطر يسمى السودان منفصلا عن مصر ؛ ولم يكن هذا المفهوم مقصوراً علينا نحن المصريين ، بل كان يشاركنا فيه أهل السودان ، وربما بصورة أوضح .

فعندما قام محمد أحمد المهدى بثورته المعروفه فى السودان ، كان هدفه – كما يتبين من رسائله – تحرير البلاد من « الكفار والأتراك » ، أى من الإنجليز والترك العثمانيين . ولقد قرأت رسائله من سنوات ، ونشرت بعضها وعلقت عليها ، فما وجدت فيها سطراً واحداً ضد مصر أو المصريين .

لقد كان أعداء محمد أحمد المهدى ، ذلك الزعيم الدنقلاوى الكبير ، هم أنفسهم أعداء أحمد عرابى ومصطفى كامل ومحمد فريد وكل زعماء النهضة فى ذلك العصر : الإنجليز (وحلفاؤهم من الأوروبيين) والأتراك ، ولم يقل المهدى مرة واحدة – إن هدفه هو تحرير السودان من مصر أو فصله عنها .

فقد كان المهدى زعيماً إسلامياً عامًّا ، يتجه إلى جمع كلمة المسلمين لا إلى تفريقها ، والمهدى نفسه يتحدث فى رسائله عن تفكيره فى الاستمرار فى الفتح ، حتى يدخل مكة والمدينة ويعيد مجد الإسلام .

فمن أين إذن أتى القول بأن محمد أحمد المهدى ثائر جزيرة أبا ،

بين الدويم وكوستى – كان كارهاً للمصريين ساخطاً عليهم وراغباً فى الانفصال عنهم ؟

أتى من الإنجليز !

الإنجليز الذين رسموا خطة القضاء على ثورة المهدى يتحملون أكبر المسئولية عن قيام هذه الثورة ، فحتى إذا جارينا الإنجليز فى القول بأن الثورة قامت ضد الحكم المصرى ، فإن هذا الحكم كان بيد رجل إنجليزى هو تشارلس غوردون منذ سنة ١٨٧٤ ، ومن قبله كان يحكم السودان باسم مصر السير صمويل بيكر منذ سنة ١٨٦٩ ، فإذا كانت الثورة قد بدت طلائعها سنة ١٨٨١ ، فإن الذين يُسألون عن سوء الحكم الذى أدى إليها ، هما هذان الإنجليزيان ومن كان يعاونهما من الأوربيين ، من أمثال رودولف فون سلاتين (سلاطين باشا) ورومولوجيسى Romulo Gessi . وشايبه لـــونج الأمريكى Chaillé Long وجايجـــلر باشا Geigler ومن إليهم . فقد كان هؤلاءهم أصحاب السلطان المطلق فى السودان ، وكان الذين عملوا تحت يدهم من المصريين يؤدون أعمالهم المحدودة ، دون أن تكون لهم يد فى رسم سياسة أو توجيه إدارة . . .

ومن عجب أن تكون حكومة السودان كلها بيد الإنجليز ، ثم يلقون التبعة بعد ذلك على المصريين !

والحقيقة أن هؤلاء الإنجليز لم يكونوا يحكمون السودان لصالح مصر ولا لصالح السودان ، بل كانوا يحكمونه لصالح إنجلترا . وكانت إنجلترا – منذ البداية – تمهد لفصله عن مصر وتحويله إلى مستعمرة بريطانية صرفة .

وأكبر دليل على ذلك أن اللورد كرومر ، منذ أن تولى أمور مصر سنة ١٨٨٣ ، قرر أن يفصل السودان عنها ، وقال إن لديه – فى مصر نفسها – من المسئوليات مالا يدع له فراغاً للنظر فى شئون السودان .. وقد فاته أن السودان ومصر شيء واحد ، وأن إسماعيل عندما اجتهد فى تثبيت قواعد الحكم المصرى فى السودان ، لم يكن يتوسع فى بلد أجنبى عن مصر ، بل كان يثبت حدود مصر نفسها ، فى النوبة ووادى حلفا وكسلا وكردفان وبحر الغزال ومديرية خط الاستواء حتى نيمولى . وهو عندما عين صمويل بيكر حاكماً على السودان ، لم يكلفه بإدارة ممتلكات مصرية بل بإدارة جزء من مصر نفسها ، وكذلك كان الحال مع غوردون . فإذا كان إيفلين بيرنج قد رسم سياسته على الوقوف بحدود مصر عند وادى حلفا ، فقد كانت تلك سياسة رسمت له . وتنفيذاً لهذه السياسة عمل رجال بريطانيا على الإيقاع بين المصريين والسودانيين .

ولم يوفق رجال الإنجليز فى ذلك الإيقاع ، لأن ثورة المهدى عندما قامت كان هدفها الإنجليز والأتراك لا المصريين ، وهذا ما أثار غضب كرومر ودهشته أيضاً ، ولهذا فقد كان من رأيه أن تترك ثورة المهدى تسير فى طريقها ، دون أن يتحمل هو أى مسئولية عن معالجتها . .

مع أنه هو ورجاله المسئولون عنها . .

وكان غرضه أن تصل الثورة إلى ذروتها ، وأن تقضى – فيما تقضى – على كل أثر للحكم المصرى ، فإذا تم ذلك بدأت إنجلترا فى غزو السودان بجيوشها « تأميناً لحدود مصر » ، فإذا تم لها ذلك جعلته مستعمرة سودانية خالصة لها ، دون أن يكون لمصر فيه أى حقوق . .

المهدى لم يثر على المصريين بل على الإنجليز :

ولكن الذى حدث أخلف ظنون كرومر وكل الإنجليز ، فقد شملت ثورة المهدى كل نواحى السودان التى كان يحكمها إنجليز أو أوربيون أو أتراك ، وتوقفت جنوبى الخرطوم حيث كانت تعسكر حامية مصرية كبيرة . .

كان جنود هذه الحامية – مصريين وسودانيين – يؤيدون المهدى فى حركته الدينية ، لهذا لم يبدر من رجالها عداء للمهدى ورجاله ، ولذلك لم يعجل المهدى بالسير إلى الخرطوم للقضاء على هذه الحامية ، فهى لم تكن فى نظره قوة معادية .

هنا يقترح الإنجليز إخلاء السودان من الجنود المصريين ، عقب استيلاء المهدى على الأبيض وكل مديرية كردفان ، وهنا نجد سلاتين يستسلم للمهدى ويسلم دارفور ، وكذلك فعل الميجرلابتون حاكم بحر الغزال . ولم يحل شهر إبريل ١٨٨٤ حتى كان السودان كله فى يد المهدى ، فيما عدا الخرطوم وحاميتها المصرية السودانية . .

وأبدت الحكومة المصرية رغبتها فى تهدئة البلاد وإعادة النظام إليها ، ولكن كرومر اعترض على ذلك قائلاً إن مصر لا تملك الموارد أو القوى العسكرية اللازمة لذلك ، وقرر أن يترك السودان وشأنه !

واحتج شريف باشا رئيس الوزراء على ذلك ، وأصر على ضرورة العمل على إعادة وحدة البلاد ، وهدد بالاستقالة واستقال فعلاً . .

وجاء بعده نوبار ، وحتى هذا الأرمنى المتمصر كان من رأيه ضرورة

إنقاذ السودان ، ولكنه خضع لإرادة كرومر . .

وقد ساء كرومر أن الحاميات المصرية فى الخرطوم ونواح أخرى ظلت ساكنة وادعة ، وأدهشه أن المهدى لم يهاجمها . .

لهذا قرر ضرورة إخراجها من السودان ، وسمى ذلك « إنقاذاً » لهذه القوات . .

وجدير بالذكر أن القوات المصرية لم تشعر بأى خوف من المهدى ولا أبدى المصريون فى الخرطوم رغبة فى مغادرة البلاد ، ولا طلبت من الحكومة المصرية بعثة إنقاذ . . إنما كان رأى الحكومة المصرية أن تظل الحامية فى الخرطوم . لأن الخرطوم بلد مصرى . ولا معنى لإخلائه ، بل الواجب عكس ذلك . . المحافظة عليه مرتبطاً بالبلد الأم . .

وهكذا ، ودون طلب من مصرى واحد ، ندبت حكومة بريطانيا تشارلس غوردون للقيام بعملية إخلاء السودان ؟

حقيقة مهمة غوردون

ووصل هذا المغامر الغريب الأطوار إلى الخرطوم فى ١٨ فبراير ١٨٨٤ . أتدرى ماذا فعل أول ما وصل ؟

نشر بياناً قال فيه ما يلى :

١ – صرف النظر عن إلغاء تجارة الرقيق .

٢ – أن المهدى سلطان كردفان .

٣ – أن السودان مستقل عن مصر .

ويجد القارئ موجزاً لهذا البيان فى كتاب الميجر E. W. Polson Newman

المسمى « بريطانيا ومصر » Great Britain and Egypt (لنـــدن ١٩٢٨) ص ١٨٥ .

ومن الذى فوض غوردون فى أن يفعل ذلك ؟

الحكومة البريطانية . .

يقول بولسون :

He was vaguely told to establish some sort of stable government in the place ol Egyptian authority. and he was granted a firman creating him governor general of the Sudan.

تلك كانت – إذن – مهمة غوردون : القضاء على سلطان مصر فى السودان ، وإقامة نوع من الحكومة الثابتة بدلا منه !

وكان غوردون – الذى يوصف بأنه « فارس رومانتيكى ورجل إنسانى » – مصمماً على الوصول إلى ذلك الهدف ، ولو أدى ذلك إلى إغراق السودان فى الدماء . .

ولا ننسى هنا أن غوردون ذهب إلى السودان كموظف مصرى يعمل لصالح مصر ، ولكنه – كما رأينا – يعلن أن هدفه الثابت هو فصل السودان عن مصر . .

وإن الإنسان ليتعجب من ضمير أولئك الاستعماريين !

فى خدمة مصر ذهب ، ومن مال مصر كان يعيش ، ولكن قلبه كان حافلاً بالكراهية والخيانة لها . . وكان يقول إنه يريد إنقاذ السودان من المهدى ، ومع ذلك كان يعمل على أن يغرق السودان نفسه فى دماء أهله . .

وفكر غوردون – عقب وصوله إلى الخرطوم – فى أن يعهد فى حكومة

السودان إلى الزبير باشا ، ذلك الزعيم السودانى العربى الذى قام بدور عظيم فى تاريخ السودان أثناء فتوح إسماعيل ثم استقر فى القاهرة ، وطلب غوردون إرسال الزبير إلى السودان ليجمع أهل دارفور تحت لوائه ويشن حرباً أهلية على المهدى . .

أى أن هدف غوردون كان إلقاء السودان فى أتون حرب أهلية ، ولكن كرومر كان قد قرر ألا يمد لغوردون يداً ، لأنه كان يكره غوردون بل يحتقره ، وقد عينوه فى هذا المنصب برغم إرادته . . ولهذا فقد رفض إرسال الزبير باشا بحجة أنه تاجر رقيق سيئ السمعة . .

ويئس غوردون من إغراق السودان فى الدماء ، وأحس أن كرومر لن يعاونه فى شىء ، فقرر أن يتحصن فى الخرطوم وينتظر تطور الأمور . .

هنا فقط هاجم المهدى الخرطوم

ولكن المهدى لم يكن ليسمح ببقاء هذا « الكافر » حاكماً فى الخرطوم ، كما كان يقول فى رسائله . .

لقد سكت المهدى عن الخرطوم وحاميتها لأن أهلها ورجالها إخوانه . .

أما الآن وقد استقر فيها ذلك الخبيث ، فلابد من القضاء عليه . .

ولهذا فقد قرر المسير بقواته إلى الخرطوم ، لا لطرد المصريين بل للقضاء على غوردون .

وظل غوردون يستغيث بكرومر ، وكرومر لا يصغى إليه . .

فى يوم واحد أرسل غوردون إلى كرومر ثلاثين برقية استغاثة . . لم يكن كرومر ليهتم حتى بقراءتها . . كان يقول إن الرجل مجنون وإن

برقياته يعارض بعضها بعضاً حتى لا يدرى قارئها ما يريد . .

وفى ١٥ يناير ١٨٨٥ دخل المهدى الخرطوم ، وقتل غوردون ومن معه من الإنجليز . .

وكان كرومر يتوقع موت غوردون وينتظره ، لأن موت غوردون كان كفيلاً بأن يقنع الحكومة البريطانية بأن تشرع فى تنفيذ مخططها الأول : غزو السودان لحسابها . .

وإذا كان كرومر لم يستفد من غوردون حيًّا ، فقد عرف كيف ينتفع به ميتاً . .

ولم يسرع فى العمل . . لأن المهدى لم يلبث أن توفى ، وخلفه عبد الله التعايشى وكان من زعماء البقّارة . .

وكان من الطبيعى أن يرفض الكثيرون من أتباع المهدى خلافة التعايشى ، وأخطأ التعايشى فأخذ فى القضاء على خصومه فى عنف ، معتمداً على رجال البقّارة وحدهم . .

وغرق السودان فى الدماء . .

وأظهر كرومر للعالم أن الحكم المصرى فى السودان قد انتهى ، وأن السودان قد ارتد إلى الفوضى . .

ونتيجة لذلك كله سارت حملة كتشنر إلى السودان . .

وفى ٢ سبتمبر ١٨٩٨ أنزلت مدافع كتشنر بأتباع المهدى مدبحة كبرى تسمى بموقعة أم درمان ، وقبل أن تغرب شمس ذلك اليوم كان نحو ٤٥,٠٠٠ من السودانيين قد استشهدوا بمدافع الإنجليز . .

وبعد ذلك بقليل حطم الإنجليز قبر المهدى ، بطل السودان ،

وجاسوا بخيولهم فيه . .

وهكذا كسبت إنجلترا « حقًّا » فى الاشتراك فى حكم السودان ، حق الفتح كما يقولون . .

وبدأت مأساة الحكم الثنائى على أساس معاهدة ١٩ يناير ١٨٩٩ ، التى تم التصديق عليها فى ١٠ يوليو ١٨٩٩ ، وقد وقعها باسم مصر بطرس غالى وباسم بريطانيا لورد كرومر .

وأهم ما حرصت عليه بريطانيا فى تلك المعاهدة ، هو النص على أن السودان أصبح بلداً منفصلاً عن مصر ، يخضع لحكم ثنائى مصرى إنجليزى . .

وللفوز بالسودان ضحت إنجلترا بمصر ومصالح مصر

وتلك كانت الخطوة الأولى للانفراد بالسودان . .

وبعدها مباشرة حرصت بريطانيا على أن تجعل من السودان جزءاً من إمبراطوريتها ، فلا علاقة مباشرة بينه وبين مصر ، لأن حاكم السودان العام لابد أن يكون إنجليزيًّا ، وإن كان — من الناحية الشكلية والوظيفية — موظفاً فى الحكومة المصرية يعين بمرسوم من خديو مصر ، وهو — فى نفس الوقت — مفتش عام ، أى قائد أعلى للجيش المصرى . .

وإلى ذلك الحين لم يكن هنا وزير مصرى خاص للحربية ، إنما كان هناك وزير للأشغال والحربية ، عمله الأساسى هو الأشغال ، ولا رياسة له على القائد الأعلى الإنجليزى للجيش ، إنما هو يوقع — فقط — على الأوراق التى تصل إليه من مكتب القائد العام ، والحكومة المصرية

لا يمكن أن تتصل مباشرة بحاكم السودان ، بل يكون الاتصال عن طريق المندوب السامى البريطانى .

وفى نفس الوقت قررت بريطانيا أن يكون السودان مستقلاً عن مصر من النواحى الإدارية والقضائية والتعليمية ، فأحكام المحاكم المصرية فى مصر لا تسرى فى السودان ، ولا وجود للمحاكم المختلطة فى السودان ، ولا وجود كذلك للامتيازات الأجنبية .

وهارولد ماكمايكل يفسر لنا ذلك فى كتابه عن « السودان الإنجليزى المصرى » بقوله: (إن إنجلترا – لكى تثبت مركزها فى مصر – اضطرت إلى أن تجعل مصر أقرب إلى أن تكون منطقة دولية ، وأعطت للدول الأوربية فيها كثيراً من حقوق السيادة والامتيازات الأجنبية والمحاكم المختلطة) أما السودان فقد قررت – منذ البداية – ألا يكون امتداداً لمصر حتى لا تمتد إليه هذه الصورة الدولية ، ولهذا فقد قررت أن تفصل بينه وبين مصر فصلاً تاماً تحت ظل ما سمى إذا ذاك بالحكم الثنائى Condominium (انظر الفصل السادس من كتابه المذكور ، ص ٧٢ وما بعدها) .

ولكن بريطانيا – مع ذلك – أرادت أن تستخدم مصر إلى أقصى حد فى تحقيق غرضها هذا . وما دامت مصر كلها تحت سيطرة المندوب السامى البريطانى التابع لوزارة المستعمرات ، فبريطانيا تستطيع أن تفعل ما تريد .

وبعد الاتفاق الودى مع فرنسا سنة ١٩٠٤ كانت بريطانيا واثقة من تأييد أوربا ، فإذا فكرت دولة أوربية فى الاعتراض على أى تصرف بريطانى فى السودان عوضتها بريطانيا بمكاسب وامتيازات فى مصر . .

وهكذا فتح كرومر – ثم ريجينالد وينجيت ، ثم هوراشيوكيتشنر ، ثم إلدون جورست – أبواب مصر على مصاريعها للأجانب ، وقدموا لهم كل ما استطاعوا من التسهيلات والامتيازات ، وفيما بين ١٩٠٠ و ١٩١٩ كانت مصر بلد الأجانب ، والغريب الوحيد على أرضها كان المصرى نفسه . .

فى نفس الوقت كانت أبواب السودان مغلقة أمام الأجانب إلا فى حدود ما تسمح به المصالح البريطانية ، فبينما كانت كل الشركات الصناعية والتجارية الكبرى فى مصر فى أيدى الأوربيين لم تسمح إنجلترا لمساهم أوربى واحد بأن يشترى سهماً واحداً فى شركة مشروع أراضى الجزيرة .

ومصر دائماً تدفع الحساب

كذلك اعتمدت بريطانيا اعتماداً كاملاً على أموال مصر فى تنفيذ سياستها فى السودان ، ففيما بين سنتى ١٨٩٩ و ١٩١٢ دفعت مصر مبالغ مجموعها ٥,٣٥٣,٢١٥ جنيهاً مصرياً لسد العجز السنوى فى ميزانية السودان . .

وبالإضافة إلى ذلك كانت مصر تدفع من سنة ١٨٩٩ إلى سنة ١٩٢٤ نحو المليون جنيه سنوياً لنفقات الجيش المصرى والبريطانى ، ومع أن الجانب الأكبر من هذا المبلغ كان يدفع رواتب للضباط والجنود البريطانيين ومع أن إنجلترا كانت تشترى منه ذخائر وأسلحة من المصانع البريطانية إلا أن إنجلترا كانت تدفع ٢٠٠,٠٠٠ جنيه فقط سنويًا ، كأن مصر هى الدولة الأغنى والأكبر !

وتحملت مصر – إلى جانب ذلك – نفقات إنشاء كل الخطوط الجديدة ومشروعات الرى التى أنشئت فى السودان خلال هذه الفترة ،

وبمال مصر أنشئ خط سكة الحديد من أسوان إلى الخرطوم ، ومن الخرطوم إلى واد مدنى ثم إلى الأبيض ، ومن الخرطوم إلى بورسودان .

وبأموال مصر وحدها أنشئ ميناء بورسودان حجراً حجراً . .

وكل مراكز الرى فى السودان حتى نيمولى كانت مصرية ، وكان موظفوها – الإنجليز والمصريون – يتقاضون رواتبهم من وزارة الأشغال المصرية ، ومصر كذلك كانت تتحمل الجانب الأكبر من نفقات التعليم . .

لقد أنشأ الإنجليز كلية غوردون سنة ١٨٩٨ ، وتبرع لها نفر كبير من الإنجليز وخاصة السير ه . س . ويلكام الذى أهدى للكلية معمل أبحاث ، ولم تكن الكلية فى أول أمرها إلا مدرسة ابتدائية كبيرة .

وكان اللورد كيتشنر يريد أن تقتصر مهمة هذه الكلية على تخريج عدد من السودانيين يعرفون من القراءة والكتابة والحساب ما يمكنهم من شغل الوظائف الثانوية فى إدارة البلاد !

أما تعليم السودانيين على نفس المستوى الذى كان معروفاً فى مصر إذ ذاك فكان من واجب مصر . فقد أنشأ المصريون عدداً من المدارس الابتدائية ، وعدداً كبيراً جدًّا من الكتاتيب . وكان السودانى يستطيع مواصلة دراسته فى مصر بعد ذلك ، كما كان يفعل أى شاب فى أسوان أو قنا أو أسيوط . .

أما إدارة البلاد فقد قسمها الإنجليز إلى مديريات على رأس كل منها مدير إنجليزى ، وفى كل مديرية مراكز يتولاها مآمير مصريون فى الغالب .

ففى سنة ١٩٢٤ – وهى التى ضرب الإنجليز فيها ضربتهم عقب مقتل السردار وأتموا فصل مصر عن السودان ،. كان هناك ٥٨ مأموراً ،

منهم ٥١ مصرياً ما بين ضباط ومدنيين ، وأربعة من السودانيين ، وثلاثة من السوريين أو الشوام الأروام كما كانوا يسمون .

وكانت الغالبية العظمى من الإداريين والكتبة من المصريين السودانيين ، أى المولودين فى السودان من أب مصرى وأم سودانية أو العكس . أما مجلس إدارة السودان الذى كان يعاون الحاكم العام فى الحكم فكان مكوناً من ثمانية موظفين كبار إلى جانب ذلك الحاكم ، وهم المفتش العام والسكرتير القانونى والسكرتير المالى والسكرتير المدنى (للشئون الداخلية) ووكيل الحاكم العام ومدير الزراعة والغابات ومدير التعليم والمفتش العام للرى ، وكانوا جميعاً من الإنجليز وإن كانوا يتقاضون رواتبهم الضخمة من ميزانية مصر . .

ومنذ توقيع اتفاقية السودان كانت نية الحكومة البريطانية إحلال السودانيين محل المصريين فى جميع الأعمال ، ولكنهم لم يبذلوا فى ذلك السبيل الجهد الكافى ، بل فاقهم المصريون فى ذلك ، ففى سنة ١٩٢٤ كان هناك فى الجيش المصرى فى السودان ٢٦ ضابطاً تخرجوا من المدرسة الحربية فى القاهرة ، وكان هؤلاء يشغلون وظائف وكلاء مآمير . .

أما الموظفون المدنيون الذين نجح الإنجليز فى تكوينهم فلم يزد عددهم عن ٧٦ رجلاً تولوا وظائف إدارية أو وكلاء مآمير ، وعددهم ٣٢ فكان ٣١ منهم مصريين ، أما الثانى والثلاثون فكان شامياً . .

ولم يكن الإنجليز راضين عن هذا التنظيم الإدارى للسودان لأنهم كانوا يريدون أن يعودوا بالبلاد إلى حالة الحكم القبلى الذى كان سائداً فى كل المستعمرات الأوربية الإفريقية ، وهو يتلخص فى أن

يتولى المحافظات أو المديريات محافظون من الإنجليز وتقسم الإدارة بعد ذلك فى كل محافظة بين شيوخ القبائل فيحكمون الناس بحسب قوانينهم المحلية تحت إشراف الإنجليز . .

وبالفعل كان هذا بعض ما فعل الإنجليز كتمهيد للاستغناء عن الموظفين المصريين قبل مقتل السردار بقليل . فلما قتل السردار ساروا فى ذلك النظام قدماً وارتدوا بالسودان إلى الوراء ، وقد لجأوا إلى ذلك لكى يسدوا العجز فى الإداريين بعد إخراج المصريين من السودان .

وفى نفس الوقت أطلقت إنجلترا أيدى جمعيات التبشير فى جنوب السودان فتدفقت الجمعيات التبشيرية الإنجليزية والأمريكية والنمسوية على البلاد ، وكان ذلك تمهيداً لفصل جنوب السودان عن شماله . .

ثم جاءت ساعة الحساب

تلك كانت حالة القطر السودانى عندما قامت فى مصر الحكومة الشعبية الدستورية ، وعلى الرغم مما فعله الإنجليز لإضعاف شأن هذه الحكومة منذ البداية ، إلا أنهم دهشوا إذ وجدوا فيها وزيرا خاصاً للحربية ، وسمعوا هذا الوزير يصرح بأنه يريد أن يكون له سلطان فعلى مباشر على كل موظف فى وزارته ، بما فيهم حاكم السودان العام وهو سردار الجيش المصرى فى نفس الوقت . .

وقد رأينا كيف اجتهد الإنجليز فى مسخ الدستور قبل صدوره ، وعملوا على إزالة كل المواد الخاصة بوحدة مصر والسودان ، وكان هدفهم من وراء ذلك أن يحرم السودان من المكاسب القليلة التى تضمنها

تصريح ١٨ فبراير ١٩٢٢ ، وألا تقوم فيه حكومة دستورية ، بل لا تكون له صلة بمصر على أية صورة من الصور من الآن فصاعداً . .

ولكن سعداً عندما دعى للتفاوض مع رمزاى ماكدونالد اشترط قبل الدخول فى المفاوضات ألا يرتبط بالتحفظات الأربعة ، أى الموضوعات التى جعلتها بريطانيا خارجة عن نطاق استقلال مصر الذى منحتها إياه ، وهى : تأمين مواصلات الإمبراطورية ، والدفاع عن مصر ، وحماية الأجانب والأقليات ، ثم السودان . .

وكان سعد يحس – بشعور السياسى المحنك أن النقطة الرئيسية كانت نقطة السودان : ذلك الجزء العزيز من وادى النيل الذى فصلته بريطانيا عن مصر تعسفًا وأرادت أن يترك لها الوقت لتبتلعه على مهل . ولهذا فقد رأى سعد أن يبدأ بتلك النقطة الرئيسية ، وشدد على مسألة السودان تشديداً بالغاً . .

ثورة الملازم أول على عبد اللطيف

ولم يكن سعد بموقفه هذا يتمسك بورقة سياسية رجاء أن يكسب من ورائها شيئاً ، كما كانت إنجلترا تستعمل مثلاً مسألة المحافظة على الأجانب وحماية الأقليات ، بل كان يتمسك بحقيقة كان يرى أنها أساسية لوجود وادى النيل كله إذ ذاك ، وهى وحدة مصر والسودان . .

ولم تلبث الحوادث أن أقبلت تؤيد سعدًا فيا كان ينادى به ، فإن ثورة ١٩١٩ كان لابد أن يصل صداها إلى السودان . ولم يكن من الممكن مثلاً أن تثور مصر على الاحتلال ويظل السودان راضياً به ،

فقد نهض جماعة من شباب السودان سنة ١٩٢٠ وأنشأوا جمعية الاتحاد ونادوا بالاستقلال التام لمصر والسودان ، وكان زعماء هذه الجمعية من طلبة كلية غوردون ومن شتى طوائف الشعب السودانى ، بالضبط كما كانت ثورة ١٩١٩ ثورة شعب مصر كله .

وبعد ذلك بقليل ، وبينا كان الكفاح الوطنى المصرى يجتاز مراحله الأولى فى أعقاب ثورة ١٩١٩ تألفت فى السودان جمعية اللواء الأبيض للمطالبة بوحدة وادى النيل . .

وقد كان تأسيس هذه الجمعية صدى مباشراً للثورة المصرية وما حققته من نجاح بعد أن سبقتها إرهاصات كثيرة قصها بتفصيل عبد الرحمن الرافعى فى تاريخ الحركة القومية (فى أعقاب الثورة المصرية . ج ١ ، ص ١٦١ وما يليها) وقصها كذلك المؤلفون الإنجليز فى كتبهم وخاصة هارولد ماكمايكل فى كتابه عن السودان المصرى الإنجليزى (١١٤ وما يليها) والميجر بولسون نيومان فى كتابه عن بريطانيا فى مصر (ص ١٨٦ وما يليها) وجورج لويد فى « مصر منذ أيام كرومر » (ج ٢ الفصلان الثامن والتاسع ص ١٢٣ وما بعدهما) .

ومن رأيى أن موضوع امتداد ثورة ١٩١٩ إلى السودان وظهور جمعية اللواء الأبيض ثم حركة الجهاد التى قام بها الملازم أول على عبد اللطيف ، كل ذلك جدير بأن يدرس من جديد لأنه يضع يدنا على حقيقة الفترة الحاسمة فى تاريخ هذا الوادى ، فترة المحاولات الباسلة التى قام بها المصريون والسودانيون للمحافظة على وحدة وادى النيل ، وهى فترة شوه الكتاب الإنجليز ومن تابعهم صورتها فى نظر الناس .

ولا نريد أن نستطرد مع حوادث السودان ، وإنما نريد هنا أن نقول إن سعداً أحس أن الموضوع الرئيسى الذى ينبغى أن تدور فيه المعركة بينه وبين الإنجليز هو موضوع السودان ، فبدأ يتحدث فيه ويقول إن مصر والسودان بلد واحد لا يتجزأ . .

وقد بدأ بذلك فى أبريل ١٩٢٤ ، أى قبل أن تنقضى على وزارته أربعة شهور فى الحكم . .

فقد كتب السيرلى ستاك حاكم السودان العام وسردار الجيش المصرى خطاباً يحتج فيه على تمثيل السودان فى معرض ويمبلى الخاص بالمستعمرات ، وقال له إن السودان ليس مستعمرة ، وإن حاكم السودان موظف مصرى وعليه أن يستشير رؤساءه فى حكومة مصر قبل أن يتخذ إجراء كهذا . .

وأمام هذا الخطاب الأول من نوعه وقف السردار والفيلد مارشال أللنبى ذاهلين ولسان حالهما يقول :

إذن فهذا الرجل يأخذ المسألة جدًّا ويتصور أنه رئيس وزارة حكومة مستقلة حقيقية . . ويتمسك بأن السودان جزء من مصر وأن حاكم السودان الإنجليزى ينبغى عليه منذ الآن أن يتلقى الأوامر من رئيس وزراء مصر وينفذها !

هذا آخر ما كان يخطر على البال . .

وهذه اللعبة تتحول إذن إلى جد . .

وإذن فلابد من عقابه وعقاب مصر معه . .

لابد من طرده من الحكم وهدم الدستور على رأسه . .

ولابد من الإسراع فى فصل السودان عن مصر !

(٣)

مقتل السردار

لم تمض على سعد فى الوزارة ثلاثة شهور ، حتى بدأ فى إثارة موضوع السودان فى أبريل ١٩٢٤ . .

وقد نصحه نفر من كبار الإنجليز فى مصر بالتريث ، فعقب إرساله رسالة الاحتجاج على تمثيل السودان فى معرض ويمبلى زاره اثنان منهم ، هما شيلدون إيموس Sheldon Amos وسير جلبرت كلايتون Gilbert Clayton وكانا من المتحمسين لتصريح ٢٨ فبراير – فنصحاه بأن يدع هذا الموضوع لهما يحلانه بطريقة ودية ، وأبلغاه أن اللورد اللنبى يخشى ان تعكر هذه المسألة صفو العلاقات بين البلدين ، وقد يكون لها أثر سيئ على المفاوضات المنتظرة بين سعد ورامزى ماكدونالد رئيس وزارة العمال . .

فأكد لهما سعد أن الموضوع – فى نظره – خطير جداً ، يتعلق بمصير وادى النيل كله ، وأنه يفضل إثارته من الآن وقبل المفاوضات ، لكى يكون كل شيء واضحاً قبل سفره إلى لندن ، وأضاف أنه يتكلم بصفته وكيلاً للشعب الذى ائتمنه على مصالحه لا بصفته رئيساً للوزارة ، ولهذا فهو لا يستطيع أن يتراجع خطوة واحدة فى مسألة السودان على وجه الخصوص . .

وقال جلبرت كلايتون : أخشى أن يؤدى هذا الموضوع إلى إلغاء فكرة المفاوضات . .

فأجاب سعد : إذا كانت النية هى الفصل بين مصر والسودان فلن يبقى أمامى شيء أتفاوض فيه . .

وعندما أخفقت مفاوضات سعد وماكدونالد بعد ذلك بشهور ، كان شيلدون إيموس فى إجازة فى لندن ، فكتب مقالاً قصيراً فى التايمز معلقاً على ذلك الإخفاق ، وملقياً مسئوليته على سعد وعناده ومحاولته التمسك بأشياء بعيدة عن متناول يده ، وأشار إلى مقابلته معه ، وأضاف أنه فى مساء ذلك اليوم قال للورد أللنبى إن الرجل – أى سعداً – متمسك بموضوع السودان إلى درجة التهور ، فرد أللنبى فى هدوء : إذن فليذهب إلى غير رجعة . . وما أعطيتهم إياه سآخذه منهم كله . .

والحقيقة أن سعداً – كما قال – لم يكن فى ذلك الوقت حراً فى أن يتناول موضوع السودان أو يتركه جانباً ، فقد كان الموضوع يفرض نفسه ، لأن السودان ومصر كانا بلداً واحداً فى ذلك الحين ، وما كان من الممكن أن يسير واحد منهما فى طريق الاستقلال ويظل الآخر رازحاً تحت نير الاستعمار . .

وهذا هو ما نادى به وأكده الزعيم البطل على عبد اللطيف وإخوانه ، عندما قاموا فى وجه الاستعمار سنة ١٩٢٢ ، ليواصلوا ثورة سنة ١٩١٩ ويكملوا رسالتها ، وبيانهم الذى نشروه يعد وثيقة تكشف عن أكاذيب الاحتلال ، وما كان يزعمه من أن السودان – تحت الإدارة البريطانية – دخل فى عصر العدل والازدهار والرخاء ، بعد أن قاسى الظلم والاستغلال ، على أيدى رجال حكومة محمد على أولاً ، ثم على أيدى رجال السودان أنفسهم ثانياً . .

ثورة ١٩١٩ تستمر فى السودان

وكان الإنجليز يزعمون أن المهدى – بعد انتصاره – أقام فى السودان حكم الإرهاب والفوضى والظلم والفساد ، وأن خليفته عبد الله التعايشى سار فى نفس الطريق إلى مداه ، وأغرق البلاد فى الدماء ، حتى جاء الجيش الإنجليزى المصرى بقيادة كتشنر فأنقذ السودان من بنيه أنفسهم . .

ومن كلمات هارولد ماكمايكل – التى تمثل التضليل التاريخى بعينه – قوله إن السودان ولد فى خريف ١٨٩٨ ، يوم معركة أم درمان ، يوم حصدت مدافع كتشنر ما يربو على خمسين ألف سودانى ، كانوا زهرة شباب السودان وخيرة رجاله فى ذلك الحين !

وقد أوجز عبد الرحمن الرافعى خلاصة البيان الذى نشره على عبد اللطيف وزملاؤه فى عشر نقط أهمها ما يلى :

١ – أن الإنجليز يسعون لفصل السودان عن مصر .

٢ – أن الذين كتبوا ووقعوا عرائض الولاء للحكم البريطانى لا يمثلون إلا أنفسهم .

٣ – أن السياسة الإنجليزية لم تجلب للسودان أى منفعة تعود على أهله .

٤ – أنها أثقلت كاهل الأهلين بالضرائب .

٥ – أنها لم تنصف سكان المديريات ، ولا سيما أهل الجزيرة ، فقد أخذت أراضيهم وسلمتها للشركات الإنجليزية .

٦ – أنها احتكرت القطن والسكر .

وواضح من هذه النقط أن علياً عبد اللطيف وزملاءه – وهم الجيل الثانى من أجيال تحرير النصف الجنوبى من وادى النيل ، بعد جيل المهدى وخلفائه – كانوا يصرون على التمسك بوحدة وادى النيل . ولقد قبضت عليه السلطات البريطانية وقدمته للمحاكمة أمام محكمة الجنايات فى الخرطوم ، وحكمت عليه – فى يونيو سنة ١٩٢٢ – بالسجن سنة ، عقاباً له على ما طالب به من حقوق وطنه ، وما كشف من مساوئ الحكم الإنجليزى الاستعمارى . .

وعندما تولى سعد رياسة الوزارة ، جاشت بالأمل نفوس أهل السودان مرة أخرى ، وتطلعت جماهير السودانيين إلى تحطيم القيد الإنجليزى واللحاق بإخوانهم فى الشمال ، كما سنرى .

وقد يكون من بين القراء نفر من الشباب الطيب القلب – فى السودان خاصة – ممن لم يقرأوا عن هذه الأحداث إلا فى كتابات الإنجليز ومن جرى فى أعقابهم ، وقد يكون من بينهم شباب تعلموا فى إنجلترا ، وشبوا على الوهم القائل بأن الإنجليز يلتزمون قول الحق على الجملة . . فمن واجبنا أن نفتح أعين هؤلاء ، وندلهم على المدى البعيد الذى كان الإنجليزى الاستعمارى مستعداً للوصول إليه فى مجال الكذب والافتراء ، لتبرير أعمال بلاده وما كانت تسعى إليه من اختلاس السودان من أهله . .

وليس أعون لنا على ذلك من أن ننقل لهم هنا سطوراً مما كتب اللورد جورج لويد فى كتابه « مصر أيام كرومر » ، عن الحركة القومية فى السودان فيما بين ١٩١٩ و١٩٢٤ ، قال (جـ٢ ص ١١٧ وما بعدها) . .

« . . . وليس من المبالغة أن نقول إن الموقف فى السودان قد اضطرب

اضطراباً تاماً ، بواسطة عملاء مصريين وعن طريق أعمال تخريبية مرسومة منذ البداية على نحو يخدم أغراض الوفد ، فعلى الرغم من أن البلاد (يريد السودان) لم تكن – على الجملة – مستاءة إطلاقاً من الحكم البريطانى ، بل كانت – على العكس – شاكرة لجميل بريطانيا راضية برعايتها ، إلا أنه كانت هناك – بالطبع – عناصر تعتبر تربة صالحة لنشاط المهيجين .

وفى مقدمة هؤلاء كان الموظفون المصريون ، الذين كانوا يختارون من الطبقة التى تسيطر السياسة على عقولها فى مصر ، والتجار المصريون الذين كانوا يعملون على أن تطلق أيديهم ليسطوا على السودانيين ، والجيش المصرى (فى السودان) الذى ضمت صفوفه – كما كانت الحال فى مصر – بعض العناصر الصاغية المستجيبة للدعاية السياسية . وكانت تنمو بين أهل السودان طبقة من الطلاب ، تتضمن نسبة عالية من المخلّطين المصريين السودانيين ، ومن المتعلمين السود من أهل البلاد ممن ينحدرون من العبيد ، وهم جماعة لا يعتمد عليهم . .

وكما هو المتوقع ، بدأت أولى إرهاصات الاضطراب السياسى فى السودان ، فى نفس الوقت الذى بدأت فيه المتاعب فى مصر سنة ١٩١٩ ، وكانت منحصرة أول الأمر فى المصريين وحدهم ، ولكن الذين حركوا – فيما بعد – الدعاية التى أدت إلى الاضطرابات الخطيرة فى سنة ١٩٢٤ ، كانوا أولئك المصريون متحدين مع أفراد تلك الطبقة التى لاجنسية لها التى يتميز بها السودان ، وهى تتكون من ناس مخلطين ينحدرون من الرقيق . . ولقد كانت هذه الدعاية تخريبية صرفة ، خالية من أى أساس

قومى صحيح ، وهذا واضح من الصور المختلفة جد الاختلاف التى ظهرت بها . فقد استخدمت الدين ، ونادت بأن السودان للسودانيين ، وأن السودان للمصريين ، أى أنها استخدمت كل دعوة فى متناول يدها ، ما دامت هذه الدعوة مثيرة لشعور البغض والكراهية (للإنجليز) . .

وفى سنة ١٩٢٢ نظم النشاط التخريبى – الذى قام به المصريون – نفسه على النظام التقليدى ، فى صورة حركات سياسية سرية . وقد عثر أخيراً على دليل لا يقبل الشك ، يدل على أن القاهرة كانت مركز هذه المنظمات ، وأنها كانت تتلق من القاهرة التشجيع والإلهام .

وفى سنة ١٩٢٣ زار الخرطوم حافظ بك رمضان رئيس الحزب الوطنى ، واتصل اتصالاً شخصياً بالعناصر السودانية المتمردة . وبعد انتصار الوفد سنة ١٩٢٤ ، انتقلت الاتصالات بهذه العناصر إلى هذا الحزب . وبالذات كان اثنان من رجال هذه الاتصالات يعملان فى الخرطوم ، واحد منهما هو محمد توفيق وهبى وهو قاض بالمحاكم المدنية ، والثانى كان وغداً عريقاً ينحدر من أسرة من العبيد واسمه على عبد اللطيف . وكان الثانى يمثل العنصر السودانى فى التنظيم ، وكان عليه أن يقوم بالجانب العلنى من العمل ، أما المجموعة المصرية فكان من المقرر أن تقوم بالتنظيم لكى تظل فى الصف الخلفى .

ولكى تأخذ هذه الاضطرابات مظهراً سودانياً على قدر الإمكان ، تألفت جمعية اللواء الأبيض ، على أن يكون السودانيون من أعضائها هم الظاهرين ، ويكون المصريون تحت ستار الخفاء ؛ وكانت موارد هذه الجمعية تأتى من القاهرة ، ولكنهم كانوا يعلنون أنها تأتى من تبرعات سودانية . وكان شعارها المعلن « السودان للسودانيين » ، وهو شعار لم يشارك

فيه أى مصرى . . وعلى هذا الأساس مضت الجمعية تنظم المظاهرات والقلاقل ، التى حدثت فى أوائل صيف ١٩٢٤ . وبعد القبض على على عبد اللطيف وآخرين ، أصبح نشاط الجمعية غير ذى أهمية .

وبالرغم من ذلك فقد اتضح أنه كانت فى أيدى المهيجين المصريين خيوط أخرى يحركون بها القلاقل ، فخلال وقت طويل كانوا يعملون على نشر دعاية تخريبية فى صفوف الجيش . وكان أمضى سلاح فى أيديهم فى ذلك المجال هم المطرودين والمحالين إلى المعاش ، من الضباط السود المنحدرين بصورة خاصة من أصول رقيق ، لأن الكثيرين منهم كانوا موتورين وكانوا متعطلين بدون عمل .

وكانت الخطوة الحقيقية الأولى التى قاموا بها هى تنظيم مظاهرة مدرسة الضباط فى أغسطس (١٩٢٤) فى الخرطوم ، ومن حسن الحظ أن هذه المظاهرة لم تتطور فى الاتجاه الذى أراده لها منظموها ، وذلك نتيجة للجهود التى قامت بها السلطات .

ووقع الانفجار الثانى فى صفوف أورطة جنود السكة الحديد فى العطبرة ، وأعقبت ذلك اضطرابات فى وارى وفى الملاكال . وهذه كلها كانت – بوضوح – خطوات تمهد لعمليات أكثر اتساعاً وخطورة ، كان من الممكن أن تشتعل نيرانها فى أى وقت ، نتيجة لأى عمل من أعمال الاضطرابات . ولكن مقتل السردار ، والإجراءات الصارمة التى اتخذت لإبعاد الفرق المصرية والضباط المصريين من السودان ، فاجأت المحرضين على الفتنة وأفسدت خططهم . . ولا مجال للشك فى أن هذه القلاقل لو استمرت ، لكانت القبائل الجاهلة المحاربة قد استجابت لها

وثارت على السلطات ، وما كان من الممكن – حينئذ – القضاء على ثورتها إلا بثمن باهظ وخسائر كبيرة فى الأرواح » . .

وأترك للقارئ الحكم على الأسلوب الذى يتحدث به هذا اللورد عن أبطال حركة التحرير فى السودان . .

وأترك له أيضاً أمر اكتشاف الأكاذيب التى ملأ بها هذه السطور ، لأننا – كلنا – نعرف حقيقة المجاهدين ، ولأننا سنأتى ببراهين هذا الكذب فى سياق هذه الدراسات .

ولكنى ألفت النظر إلى ما ذكره لورد لويد من أن مقتل السردار وإبعاد المصريين من السودان حالا دون كارثة كانت تهدد الإنجليز : تحرك قبائل السودان الكبرى وقيام الثورة الشاملة على الإنجليز . . .

ومعنى هذا أن لورد لويد يصرح بأن مقتل السردار أنقذ الإنجليز من تلك الكارثة . . .

هذه حقيقة نود أن نضع تحتها عشرة خطوط . .

السودان : نداء المعركة

كان موضوع السودان – إذن – يفرض نفسه على سعد ورجال الحركة القومية جميعاً .

فما كان سعد ليستطيع التخلى عن نصف الوادى ونصف شعبه ، إلا إذا تخلى عن قضية مصر كلها . .

وقد عالج سعد ذلك الموضوع الخطير بما هو أهله من الحزم : فكتب إلى حاكم السودان وسردار الجيش المصرى السيرلى ستاك يسأله كيف سمح لنفسه بأن يوافق على تمثيل السودان فى معرض مستعمرات – والسودان

ليس بمستعمرة بريطانية – ثم كيف لم يستأذن الحكومة المصرية فى أمر كهذا يمس سيادتها فى الصميم . .

وقد دهش السيرلى ستاك عندما تلقى ذلك الخطاب ، وأحاله إلى دار المندوب السامى ، وتولى المندوب السامى الرد على سعد ، فعاد يكتب إلى السيرلى يطالبه بالرد عليه ، لأنه – أى سعد – رئيس وزراء مصر ، فهو رئيسه وعليه أن يرد عليه هو . ولم يكتف سعد بذلك ، بل كتب إلى سفيره فى لندن – عزيز عزت باشا – يطلب إليه الاحتجاج على هذا التصرف السيئ من جانب بريطانيا .

ويهمنا هنا أن مجرد ذلك التدخل فى الموضوع أوقع السيرلى ستاك واللورد أللنبى فى حرج شديد ، فكتب اللورد أللنبى يدافع عن السير لى ستاك قائلاً إنه تصرف بحسب القواعد المتبعة ، لأن الاتصال بين حكومتى مصر والسودان لا يكون إلا عن طريق المندوب السامى ، فضرب سعد بهذا الكلام عرض الحائط ، وطالب السيرلى ستاك بأن يرد على خطابه . وقد رد بالفعل معتذراً . .

وبعد ذلك كتب اللورد أللنبى إلى سعد ، مؤكداً له أن إنجلترا لم تقصد إلى وضع السودان موضع المستعمرات عندما عملت على تمثيله فى معرض ويمبلى . . . « ثم إن معرض ويمبلى ليس وقفاً على الإمبراطورية البريطانية ، بل إن فيه أشياء أخرى متنوعة ذات فائدة عامة ، مثل صورة لمسجد فارسى ونموذج لشلالات نياجرا ومعرض من التبت . . ! » .

وعاد سعد فأرسل إلى المندوب السامى يدحض كل حجة ، ويؤكد

أن حاكم السودان العام موظف مصرى ، وأنه حتى اتفاقية يناير ١٨٩٩ لا تنص على أن أى اتصال بينَ حكومة مصر وحكومة السودان لا يكون إلا عن طريق المندوب السامى البريطانى .

وتجددت الأزمة مرة أخرى ، عندما منعت حكومة السودان وفداً سودانياً كان يريد التوجه إلى مصر ، لإعلان رغبة السودانيين فى الوقوف إلى جانب إخوانهم المصريين ، للدفاع عن حرية الوادى كله ، شماله وجنوبه .

وفى جلسة ٢٣ يونيو ١٩٢٤ تناول البرلمان المصرى موضوع السودان ، وأعلن تمسكه بوحدة الوادى ، واحتجاجه على الحيلولة بين رجال السودان والمجىء إلى مصر ، لإعلان رأيهم فى ضرورة وحدة مصر والسودان ، وأكد سعد فى خطاب له مشهور ألقاه فى تلك الجلسة أن مصر والسودان بلد واحد لا يتجزأ .

وقد أثار ذلك مخاوف الحكومة البريطانية ، فثار مجلس اللوردات وطلب من رئيس الوزراء — إذ ذاك — أن يلقى تصريحاً يرد به على تصريح سعد ، فقال اللورد بارمور متحدثاً باسم الحكومة الإنجليزية فى ٢٥ يونيو « إن الحكومة البريطانية لا تترك السودان بحال ، وهى تقدر التعهدات الواجب تحملها ، والتى لا يمكن تركها من غير أن تصاب سمعة إنجلترا بخسارة عظمى . وأستطيع أن أقول — من غير تردد — إن نظام السودان لن يسمح بتغييره ، ولا أن ينفذ ذلك التغيير من غير موافقة البرلمان »

وبعد ذلك بثلاثة أيام رد سعد بتصريح فى مجلس النواب المصرى قال فيه : « إنى بالنيابة عن الشعب المصرى جميعه ، وفى حضرتكم

الموقرة ، أصرح بأن الأمة المصرية لا تتنازل عن السودان ما حييت وما عاشت فهى تسعى للتمسك بحقها ضد كل غاصب ، ضد كل معتد ، تتمسك بهذا الحق فى كل فرصة وفى كل زمن ، تسعى بكل طريق مشروع سلكه كل مهضوم الحق لكى تحفظ هذا الحق وتصل إلى التمتع به . . . »

بل بلغ من تمسك سعد بوحدة الوادى أن عرض استقالته فى ٢٩ يونيو ١٩٢٤ ، عندما أحس أن الملك فؤاداً لا يشاركه الرأى فى ضرورة التمسك بحقوق مصر فى السودان ، أى بوحدة الوادي ، ولكن الملك رفض هذه الاستقالة . .

وعقب ذلك اشتدت حركة الوحدة فى السودان ، وتألفت هيئة تنفيذية لجمعية اللواء الأبيض المطالبة بالوحدة ، وتولى البطل على عبد اللطيف رئاسة هذه الهيئة .

وفى أثناء ذلك استيقظ شعب السودان ، وأخذ يعبر جماعياً عن تمسكه بالوحدة .

وحدث فى ١٩ يونيو ، ولمناسبة تشييع جنازة مأمور أم درمان الصاغ المصرى عبد الخالق حسن ، أن قام الشيخ عمر دفع الله وهتف : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل معى : لتحيي الأمة المصرية ! ليحيي الاستقلال التام لمصر والسودان ! ليحيي الاستقلال التام لمصر والسودان ! » ورددت الجماهير هذه الهتافات .

وأعقبت ذلك حركة اعتقالات واسعة النطاق ، كان من بين ضحاياها على عبد اللطيف الذى حكموا عليه بالسجن ثلاث سنوات ، ثم اتهموه بمؤامرة لقلب نظام الحكم ، وألقى به فى السجن سنوات طويلة حتى أصابه المرض الوبيل ، ولم يطلق سراحه إلا بعد أن تأكد الإنجليز من أن صحته

قد وهنت إلى درجة لم يعد يستطيع معها أن ينهض على قدميه ، فقدم الرجل إلى وطنه مصر ورقد فى المستشفى ، حتى وافاه أجله المحتوم فى أوائل الخمسينيات .

وفى ٩ أغسطس ١٩٢٤ تظاهر طلبة المدرسة الحربية بالخرطوم ، ونادوا بوحدة مصر والسودان واستقلال وادى النيل ، فكانت النتيجة القبض على زعمائهم وإغلاق المدرسة .

وفى ١١ أغسطس ١٩٢٤ اجتمع مجلس الوزراء فى القاهرة ، وأصدر بياناً يؤيد فيه مظاهرة طلاب المدرسة الحربية فى الخرطوم ، ويحتج على تصرف الإدارة الإنجليزية معهم .

وردت الحكومة الإنجليزية ببيان تؤيد فيه تصرفات حكومة الاحتلال فى السودان ، وتفوضها فى أن تخرج من السودان أى جماعة ترى فيها خطراً على الوجود الإنجليزى هناك ، وتحمل البرلمان المصرى مسئولية ما وقع فى السودان من فوران العاطفة القومية .

وقد قرأت كلام لورد لويد عن هذه الحركة المباركة ورأيت اجتهاده فى تشويهها ، ولو قرأت تفاصيل حوادث السودان هذه عند رجل استعمارى إنجليزى آخر – مثل هارولد ماكمايكل – لعجبت من تبجح أولئك الناس وادعائهم بأن غالبية أهل السودان قابلوا حركة الوحدة بالنفور (حباً فى الاحتلال !) بل إن هذا المؤلف يؤكد أن رجال قبائل الشلوك فى نواحى الملاكال رحبوا بالجنود البريطانيين واستقبلوهم استقبال الإخوة !

* * *

وكان سعد – إذ ذاك – على أبواب مفاوضاته مع رامزى ماكدونالد

رئيس الوزارة البريطانية ، وكان يعلم تمام العلم أن لا شيء يثير الإنجليز مثل الكلام عن السودان ورابطته بمصر ، وكان يعلم كذلك أن إصراره على موقفه من المسألة السودانية يعني إخفاق هذه المفاوضات ، ولكنه — مع ذلك — أصر على هذا الموقف لأنه كان يعلم أن موضوع السودان هو بيت القصيد من كل تفاوض مع بريطانيا ، وأن ماكدونالد كان مستعداً للتسليم لسعد بكل شيء ، إذا هو ترك الكلام عن مسألة السودان ، وسمح لإنجلترا بإبقاء قوة دفاع بريطانية فى منطقة السويس .

ولكن سعداً — بدلاً من ذلك — نشر فى جريدة البورس إجيبسيان الصادرة فى ٦ يونيو ١٩٢٤ بياناً يعتبر بالفعل نذيراً بإخفاق مفاوضاته ، وسقوط وزارته وضياع كل ما أنفق من جهود لإقامة حكم دستورى فى البلاد ، قال : « إن السودان لنا ، ولابد لنا من الحصول عليه والتصرف فيه تصرفنا فى أراضينا . تلك حقيقة ينبغى علينا جميعاً السعى فى تحقيقها » .

وأعقب ذلك بتصريح آخر ألقاه فى مجلس النواب فى ٢٤ يونيو قال فيه : « إذا قدر لى أن أذهب لتولى المفاوضات فإننى سأقول : إن السودان سوداننا ، وأنه جزء لا يتجزأ من مصر ، ولا بد من إعادته إلينا . . . »

كان ذلك الموقف من مشكلة السودان نهاية للحكم الدستورى فى مصر ، لأن بريطانيا أحست أن مثل ذلك الحكم — إذا استمر فى مصر — فإنه سيؤدى حتماً إلى خروج السودان من يدها . والانفراد بالسودان — إلى جانب السيطرة على منطقة قناة السويس — كانا الهدفين الوحيدين اللذين يهمان بريطانيا من الوجود فى مصر ، وما عدا ذلك من تفاصيل . .

وبديهى — والحالة هذه — أن تكون مفاوضات سعد مع رامزى

ماكدونالد مقررة الإخفاق ، من قبل أن يغادر سعد مصر إلى إنجلترا في ٢٥ يوليو ١٩٢٤ ، لأن إنجلترا لم تكن مستعدة - بحال - للكلام في موضوع السودان . .

وكما قال الرافعي في كتابه « في أعقاب الثورة المصرية » : لم تكن هناك مفاوضات ، لأن سعداً تمسك برأيه في مسألة السودان . .

انقطعت المفاوضات بعد ثلاثة اجتماعات صغيرة في ٢٥ و ٢٩ سبتمبر ثم في ٣ أكتوبر ، ثم توقفت وانتهى كل شيء - وقال سعد كلمته المشهورة : دعونا لننتحر فرفضنا الانتحار . .

على صخرة السودان تحطمت محادثات سعد في لندن ، وعليها أيضاً سيتحطم حكم الوفد وحكم الدستور . .

حقاً لقد تقدم سعد للمستر ماكدونالد بستة مطالب آخرها السودان ، ولكن ماكدونالد - كما جاء في الكتاب الأبيض الذي نشره عن المفاوضات فيما بعد - مر بالنقط الخمس الأولى سريعاً ، ثم وقف عند موضوع السودان واستنكر موقف سعد ، وانتقد تصريحاته - التي ألقاها في برلمان القاهرة ونشرتها الصحافة قبل المفاوضات معلناً فيها التمسك بالسودان ، وقال في النهاية : « ولم يفتني أيضاً أنه قد نقل لي أن زغلول باشا ادعى لمصر في شهر يونيو الماضي حقوق ملكية السودان العامة ، ووصف الحكومة البريطانية بأنها غاصبة . فلما حادثت زغلول باشا في ذلك قال لي إنه في هذه الأقوال لم يكن مردداً صدى رأي البرلمان المصري فقط ، بل رأي الأمة المصرية أيضاً ؛ فاستنتجت من ذلك أنه مازال متمسكاً بهذا الموقف » .

وبدأ العقاب . .

وعاد سعد إلى مصر فى خريف ١٩٢٤ ، وهو يرى السماء من فوقه فى كل مكان ملبدة بالغيوم . .

ولم يكد يستقر فى مصر حتى أحس بأن أشياء كثيرة خطيرة تدور من حوله : كان يعرف أن مصير وزارته محتوم ، ولكنه أراد أن يقاوم إلى النهاية ، فعين فتح الله بركات باشا وزيراً للزراعة ، وأحمد ماهر وزيراً للمعارف ، ومحمود فهمى النقراشى وكيلاً لوزارة الداخلية .

وكثرت شكواه من الدسائس التى كانت تحاك من حوله . . .

وفى ٨ نوفمبر صدر أمر ملكى بتعيين حسن نشأت وكيلاً للديوان الملكى ورئيساً له بالنيابة . .

وكان حسن نشأت وكيلاً لوزارة الأوقاف ، وخادماً للسدة الملكية فى كل ما طمعت فيه من أموال الخير والبر واليتامى والمساكين . .

وكان سعد يعرف تماماً مغزى هذا التعيين ، وكان معه فى الوزارة اثنان هما ماهر والنقراشى يعرفان حسن نشأت معرفة جيدة ، ويرقبان حركاته – كما كان هو يرقب حركاتهما – فى كل ساعة من ليل أونهار . .

واحتج سعد على هذا التعيين ، وتمسك بحق الوزارة فى ترشيح رئيس الديوان ، واحتج كذلك على تصرف الملك فى تعيينات السلك السياسى على هواه . .

وكان سعد – إذ ذاك – فى الثامنة والستين ، منهكاً متعباً ، وسئمت نفسه هذا التدبير الخفى السيئ من جانب الملك فؤاد ، فقدم استقالته .

وكان نشأت فى عنفوان تدبيراته ، فخشى من استقالة سعد -بسببه أن تكون قاضية عليه نهائياً ، لأن الأمة كلها – فى ذلك الحين – كانت من وراء سعد . ومهما كان من ثقة نشأت فى تأييد الملك إياه ، فما كان بقادر على أن يتصدى لمقت الأمة كلها ، فى وقت اشتد فيـه نشاط الفدائيين . .

وتراجع القصر عن موقفه ، واسترد سعد استقالته فى ١٧ نوفمبر ١٩٢٤ .

وفى الوقت نفسه صدرت الأوامر السرية إلى محمد توفيق نسيم بالاستقالة من وزارة سعد ، فاستقال . .

وصدرت أوامر أخرى لبعض عملاء القصر فى الأزهر بالإضراب ، فأضربوا . .

وسارت مظاهرة أزهرية منكرة ، تنادى بنداء لم يسمع بمثله من قبل فى مصر :

« لا رئيس إلا الملك ! ! »

ولنذكر هنا أن حسن نشأت كان منذ قليل وكيلاً لوزارة الأوقاف . .

ومضى حسن نشأت يعمل فى الخفاء

فى هذه الظروف اتصل حسن نشأت بصنيعة من صنائعه يسمى محمود أحمد إسماعيل . هذا الرجل كان فى أول أمره موظفاً صغيراً فى وزارة الأوقاف ، ولكن نشأت اكتشف فيه ميزة لها أهميتها عنده . .

كان هذا الرجل صديقاً لشفيق منصور ، وكان شفيق منصور شخصية

قلقة ووطنياً على طريقته ، فقد كان يؤمن بالعمل الحاسم الذى يرهب العدو ويخيفه ، وكانت فيه فدائية جعلته يشترك فى الكثير من أعمال الفدائيين منذ سنة ١٩٠٦ ، ولكن اشتراكه فى الغالب كان اشتراكاً فى الرسم والتدبير دون التنفيذ ، ولهذا كان يوفق دائماً فى إثبات براءته والخروج من السجن ، بعد مدد طويلة أوقصيرة محبوساً رهن التحقيق .

وكان كذلك صديقاً لأحمد ماهر ومحمود فهمى النقراشى ، اللذين كانا يمثلان الجناح المتطرف من الوفد ، جناح الشباب الفعال المتصل بعالم الشباب وجمعيات الطلبة وجماعات العمال المتحمسين ، ومن بينهم بعض الفدائيين من العمال من أمثال محمد شهاب الدين ومحمود طاهر العربى والحاج أحمد جاد الله .

ولكن ماهراً والنقراشى – فى صلاتهما بهؤلاء المتطرفين – كانا يسلكان طريق الحذر الذكى ، فكانا يشجعان ويحرضان ويقدمان المال ، ويسفران بين الفدائيين وسعد زغلول فى حذر بالغ وتحفظ محسوب ، ولهذا لم ينجح خصومهما فى التمسك عليهما بشىء حاسم ، وكذلك لم يستطع أحد من الفدائيين المقبوض عليهم أن يقدم إقراراً يدينهما بشكل قاطع .

ولا بد كذلك من القول بأن الفدائيين – والعمال منهم خاصة – كانت فيهم شهامة تبعث على الإعجاب ، وقد فضل الكثيرون منهم صعود سلم المشنقة على الإقرار على أصحابهم أومحرضيهم . .

ومن ناحية أخرى ، كان ماهر والنقراشى يواليان الفدائيين بالعون الوافر ولا يتخليان عنهم أبداً ، فهما ينبهانهم على مواضع الريب والأخطار

المحيطة ، ويحذرانهم إذا كان تنفيذ أى عملية سيعرضهم لخطر محقق .

ثم كانا يحصلان من الوفد على الأموال الكافية لرعاية أسر الفدائيين المسجونين ، ويوفران لهم الدفاع القانونى باختيار أحسن المحامين ، وفى هذا المجال ظهر واشتهر الكثيرون من كبار المحامين الوفديين ، من أمثال مكرم عبيد ومحمد صبرى أبو علم وسليمان غنام .

ولكن ماهراً والنقراشى كانا يلتزمان أشد الحذر من ناحية شفيق منصور ، فقد كانا يعرفان فيه – إلى جانب فدائيته واستعداده للعمل الجرىء – قلقاً وطموحاً ونظراً للمكافأة ، وهذه خصال ربما دفعته فى مرة من المرات إلى إطلاق اللسان . .

ولهذا كانا يحذرانه ولا يستريحان إلى البوح إليه بما فى نفسيهما ، كما كانا يفعلان – مثلاً – مع الحاج أحمد جاد الله . .

وعندما عرف شفيق منصور أن سعداً أخذ بيد ماهر والنقراشى ، فجعل الأول منهما وزيراً للمعارف والثانى وكيلاً لمحافظة القاهرة فوكيلاً للداخلية ، أكلت الغيرة قلبه ، وأطلق لسانه فى سعد وفى ماهر والنقراشى ، وقال – فى صراحة – إنه هو أيضاً يستحق مثل هذا التقدير ، وتناقل الناس عنه أقوالاً شتى فى هذا المعنى . .

وكان ذلك كله يصل إلى أذن حسن نشأت عن طريق نفر من الجواسيس ، ينقلون إليه الأخبار ويأتونه بما يريد ، من أمثال نجيب الهلباوى وعبد الحليم البيلى وأخيه عبد الحميد . .

والذى « اكتشف » استعداد الهلباوى للخيانة كان سليم زكى – وكان إذ ذاك ضابطاً فى المحافظة وعميلاً للإنجليز – وقدمه هذا إلى البكباشى

إنجرام مساعد راسل باشا حكمدار العاصمة ، وإنجرام هو الذى وجّه الهلباوى نحو محمود أحمد إسماعيل ، وهذا دل عليه حسن نشأت . .

وعرف حسن نشأت أن ينتفع بالهلباوى فى تلك الظروف التى أشرنا إليها : ظروف إخفاق الوفد فى المفاوضات ورغبة الإنجليز فى الخلاص منه خوفاً على السودان ، ورغبة السراى فى التخلص من الوفد والدستور جملةً . وكانت شخصية سعد قد غطت على فؤاد وأخملته تماماً ، ووقف وزير الأوقاف الوفدى فى وجه رجال الخاصة وحال بينهم وبين النظر إلى أموال الأوقاف . .

ويقال إن حسن نشأت طلب من الهلباوى أن يستطلع رأى سادته الإنجليز فيما يمكن عمله فى تلك الظروف للتخلص من الوفد بأيسر الطرق ، فقيل له إن المطلوب هو التخلص منه بأسرع الطرق لا بأيسرها . .

وقيل له إن هناك خلافاً بين اللورد أللنبي والسردار السيرلى ستاك ، لأن السيرلى ستاك كان يفضل أن يكون على علاقات طيبة بالمصريين ، وأنه يثنى على الكثير من الضباط المصريين فى مصروالسودان ، وأن علاقات صداقة قامت بينه وبين وزير الحربية الوفدى حسن حسيب باشا ، وأنه كان يقول إن سعد زغلول رجل جدير بالاحترام .

وكان اللورد أللنبي – فى تلك الأيام – فى غاية الضيق ، لأن الإنجليز كانوا يحملونه مسئولية ما حدث فى مصر والسودان ، فهو صاحب فكرة تصريح ٢٨ فبراير ، وهو الذى فتح عليهم باب المشاكل : البرلمان والدستور ، وهذه التى وقعت فى السودان .

وتحرج مركز أللنبي أكثر عندما خسر حزب العمال الانتخابات ،

وخرج ماكدونالد من رياسة الوزارة وحل محله فيها المستر بولدوين رئيس حزب المحافظين . كان يقول دائماً : لابد أن يذهب سعد . . لابد أن يذهب الدستور . .هذا البلد غير أهل لأى نوع من الحرية . .

وكان من المقرر أن يسافر السيرلى ستاك إلى لندن يوم ١٧ نوفمبر ١٩٢٤ بالإجازة . . وبينما كان يستعد للسفر ، تقدم نفر من الضباط المصريين يطلبون إليه أن يؤجل سفره أسبوعاً ، لأنهم يريدون أن يقيموا له حفلة تكريم يعبرون له فيها عن عواطفهم الودية .

واستجاب السيرلى ستاك للطلب ، وأجل سفره إلى ٢٦ نوفمبر ١٩٢٤ . . ولم يخف دهشته من أن يجىء طلب التأجيل عن طريق المندوب السامى .

وفى ١٩ نوفمبر ١٩٢٤ فرغ السردار السيرلى ستاك من عمله فى مكتبه بوزارة الحربية قبيل الثانية بعد الظهر ، ثم نزل واستقل سيارته لتمضى به إلى بيته فى حى الزمالك ، وإلى جانبه ياوره الكولونيل باتريك كامبل ، فلما وصلت السيارة إلى ملتقى شارع الإنشا بشارع الطرقة الغربى (إسماعيل باشا أباظة الآن) برز خمسة رجال كانوا يتربصون للسيارة ، فأمطروها وابلاً من الرصاص أصاب السردار منه ست رصاصات — فى بطنه ويده وقدمه — بإصابات خطرة ، وأصيب ياوره وسائق سيارته إصابات أقل خطورة ، وأصاب بعض الرصاص جندياً مصرياً من بلوك الخفر أراد أن يتعقب الجناة اسمه محمود عبد الموجود .

ونقل السردار إلى مستشفى الأنجلو أميريكان ، وبعد ساعة كان سعد زغلول فى زيارته . نظر إلى وجه الرجل المصاب فتبين فيه الموت . .

وقدم مواساته إلى الفيلد مارشال أللنبى ، ومضى وهو مثقل القلب

بالهم يدعو الله ألا تكون الإصابة قاتلة . .

ولكنها كانت . .

وفى منتصف ليل ٢٠ نوفمبر ١٩٢٤ أسلم روحه هذا الجندى البريطانى الذى قضى حياته فى خدمة الإمبراطورية . .

وارتجت مصر كلها للنبأ ، وقال سعد : هذه الرصاصات أصابت مصر وأصابتنى شخصياً . .

وقامت قيامة الإمبراطورية البريطانية . .

وفى صباح ٢٢ نوفمبر ١٩٢٤ تلقت مصر إنذاراً غريباً فى بابه . .

تلقت حكماً أنزل بشعب بأكمله أقسى عقاب يمكن أن ينزل بأمة ، عقاباً لها على جريمة ارتكبها خمسة من أفرادها . .

فقد توجه اللورد أللنبى إلى دار رئاسة مجلس الوزراء على رأس فرقة من الجيش يتقدمها نافخ فى البوق . .

وفى حديقة رياسة مجلس الوزراء اصطف الجنود ، ونفخ فى البوق . .

وخرج الفيلد مارشال من سيارته بملابسه العادية ، وصعد السلم ودخل على الشيخ المحزون فى مكتبه دون استئذان . .

كان صوت البوق قد استرعى انتباه سعد فقام ينظر من النافذة ، ثم التفت ليرى الفيلد مارشال إدوارد هنرى هاينمان أللنبي وبيده ورقة ، فقال :

– أهو إعلان حرب ؟ !

ولم يرد الفيلد مارشال ، وإنما ناول سعداً الورقة التى فى يده . كانت

إنذاراً خطيراً . .

كانت أكثر من إعلان حرب . .

كانت شروط هزيمة يمليها قائد منتصر على قائد منهزم . .

وكان هذا هو الإنذار الأول ، ديباجته سباب وإهانات لم يعرف سعد مثيلاً لها فيا قرأ من أخبار السياسة والحروب ، وهذا نصها :

« دار المندوب السامي . القاهرة فى ٢٢ نوفمبر ١٩٢٤

إلى حضرة صاحب الدولة سعد زغلول باشا رئيس مجلس الوزراء .

يا صاحب الدولة ، أقدم لدولتكم من قبل حكومة صاحب الجلالة البريطانية البلاغ التالى :

إن الحاكم العام للسودان وسردار الجيش المصرى — الذى كان أيضاً ضابطاً ممتازاً فى الجيش البريطانى — قد قتل قتلة فظيعة فى القاهرة . .

فحكومة حضرة صاحب الجلالة تعد هذا القتل — الذى يعرض مصر كما هى محكومة الآن ، لازدراء الشعوب المتمدينة — نتيجة طبيعية لحملة عدائية ضد حقوق بريطانيا العظمى وضد الرعايا البريطانيين فى مصر والسودان . .

وهذه الحملة — القائمة على إنكار الجميل إنكاراً مقروناً بعدم الاكتراث للأيادى التى أسدتها بريطانيا العظمى — لم تعمل حكومة دولتكم على تثبيطها ، بل أثارتها هيئات على اتصال وثيق بهذه الحكومة . . . إلخ »

ثم تلى ذلك مواد الإنذار ، أو عقوباته . .

الشروط الثلاثة الأولى من شروط الهزيمة هى : الاعتذار ، والتحقيق ،

والأمر بتقييد الحريات . .

والرابع غرامة نصف مليون جنيه تدفعها مصر . – والخامس – وهنا بيت القصيد – سحب الجيش المصرى من السودان ، وتحويل الوحدات السودانية التابعة للجيش المصرى إلى قوة سودانية ، تكون خاضعة وموالية للحكومة السودانية وحدها .

والسادس ، إكمال له : إطلاق يد حكومة السودان فى زيادة مساحة أطيان الجزيرة من ٣٠٠,٠٠٠ فدان (كما كان مقرراً من قبل) إلى مقدار غير محدود . .

والسابع : أن تستسلم مصر لكل ما تريده بريطانيا ، خاصاً بحماية المصالح الأجنبية فى مصر . .

وثبّت سعد نظره فى المادتين الخامسة والسادسة ، فعرف سر الحكاية كلها . .

ولم يجب . .

وخرج الفيلد مارشال . . .

وبعد قليل ورد إنذار ثان يضيف عقوبتين أخريين : زيادة الحقوق والضمانات الخاصة بالموظفين الإنجليز فى خدمة الحكومة المصرية ، وحماية مصالح الأجانب فى مصر . .

ورد سعد فى اليوم التالى بقبول الاعتذار ودفع الغرامة ، ورفض ما عدا ذلك . . .

وفى اليوم نفسه تحركت من مالطة ثلاث قطع من الأسطول البريطانى ، وهى Benbow، Valiant Iron Duke متجهة إلى الإسكندرية ، واتجهت

قطعة رابعة هى Malaya إلى بور سعيد . . .

ونزل الجنود البريطانيون فاحتلوا جمارك الإسكندرية ، وجلس ضباطهم يتسلمون الإيراد لإرغام مصر على التسليم . .

وقدم سعد استقالته فى ٢٣ نوفمبر ١٩٢٤ . .

ودخل بها حسن نشأت على مولاه متهللاً مهنئاً !

(٤)

من استفاد من الجريمة ؟ . .

إذن فقد كانت المطالب البريطانية التي قدمت إلى سعد زغلول ، عقب مصرع السردار فى منتصف ليل ٢٠ نوفمبر ١٩٢٤ ، شروط استسلام مهينة من مثل ما يتقدم بـه قائد جيش منتصر إلى قائد جيش منهزم . .

ففيها إهانة ، وفيها غرامة ، وفيها طلب تسليم أراض ، ومطالب أخرى مجحفة لا علاقة لها بمقتل السردار ، وإنما هى عقوبة يفرضها القوى على الضعيف . .

لماذا تدفع مصر نصف مليون جنيه ؟ ولماذا تأخذ الحكومة البريطانية لنفسها تعويضاً عن موت أحد ضباطها فى أحد شوارع القاهرة ؟

وهل طلبت بريطانيا – مثلاً – من الصهيونيين نصف مليون جنيه ، تعويضاً عن مقتل اللورد موين على يد اثنين فى القاهرة فى نوفمبر ١٩٤٤ ؟ . .

وهل طلبت منهم حكومة السويد – مثلا – نصف مليون جنيه ، تعويضاً عن مقتل الكونت فولك برنادوت فى أحد شوارع القدس سنة ١٩٤٩ ؟ . .

ثم ما علاقة مقتل السردار بتوسيع مساحة أراضى مشروع الجزيرة الإنجليزى فى السودان ، من ٣٠٠٠٠٠ فدان إلى أى حد تراه إنجلترا ؟ . .

بأى حق وأى منطق تهرول إنجلترا بهذه السرعة لتحقق لنفسها مكاسب اقتصادية وسياسية ، من وراء مقتل ضابط من ضباطها على يد نفر من الشبان غير المسئولين فى القاهرة ؟ . .

وأراضى مشروع الجزيرة هذه . . هل هى ملك للإنجليز يتوسعون فيها كما يريدون ، أم هى ملك لفلاحين سودانيين طيبين تضع الشركة الإنجليزية المفترسة يدها على أملاكهم وتحولهم إلى رقيق بجرة قلم ؟

ثم ، لماذا تبعد القوات المصرية من السودان ، وكان رجالها على أحسن العلاقات مع السيرلى ستاك نفسه ؟

الأجوبة على هذه الأسئلة واضحة ، لا تحتاج إلا إلى تفكير هادئ فى كل ما حدث وكيف حدث . .

* * *

إن الذى فعلته بريطانيا عقب مقتل السردار هو تحقيق مخطط قديم كانت تمهد له من زمن طويل : الانفراد بالسودان وإخراج المصريين منه . .

والإهانات التى تضمنها خطاب اللورد أللنبى إلى سعد زغلول وحكومته ، كانت حكماً تصور اللورد أللنبى أنه أوقعه على سعد بأنه لا يصلح للحكم ولا يؤتمن عليه ، ومن هنا فإنه ينبغى أن يقصى عنه إلى غير رجعة . .

والغرامة إنما كانت لتهويل منظر الجناية فى نظر الرأى الأوربى ، حتى يرى أن المصريين لا يستحقون أن يكون لهم مكان فى السودان ، بما أنهم عاجزون عن المحافظة على الأمن فى بلادهم نفسها . .

وتأييداً لذلك – ورشوة للرأى العام الأوربى – طلبت بريطانيا من مصر لنفسها حقوقاً جديدة ، لتتمكن مما سمته حماية الأجانب فى مصر . .

ومن الواضح أن أى أجنبي فى مصر ، وأى دولة أوربية كان يرضيها مثل هذا التصرف من جانب إنجلترا فى ذلك الوقت . .

وهكذا وصلت بريطانيا إلى الخطوة الأخيرة التى كانت تسعى إليها : فصل مصر عن السودان ، والاستبداد به ، وتحويله إلى مزرعة بريطانية فى ظروف مدبرة بإحكام ، تقف فيها مصر عاجزة عن الاعتراض ، لأنها ظهرت فى نظر الرأى العام العالمى فى صورة معتدية ، فقد اشتركت حكومتها فى قتل ضابط بريطانى برىء . .

وتم كل شيء فى سرعة وترتيب يدلان على أن الأمر كان مدبراً من زمن بعيد . .

وفيما سبق من دراستنا ، شرحنا كيف ساورت بريطانيا فى هذا الطريق خطوة خطوة ، منذ أحست ألا أمل لها فى الاستقرار فى مصر وتحويلها إلى مستعمرة ، فاتجهت بأنظارها نحو السودان . .

وقد أيد عبد الرحمن الرافعى ما ذهبنا إليه بخبر نقله عن كتاب ألفه موريس برنو عنوانه « قلق الشرق ، أوعلى طريق الهند » .

Maurice Pernot. L'Inquietude de l'Orient ou Sur la Route de l'Inde, 927. p. 25.

الخبر يقول إن المؤلف « قابل اللورد أللنبي بعد مقتل السردار وتقديم البلاغات البريطانية وسأله عن وجهة نظره ، فأجابه اللورد أللنبي فى صراحة الجندى الذى يصدع بما يؤمر به : إن كل ما حدث كان متوقعاً . وقد كان الإنذار النهائى فى درج مكتبي من قبل أن يقتل السردار بوقت طويل ، ولكنى فقط غيرت صيغته فجعلتها أكثر حدة » . .

وأنا لم أقرأ كتاب برنو هذا ، ولكن عبد الرحمن الرافعى مؤرخ صدوق ، ولهذا فأنا آخذ هذا الخبر على عهدته ، وأرى فيه – كما يستطيع أى قارئ أن يرى – برهاناً لا يقبل الشك على النظرية التى تدور حولها هذه الدراسة ، وهى أن كل سياسة بريطانيا فى مصر فى ذلك الحين كانت موجهة نحو سرقة السودان من أهله – أهل وادى النيل – بتحطيم العلاقة الأخوية بينه وبين مصر ، ثم الانفراد به بعد ذلك . .

ونجحت بريطانيا – إلى جانب ذلك – فى تشويه سمعة مصر على صورة جعلت الدنيا كلها تسوغ ما صنعته بريطانيا ، وتسكت على جريمة اختلاسها للسودان . .

واستخدامى للفظ « اختلاس » هنا يحتاج إلى تعليق . .

فإن الاستعمار الأوربى فى القارة الإفريقية كان – فى الحقيقة – عمليات اختلاس لحقوق الناس وأراضيهم – وتشترك دول الاستعمار كلها فى أنها كانت – بعد ارتكاب جريمتها – تدعى أنها تعمل لصالح البلد الذى اختلست أراضيه وضيعت حقوق أهله ، وأنها تسير به وبهم فى طريق الرقى والعمران ، وتعتبر كل الوطنيين الذين يطالبون باسترداد حقوق أوطانهم المسلوبة ، متمردين أو مثيرين للقلاقل ينبغى القضاء عليهم « لصالح الأمن والنظام » !

فعندما اختلست إنجلترا السودان ، كان الذين تسميهم « متمردين » أو « مثيرين للقلاقل » هم المصريون والسودانيون ، الذين تمسكوا بحقوق بلادهم فحق عليهم العقاب . .

وإسرائيل اليوم تسمى الفلسطينيين – وهم أصحاب الأرض – المخربين !

وكذلك البرتغال ، تطلق هذه التسمية على الوطنيين فى موزمبيق وأنجولا وغينيا بيساو . .

من المستفيد ؟

انفردت بريطانيا – إذن – بالسودان ، ووصلت إلى ما تريد . .

وكان لابد – بعد ذلك – من إثقال مصر بالقيود ، حتى لا ينهض شعبها مرة أخرى ويحاول الكلام فى السودان . .

وكانت قد أعدت لذلك الأمر عدته ، ولا شك أن تعيين أحمد زيور رئيساً للوزراء – بعد مقتل السردار واستقالة سعد – كان مرتباً من قبل . .

فقد كان المطلوب رئيس وزراء لا يحب شعبه ولا يحترمه ولا تربطه به أى عاطفة ، ليكون مستعداً للإقرار على شعبه بجريمة لم يرتكبها ، ولا يكون لديه مانع – فى هذه الحالة – من الاستجابة لكل مطالب الإنجليز تكفيراً عن الخطيئة . .

وكان زيور باشا يسمى ذلك « سياسة إنقاذ ما يمكن إنقاذه » !

ونترك أحمد زيور يصفى ما يمكن تصفيته من حقوق مصر بتوجيه من الملك فؤاد ، لنعود إلى السؤال الذى طرحناه فى مقدمة هذه الدراسات : من المستفيد ؟

من الذى استفاد فعلا من هذه الجريمة ؟

ذلك السؤال الأساسى – الذى يضعه رجل القانون أول شروعه فى التحقيق فى جناية قتل – ينبغى أن يكون أيضاً نقطة بدايتنا فى هذه الدراسة . .

من المستفيد هنا من مقتل السردار ؟

مصر ؟ . .

قطعاً لا . . لأن مصر كلها أصيبت بمقتل السردار ، كما قال سعد زغلول : خسرت جزءاً ضخماً من أراضى وادى النيل ، وخسرت مكاسب سياسية لا بأس بها كانت قد حققتها على طريق الاستقلال . .

الوفد ؟ . .

قطعاً لا . . فقد كان مقتل السردار ضربة موجهة لسعد وحزبه ، وللحياة الدستورية والبرلمان . . وقد كانت هذه الجريمة بداية لعمليات عقاب غير معقولة وغير مشروعة لهذا الشعب ، على أيدى أحمد زيور ثم محمد محمود ثم إسماعيل صدقى . .

لم يبق إذن إلا الإنجليز والقصر . .

فأما الإنجليز فقد رأينا المكاسب الضخمة التى عادت عليهم من وراء هذه الجناية . .

وأما القصر فقد شفى حقده من سعد وكل الأحرار فى هذا البلد . خرج أحمد فؤاد من الظلام الذى وضعه فيه شعب مصر ، وبرز إلى المسرح من جديد يولى ويعزل ويتصرف تصرف المالك فى ملكه ، ويطلق أيدى رجال الخاصة فى أموال مصر وأراضى مصر يحوزون منها لسيدهم ما يريد . .

ولا نريد أن نسبق الحوادث . .

فلنعد إلى حيث وقفنا بالقضية :

وفاة السردار فى منتصف ليل ١٠ نوفمبر ١٩٢٤ . .

فى صباح ٢٢ نوفمبر تلقّى سعد الإنذار الأول . .

إن خبر موت السردار وصل إلى اللورد جراى Lord Grey of Fallodon وزير خارجية المحافظين فى لندن صباح ٢١ نوفمبر ١٩٢٤ ، فهل من المعقول أنه احتاج إلى أقل من يوم ليدرس هذا الحادث المفاجئ – أو الذى يفترض أن يكون مفاجئاً – ويناقشه مع المستر ستانلى بولدوين رئيس الوزراء ، ثم يعرضه على مجلس الوزراء ليضع شروط الإنذارين ؟

من المعروف أن الإنجليز قوم يتصرفون بتؤدة وهدوء ، وأنهم لا يتسرعون فى الأزمات مهما اشتدت ، حتى لا تصدر قراراتهم عن اندفاع خطر مع العواطف ، أو طيش مؤقت لا يعرفه المزاج الإنجليزى . .

ثم إن الأمر لم يكن يستدعى العجلة فى اتخاذ القرار ، فقد مات السردار ولن تحييه سرعة اتخاذ القرار المناسب . .

وقد رأينا تباطؤ اللورد كرومر فى إسعاف غوردون ، وكان هذا يؤكد له أنه مقتول لا محالة إذا لم يصله الإسعاف السريع . .

لا يمكن إذن أن يكون هذا الإنذار – ذو النقط السبع المدروسة بعناية – قد وضع فى يوم واحد . .

فهذه مطالب لا يمكن أن تكون وحى ساعة أو وحى نهار ، وإنما هى ثمرة دراسات طويلة وتقديرات محسوبة ، لتصدر فى وقت مقدر محسوب أيضاً . .

وقد رأينا الكاتب الفرنسى موريس برنو يؤكد أن أللنبى قال له إن الإنذار كان مجهزاً فى درج مكتبه من زمان طويل . .

وهذا – فى ذاته – دليل لا يقبل الشك على أن الأمر كله كان مدبراً بإحكام .

ولكن ، إليك دليلا آخر . .

لقد قدم الإنذاران البريطانيان إلى سعد فى ٢٢ نوفمبر ١٩٢٤ ؛ ولم تقبل وزارة سعد من مواد الإنذار إلا البند الرابع الخاص بدفع الغرامة المالية .

وفى ٢٣ نوفمبر ١٩٢٤ قدمت وزارة سعد استقالتها ، دون أن تقبل أى بند آخر من بنود الإنذارين ، فيما عدا البند الرابع الذى ذكرناه . .

وقبل الملك فؤاد الاستقالة فى ٢٤ نوفمبر . .

وتألفت وزارة أحمد زيور فى اليوم نفسه ، ولكنها لم تباشر عملها إلا فى اليوم التالى ٢٥ نوفمبر ١٩٢٤ .

فى ذلك اليوم كتب أحمد زيور إلى اللورد أللنبى خطاباً يسلم فيه بكل المطالب الإنجليزية . .

والمفروض أن البدء فى تنفيذ مواد الإنذار – وخاصة ما يتصل بإخراج القوات المصرية من السودان – يكون بعد قبول الحكومة المصرية للشروط ، وتقديمها ما يفيد الاستسلام ، خاصة ولم يمض على تقديم الإنذارين إلا ثلاثة أيام . .

ولكن التنفيذ – أى إخراج المصريين من السودان – بدأ فى الرابع والعشرين من نوفمبر ، أى قبل رد الحكومة المصرية بيوم ! مما يدل على أن كل شيء كان مرتباً من قبل . .

وأكثر من ذلك . . .

لم يكن إخراج القوات المصرية من السودان بالأمر السهل .

فإن هذه القوات لم تكن قوات احتلال أجنبية مقيمة فى معسكرات

خاصة بها ، ولكنها كانت قوات مصرية سودانية مختلطة تقيم فى بلادها . وإذن فإن الأمر بإخراجها من السودان لم يكن واضحاً ولا مفهوماً ، ولكن السلطات الإنجليزية فى السودان فهمت المطلوب ، وشرعت فى تنفيذه فى الحال . .

قال هارولد ماكمايكل يصف الوضع فى السودان عند وقوع حادث السردار وصدور الإنذارين (ص ١٥٧) : «وقد أدت التعليمات التى أرسلت إلى الخرطوم – خاصة بإجلاء الضباط والجنود المصريين التابعين للجيش المصرى من السودان – إلى موقف عسير ملىء بالمتناقضات . فقد كانت الوحدات المصرية – فرقتان من المشاة والمدفعية – تحت قيادة ضباط مصريين . وبالإضافة إلى ذلك ضمت بعض الوحدات السودانية نسبة من الضباط البريطانيين والسودانيين ، وكان هناك ضباط مصريون يعملون فى الإدارة المدنية . وكان يمين الولاء الذى أقسمه الضباط المصريون والسودانيون موجهاً إلى ملك مصر ، أما ولاء الضباط البريطانيين فكان (بالطبع) للملك جورج .

وكان إجلاء العنصر المصرى من الجيش يبدأ فى ٢٤ نوفمبر ، فى حين أن المندوبين الذين كان عليهم أن يقوموا بإجلائهم ، كانوا رجال الحامية البريطانية والفرق السودانية العاملة فى الجيش المصرى تحت إمرة ضباط بريطانيين أو سودانيين ، وبعض هؤلاء كانوا متمردين . وبالإضافة إلى ذلك كانت القوات البريطانية فى السودان تعانى نقصاً شديداً فى عدد الضباط فى الفرق السودانية ، بسبب تقصير وزارة الحربية فى القاهرة فى ملء الفراغات . . . إلخ » .

وموقف كهذا كان حريًّا بأن يجعل نائب السردار ، الذى قام مقامه مؤقتاً – وهو الجنرال هدلستون – فى موقف صعب يضطره إلى الاستفسار والاستيضاح من رؤسائه مرة وثانية وثالثة . .

ولكن شيئاً من هذا لم يحدث . وفى الرابع والعشرين من نوفمبر ، وقبل استجابة مصر ، بدأ هدلستون فى التنفيذ بناء على خطة مرسومة كانت بين يديه . .

أما حكاية الضباط البريطانيين اللازمين لسد الفراغات ، والذين قصرت وزارة الحربية فى مصر فى إرسالهم – كما يقول ماكمايكل – فحقيقتها أن الجنرال هدلستون كان قد طلب من السير لى ستاك أن يرسل إليه عدداً من الضباط البريطانيين « احتياطاً للظروف » ، ولم يبلغ السير لى ستاك هذا الطلب إلى حسن حسيب باشا وزير الحربية المصرى لأنه لم يفهمه ، ولم يفهم – تبعاً لهذا – ماهية هذه « الظروف » ، ولكن الجنرال هدلستون القائم بالعمل فى السودان نيابة عن السير لى ستاك ، كان يعرف ما سيحدث . .

وتدل الدلائل كلها على أنه كان قد تلقّى تعليمات لم يعرفها السير لى ستاك ، وصلته من الجنرال جيوفرى آرشر Geoffrey Archer حاكم أوغندا ، وهو الذى سيخلف السير لى ستاك فى حكم السودان بعد شهور . .

الموضوع إذن كان مقدرًا ومحسوبًا من قبل . .

كان أللنبي يعرفه ، وكان جيوفرى آرشر يعرفه ، وكان هدلستون يعرفه . .

وكان الملك فؤاد يعرفه ، وكان رئيس ديوانه حسن نشأت يعرفه . .

أما الذين كانوا لا يعرفون فهم الضحايا . .

أولهم السير لى ستاك نفسه !

وثانيهم سعد زغلول . .

وثالثهم شعب مصر والسودان الذى دفع من ماله ودمه وحريته ثمناً باهظاً لجريمة وقعت عليه هو نفسه . .

ومن جرائم الاستعمار التقليدية – فى مصر وغير مصر – أنه يجنى على الشعب المبتلى به ، ثم يطالبه بالتعويض !

ومقتل السير لى ستاك لم يكن الجريمة الأولى ولا الأخيرة من هذا النوع فى سجلات الاستعمار جميعاً ، إنجليزية كانت أم فرنسية أم بلجيكية أم إيطالية أم إسرائيلية . .

ولكنها كانت دون شك أبشعها وأبهظها ثمناً ، جريمة حطمت وحدة بلد وشعب ، وجعلت نصفه رقيقاً تحت نير المستعمر ، والنصف الآخر ألعوبة فى يده يفعل بها ما يشاء . .

ثم راح ضحيتها ضابط إنجليزى كبير قدمه الاستعمار ثمناً أو كبش فداء ، هو الجنرال السير لى ستاك . .

وقد كان من الممكن ألا ينفذ قرار انسحاب القوات المصرية أبداً ، لأن الضباط والجنود رفضوا ووقفوا متضامنين مع إخوانهم المصريين ضد الإنجليز .

وبلغ من عنف الإنجليز ورغبتهم فى الخلاص من المصريين فى أسرع وقت ممكن ، أن تناسوا أبسط مبادئ الإنسانية ، فلما تحصن بعض

الجنود السودانيين بمستشفى الجيش المصرى ، أطلق الإنجليز مدافعهم على المستشفى ودمروه عن آخره ، وقتلوا فيه عشرات من الضباط والجنود ، مصريين وسودانيين . .

وكان من الممكن أن يقاوم المصريون والسودانيون إلى أجل طويل ، ولكن وزارة أحمد زيور – بأمر الملك طبعاً – أرسلت تأمرهم بالاستسلام والعودة .

وهكذا تخلى الملك ووزارته عن الدفاع عن تراب الوطن ، فاقترفوا بذلك جناية جديدة تضاف إلى ما ارتكبوا فى حق هذا البلد العزيز . .

ومع ذلك فقد كان على حكومة زيور أن تفاوض الإنجليز وتدفع لهم ثمناً لإخلاء جمارك الإسكندرية !

وإن الإنسان ليتساءل : ما دامت وزارة زيور قد استجابت لمطالب الإنجليز كاملة ، فلماذا تعطى مصر شيئاً آخر لإخلاء الجمارك التى احتلها الإنجليز لإرغام مصر على الاستجابة للإنذارات ؟

وكان الثمن هو إطلاق يد المستشار المالى البريطانى ليتصرف فى مالية مصر كما يريد ، والاعتراف باستقلال القسم الأوربى فى وزارة الداخلية المصرية . .

بل لقد قبل أحمد زيور أن يكون مدير هذا القسم – وهو إنجليزى – المستشار الأول لوزارة الداخلية فى شئون الأمن . .

* * *

وليس معنى ذلك أننا نقرر هنا أن بريطانيا (أو اللورد أللنبى) قد دبرت مقتل السردار . .

ولكن معناه أن الإدارة البريطانية فى مصر – تحت إشراف أللنبى – رأت أن لعبة تصريح ٢٨ فبراير لم تنفع ، وأنها قد تؤدى إلى عكس ما أريد منها ، وأن الأمر ربما أدى إلى ثورة كبرى فى السودان تزيد ارتباطه بمصر وتقضى على كل أمل للبريطانيين فى الانفراد به . .

وإذن فلابد من وضع نهاية لهذا التصريح ، ولكل ما أدى إليه . .

والوسيلة الوحيدة لذلك هى أن تقع حكومة سعد فى خطأ فادح يسوغ إقالتها ، ويسمح لإنجلترا بعد ذلك بأن تفعل ما تريد . .

وهنا اتفقت غايات تلك الإدارة مع غايات الملك فؤاد ، الذى كان شديد الضيق بسعد وبالدستور وبكل حرية كسبتها مصر . .

وبدأ التعاون بين الاثنين . .

وهنا يدخل الميدان حسن نشأت ، ويتولى تدبير الأمور فى الخفاء باتفاق تام مع رجال الإدارة البريطانية ، وعلى رأسهم كين بويد مدير الإدارة الأوربية فى وزارة الداخلية المصرية ، وتوماس وليام راسل حكمدار العاصمة ، والكولونيل إنجرام مساعد الحكمدار .

وتصور الملك فؤاد أن هذا الخطأ الجسيم الذى يبرر الضربة القاصمة ، هو أن يقع اعتداء شنيع على أحد كبار البريطانيين فى مصر ، اعتداء يثير عواطف الإنجليز إلى درجة تجعلهم يتصرفون فى عنف وعصبية . .

وكان فى مصر كثير من كبار البريطانيين الذين يمكن توجيه أنظار الفدائيين إليهم . .

هنالك – مثلا – توماس راسل باشا ، وبيكر باشا ، والسير لى ستاك ، وإيموس شيلدون ، وجلبرت كلايتون ، وغيرهم . .

أى واحد من هؤلاء كان يمكن أن يكون الهدف ، ومصرعه يؤدى إلى نفس النتائج . .

ومضى الجانبان يمهدان الطريق .

القصر ورجاله يعملون على طريقتهم . .

والإنجليز يعملون على طريقتهم . .

ويقوم بالتنسيق بين الجانبين رجال من طراز حسن نشأت وسليم زكى ، ونفر آخر سيحين ذكرهم بعد قليل . .

* * *

فازت إنجلترا إذن بالسودان ، وقرّت عين الملك فؤاد بانتصار الإنجليز على أهل بلده ، وإخراجهم الوفد من الوزارة ، ثم إلغاء البرلمان ، وإطلاق يد الملك فى البلاد . .

وجاء دور التحقيق فى جناية قتل السردار . .

وكانت السلطات البريطانية داخل وزارة الداخلية المصرية قد قامت بحركة اعتقالات واسعة بعد الحادث مباشرة .

ولم تتم هذه الاعتقالات بناء على شبهات أو احتمال شبهات ، وإنما تمت بغرض الإرهاب والتعمية على العيون .

فقد قبضوا – مثلا – على مكرم عبيد عضو مجلس النواب وسكرتير الوفد ، ومحمود فهمى النقراشى وكيل وزارة الداخلية ، مع أنه كان من البديهى أن أيًّا منهما لم يكن من الممكن أن يكون له ضلع فى جريمة كهذه ، كان من البين أنها ضربة موجهة إلى الوفد وحكمه فى الصميم .

وقبضوا على عبد الرحمن فهمى وكان عضواً فى مجلس النواب ،

ولكنه كان قد انحرف عن سعد ووقعت بينهما جفوة عميقة ، وكان عبد الرحمن فهمي تحت مراقبة دائمة من إدارة بوليس الأجانب بوزارة الداخلية ، وكان من المستبعد جدًا – لهذا – أن تكون له يد فى جناية ضخمة كهذه .

وقد اعتقل هؤلاء الثلاثة بواسطة السلطة البريطانية دون أن تقيم وزناً لحكومة زيور القائمة ، وكان زيور وزيراً للداخلية والخارجية معاً . .

وقبضوا كذلك على شفيق منصور والشيخ مصطفى القاياتى وراغب إسكندر وحسن ياسين ، وكانوا جميعاً من النواب . .

قبض على هؤلاء وغيرهم لمجرد توسيع دائرة الاحتمالات أمام المحقق المصرى ، وفى الوقت نفسه وجهوا نظره وجهة بعيدة جدًّا عن الحقيقة ، فقدموا سودانيًّا – اتضح أنه عميل بريطانى – وزعموا أن لديه معلومات عن أن الجناية من تدبير فرع لجمعية اللواء الأبيض فى مصر . واهتم المحقق المصرى محمد طاهر نور بالأمر ، وأنفق وقتاً طويلا فى التحقيق مع هذا السودانى ، لأنه – كمحقق فى جناية قتل – كان يبحث عن المستفيد أو المستفيدين من وراء ارتكابها .

عرف المستر كين بويد مدير الإدارة الأوربية بوزارة الداخلية كيف يضلل محمد طاهر نور ، فوضع فى طريقه هذا السودانى ، وزعم لطاهر نور أن هذا الرجل يكشف النقاب عن فرع فى القاهرة لجمعية اللواء الأبيض السودانية ، التى كانت تدعو إلى التمسك بوحدة وادى النيل .

وبدا ذلك للمحقق أمراً محتملا جدًّا ، فقد كانت حكومة السودان الإنجليزية تضطهد رجال جمعية اللواء الأبيض ، على إثر نهوض السودانيين

للتمسك بروابط الوحدة مع مصر ، على ما ذكرناه .

وقد درس الدكتور محمد أنيس موضوع هذا العميل البريطانى – واسمه أحمد حسن مطر – فى دراسة قيمة ، مما يهدى إلى أهل التاريخ من أبحاث مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام (عدد ٢٠/٧/٧٣) وروى قصته وقصة التحقيق معه على نحو يتفق تماماً مع الاتجاه العام للحوادث ، ويؤيد نظريتنا فى القول بمسئولية الإنجليز وحلفائهم من رجال القصر عن هذه الجريمة الشنيعة . .

فقد وفد هذا الرجل على مصر فى ١٣ أكتوبر ١٩٢٤ قادماً من لندن ، بعد رحلة طويلة جاب فيها مناطق كثيرة من شرق إفريقية ، وذهب إلى جدة ، ثم إلى السودان مرة أخرى ، ثم إلى عدن ، ومن هناك إلى ممباسا ، ثم جيبوتى ، ومن هناك أقلع إلى مرسيليا . ثم طاف ببعض نواحي إنجلترا ، وعاد إلى فرنسا ، ثم ذهب إلى المغرب ، ومن هناك ذهب إلى لندن ، ومن لندن وصل إلى مصر فى التاريخ الذى ذكرناه ، قبل مقتل السردار بشهر وستة أيام مما يحمل على الظن بأنه لم يأت إلى مصر من تلقاء نفسه ، وإنما استقدم إليها بمعرفة السلطات البريطانية . .

نستنتج من اعترافات الرجل ، وهى اعترافات واضح أنها لقنت له ووضعت على لسانه لكى يتجه بالتحقيق وجهة معينة ، نستنتج أنه استقدم إلى مصر لكى يتصل بجماعة من الشبان الوطنيين السودانيين ، الذين كانوا يعتبرون أنفسهم أو تعتبرهم السلطات البريطانية فرعاً لجمعية اللواء الأبيض ، وكانت تلك الجماعة تسكن فى حارة الجداوى بدرب سعادة بالقاهرة .

وواضح أن كين بويد ورجاله وجهوه نحو أولئك الشبان، وفى نفس الوقت جعلوه يتردد على وزارة الحربية بحجة البحث عن عمل . . وإنه لمما يستوقف النظر أن ذلك الرجل يقول فى التحقيق عندما سئل عن كيفية قضائه لوقته فى مصر منذ وصوله إليها : « . . من الصبح للظهر كنت أتردد على وزارة الحربية غالباً ، وبعد الظهر كنت أتمشى على رجلى وأقابل بعض الناس من السودان » .

ومن الغريب أن المحقق لم يسأله : « ماذا تريد بقولك إنك من الصبح للظهر كنت تتردد على وزارة الحربية ؟ . . ماذا لك فى وزارة الحربية حتى تتردد عليها يومياً من الصبح إلى الظهر . . » . وليس من المعقول أن يظل هذا الرجل يتردد طول فترة الصباح على وزارة الحربية للسؤال عن عمل . . فلابد أنه كان له عمل ، عمل لم يهتم التحقيق بالسؤال عنه ، ربما قصدا . .

ومن غريب الأمر أيضاً أن رجلا عاطلا مشبوهاً كهذا يطلب مقابلة السردار فلا يرفض طلبه ، وإنما يحال على موظف إنجليزى آخر فى نفس الوزارة ، هو باركر باشا . نعم إن باركر باشا لم يقابله ، ولكن السبب كان تأخر أحمد حسن مطر عن موعده معه !

وفى أثناء التحقيق يوجه أحمد حسن مطر التهمة إلى عرفات محمد عبد الله ، الذى كان أشبه بوكيل لجمعية اللواء الأبيض فى مصر . وجدير بالملاحظة أن هذا الرجل – أحمد حسن مطر – الذى طال اتصاله بالإنجليز وكثر تردده على الموظفين الإنجليز فى وزارة الحربية المصرية ، هذا الرجل لم يقل لأصدقائه الإنجليز هؤلاء شيئاً ذا بال عن

عرفات محمد عبد الله وزملائه . ومن المؤكد أنه لو كان الأمر جداً ، لتنبه الإنجليز إلى فرع جمعية اللواء الأبيض هذا ، وإمكانية قيام أفراده بعمل ماضد الإنجليز ، أيام كانت الجمعية كلها موضع نقمة الإنجليز ، بعيد قيام حركة وحدة مصر والسودان فى الخرطوم وأم درمان والملاكال ، ووقوع حوادث المظاهرات والقمع التى ذكرناها .

كان الغرض من حكاية أحمد حسن مطر – إذن – هو تضليل المحقق المصرى حتى يتسع أمام الإنجليز وحلفائهم الوقت لتدبير مخرج من الأزمة . وإنه لمن الغريب أن عرفات محمد عبد الله ، الذى اتهمه أحمد حسن مطر بارتكاب الحادث أو الاشتراك فيه ، وتعرف عليه الشاويش الجريح محمود عبد الموجود ، الذى شاهد القتلة وهم يجرون بعد جريمتهم ويركبون تكسياً وأخذ رقم هذا التاكسى ، من الغريب أن الإنجليز يخلون سبيله ، لمجرد أنهم وجدوا أن الرصاص الخاص بالمسدس الذى وجدوه فى بيته يختلف عن الرصاص الذى قتل به السردار . ويستوقف نظرنا كذلك أن عرفات محمد عبد الله بارح مصر بعد ذلك ، وذهب إلى الحجاز ثم إلى السودان حيث أصبح من أعداء الوحدة مع مصر ، وأنشأ جريدة الفجر لتأييد انفصال مصر عن السودان . .

فهل كان فعلا وكيلا لجمعية اللواء الأبيض ، أو كان عميلا آخر من عملاء المخابرات البريطانية فى مصر ، أدخله كين بويد فى الموضوع إمعاناً فى تضليل التحقيق ؟

* * *

وكان من الممكن أن يقف الأمر عند ذلك الحد ، ويذهب دم

السردار هدراً . . هذا – فيما أعتقد – كان اتجاه الإنجليز ومن دبروا الأمر معهم : تحصر التهمة فى هذا النفر من السودانيين ، ويطول التحقيق معهم حتى تنسى القضية أو تسقط من اهتمام الناس ، ثم يعفى عن عرفات محمد عبد الله ومن معه وينتهى الأمر . .

أو يطول حبس المقبوض عليهم من الوفديين ، حتى يتم تلفيق التهم لهم وإحكام أمر إدانتهم ، ثم تقديمهم للمحاكمة بعد زمن طويل . .

ولقد كشف الأستاذ محسن محمد – فى مقالاته القيمة التى نشرتها « آخر ساعة » عن مقتل السردار – النقاب عن شخصية محمد نجيب الهلباوى وتاريخه ودوره فى القبض على قتله السردار . .

ولم تكن كل المعلومات التى كشف النقاب عنها جديدة علينا ، فقد ذكرها فى إجمال اللورد لويد فى كتابه عن « مصر منذ أيام كرومر » (جـ ٢ ص ١٠٦ وما يليها) .

ويستوقف نظرنا أن محمد نجيب الهلباوى – بعد أن خرج من سجن طره بعد أن قضى فيه عشر سنوات عقاباً له على محاولة اغتيال السلطان حسين كامل سنة ١٩١٥ – ظل على صمته ورفضه الاعتراف على زملائه فى المؤامرة ضد السلطان حسين كامل ، حتى اتصل به سليم زكى وأقنعه بأن السبيل الوحيد الذى يمكنه من الحصول على عفو حقيقى ، ومحو اسمه من قائمة المشبوهين مما يسمح له باستعادة مكانته فى المجتمع والحصول على وظيفة حكومية ، هو الدخول فى خدمة المخابرات المصرية والبريطانية ومعاونة رجالها على إيقاف أعمال الفدائيين بالكشف عنهم . .

وكانت هذه هى أعز أمانى نجيب الهلباوى . .

وكان سليم زكى يعرف أن الهلباوى – قبل دخوله السجن – كان داخلا فى تنظيمات الفدائيين ، وأنه يعرف الكثير منهم .

واقتنع نجيب الهلباوى بكلام سليم زكى ، وقرر أن يكون عميلا للسلطات على إخوانه الفدائيين ، قرر أنه يعرف منهم رجالا مثل محمود أحمد إسماعيل وشفيق منصور .

وهنا قدمه سليم زكى إلى البكباشى إنجرام مساعد الحكمدار ، فقرر له راتباً قدره ٣٠ جنيها فى الشهر وأطلقه يتشمم طريقه إلى الفدائيين . .

ويقول تقرير اللواء راسل باشا حكمدار القاهرة المرفق بالوثيقة رقم ج / ١٦/٩٠/٧٤٦ (١٥٩ سرى) المحفوظ بسجل الوثائق البريطانية وتاريخه أول مارس ١٩٢٥ – نشره الأستاذ محسن محمد فى آخر ساعة بتاريخ ٧٣/٨/٢٢ – أن الهلباوى بعد خروجه من السجن سنة ١٩٢٣ ، كان حاقداً على الأوغاد الذين يحرضون الشبان على ارتكاب الجرائم السياسية ، ويظلون هم بعيداً عن مواقع الخطر فى حين يتحمل الشبان المخدوعون المسئولية كلها ، ولهذا فقد كان حاقداً على هؤلاء المحرضين راغباً فى الانتقام منهم ، وأن هذه هى نقطة الضعف التى استغلها سليم زكى لتوجيهه نحو البحث عن قتلة السردار . .

وهذا كله كلام ملفق غير مستقيم . .

فإن محمد نجيب الهلباوى قام بمحاولة الاعتداء على السلطان حسين سنة ١٩١٥ ، أى قبل قيام الثورة وقبل ظهور سعد زغلول والوفد وتنظيماته المختلفة .

وكان الوفد هو صاحب الفضل فى خروجه من السجن قبل أن يكمل

مدته فيه ، فهو الذى استصدر قرار العفو عن المسجونين السياسيين سنة ١٩٢٣ ، فمن المعقول أن يكون محمدنجيب الهلباوى راضيا عن الوفد وسعد لا ساخطاً عليهما . .

ثم إن الجماعة التى كانت تقوم بالاغتيالات السياسية فى ذلك الحين كانت قد تألفت سنة ١٩١٩ ، أى فى أثناء الثورة وحين كان الهلباوى فى السجن ، فهو لا يعرف أحداً من أفرادها ولا تربطه بها أى صلة ، فكيف استخدمه سليم زكى فى البحث عن أفرادها والاتصال بهم ؟

وكيف يقول راسل باشا بعد ذلك : « وسرعان ما اكتسب ثقة أفرادها (أفراد جماعة الاغتيال) وتم الترحيب بعودته إلى حظيرة الجماعة » ؟

كيف يعود إلى حظيرة الجماعة وهو لم يكن قط من أفرادها ؟

هذا كلام لا يدخل فى العقول . .

والحقيقة – فيما نرى – يكشفها سطر آخر من تقرير راسل باشا ، وذلك حيث يقول : « وكان صديقه الشخصى فى العصابة هو محمود إسماعيل » . .

هذا السطر هو مفتاح القضية كلها . .

فإن محمود إسماعيل كان صنيعة حسن نشأت ، وهو لم يكن فى الأصل من الفدائيين ، وإنما آنس فيه حسن نشأت طموحاً واستعداداً لعمل أى شيء للوصول ، فقربه إليه لأنه كان يعرف أن محمود إسماعيل هذا على صلة بشفيق منصور . وشفيق منصور كان من قدماء المحاربين فى صفوف الفدائيين ، فهو يشترك فى أعمالهم منذ سنة ١٩٠٦ أو ١٩٠٨ .

ومحمود إسماعيل هو الذى قام – بإيعاز من حسن نشأت – بالاتصال

بشفيق منصور واستثاره حقده على سعد لنهوضه بأحمد ماهر والنقراشى من دونه . وحسب شفيق منصور أن هذه فرصة للوصول إلى وظيفة كبيرة عن طريق القصر ، فاتصل بزملائه الفدائيين وقام هو ومحمود إسماعيل بوضع الخطة لمقتل السردار . .

وكان القصر – كما رأينا – يتمنى وقوع الوفد فى خطأ فادح يغضب الإنجليز فيطيحوا به . .

وكان الإنجليز – أيضاً – يفكرون فى هذا الاتجاه ، وكانوا قد استعدوا لتوقيع العقوبة على مصر كلها ، إذا وقعت الواقعة . .

ولكنهم لم يكونوا يحسبون أن هذا الخطأ الفادح – الذى كانوا ينتظرونه – سيودى بحياة رجل من أكرم رجالهم عليهم . .

كانوا يتمنون – مثلا – أن يكون الضحية محمد توفيق نسيم ، وبالفعل جاء اسمه فى أثناء التحقيق كهدف محتمل . .

وكانوا يتمنون – على أى حال – أن يقع الاعتداء على شخصية ثانوية ، لا على السردار .

ولهذا فقد كان الإنجليز يستخدمون الهلباوى – قبل مقتل السردار – لمحاولة الاتصال بالفدائيين وتحريضهم على ارتكاب اعتداء ما . .

وفى الوقت نفسه كان محمود إسماعيل وشفيق منصور يرتبون لاغتيال السردار . . .

ووقع الاعتداء دون أن يكون للهلباوى أى علم به . وقد فوجئ به ، وغضب عليه رؤساؤه الإنجليز ، لأنه كان يؤكد لهم أنه على صلة بالفدائيين ، وعلى علم بكل ما سيقومون به . .

ولهذا سارع – بعد الاعتداء على السردار – بالاتصال بمحمود إسماعيل ليقف على سر هذا الحادث الضخم ، وكان ذلك بتوجيه من سليم زكى زكى وإبجرام . .

وبمعاونتهما أيضاً نجح فى كسب ثقة شفيق منصور ثم عبد الفتاح عنايت وأخيه عبد الحميد .

وهناك عبارة أخرى فى تقرير راسل باشا تكشف عن سر كبير ، قال :

« وقع الاختيار على عبد الفتاح عنايت باعتباره الشخص الذى يجب أن ندفعه للانهيار »

فمن أين عرف راسل باشا ورجاله أن عبد الفتاح عنايت هو الحلقة الضعيفة فى سلسلة الفدائيين الذين قاموا بقتل السردار ؟

وإذن فقد كان الإنجليز يعرفون أن عدواناً سيقع ، لأنهم كانوا يمهدون له – بطريقتهم الخاصة – ليصلوا إلى هدفهم الذى ذكرناه . .

وقد كان القصر – أيضاً – عارفا بأن عدواناً سيقع ، لأنه كان يمهد له – بطريقته الخاصة – ليصل إلى هدفه الكبير ، وهو التخلص من الوفد . .

وكلا الجانبين كان قد وعد عملاءه بالجزاء العظيم إذا وقع ما يريد . . ولكن الذى وقع أثار فزع الإنجليز . .

نعم إنهم حققوا من ورائه ما أرادوا ، ولكن موت السير لى ستاك كان ضربة أليمة لهم . .

وعرفوا أن القصر هو المسئول ، وأن الملك كان سعيداً جدًّا بما جرى . .

فعولوا على معرفة حقيقة ما وقع . . ولهذا استخدموا الهلباوى . .

ولكن ، هل كانوا مستعدين لإذاعة الحقائق ؟

قطعاً لا ، فقد كانوا – على نحو ما – مسئولين عما وقع ، ومن المحرضين عليه ، وإن كان قد سار فى غير الاتجاه الذى قدروه . .

وربما كان سر اهتمامهم بالبحث عن القتلة ووضع اليد عليهم ، أنه لم يكن من الممكن أن يطمئن لهم جنب مادام القتلة الحقيقيون أحرارا طلقاء . .

فقد كان من الممكن أن يتكلموا ويكشفوا الحقائق . .

وهنا يلتقى القصر مع الإنجليز . .

كلاهما دفع إلى الجريمة وحرض عليها . .

وكلاهما يريد الآن – وبعد أن وقعت – أن يقضى على الفاعلين لإخفاء معالم الجريمة . .

* * *

وبعد بحث طويل – وبمعاونة الهلباوى – عرف الإنجليز القتلة ، ووقفوا على تفصيل ما جرى . .

فلماذا لم يقبضوا عليهم فى الحال ؟

لماذا اللف والدوران ، ومحاولة إقناع عبد الفتاح عنايت وعبد الحميد عنايت بالهرب إلى ليبيا ، للقبض عليهما عند قرية الحمام فى الطريق إلى السلوم ، فيكون هذا الهرب دليلا قاطعاً على ارتكاب الجناية ؟ . .

لماذا هذا كله ، بعد أن اعترف الأخوان عنايت ، واعترف محمود أحمد إسماعيل ، وسمع اعترافهما سليم زكى وإنجرام ؟ . .

يقول راسل باشا إن الغرض كان إبعادهما إلى منطقة الحدود ، حيث يحكم الإنجليز حكماً عسكرياً مباشراً دون تدخل من النيابة المصرية .

كلام غير معقول !

لأن البوليس الإنجليزى فى القاهرة لم يتحرج عن القبض – فى القاهرة نفسها – على نواب تحميهم الحصانة البرلمانية وعن إلقائهم فى السجون . .

فكيف إذن يخشون تدخل النيابة والسلطات المصرية إذا قبضوا على الأخوين عنايت وزملائهما وأودعوهم السجن ؟ . .

ثم كيف هرب من تحت رقابتهم محمود أحمد إسماعيل ، ثم قدم نفسه إلى مركز بوليس المحلة الكبرى ؟

هذه كلها – فيما أعتقد – كانت محاولات من رجال البوليس الإنجليز لإبعاد المتهمين إلى أماكن قصية واغتيالهم فى سكون . .

ولكنهم عندما ساروا فى ذلك الطريق تبينوا أن ذلك أيضاً غير مأمون ، فإن أمراً كهذا لابد أن ينكشف يوماً ما . .

وإذن فقد استقر الرأى على القبض عليهم وتوجيه التهم إليهم ، وأخذ الاعترافات الصريحة منهم كما يقضى القانون . .

وفى الوقت نفسه وعدوهم جميعاً بتخفيف العقوبة ثم يجئ العفو بعد ذلك ، وكان ذلك مألوفاً إذ ذاك . .

والشرط الذى أخذوه عليهم هو ألا يكشفوا أمر من حرضوهم أو وجهوهم . .

واعترفوا ، وقدموا للمحاكمة وحكم على سبعة منهم بالإعدام ، هم شفيق منصور ومحمود أحمد إسماعيل والأخوان عبد الحميد وعبد الفتاح عنايت وإبراهيم موسى الخراط بالعنابر ومحمود راشد مساعد مهندس فى التنظيم وراغب حسن النجار بورشة مصلحة التليفونات . .

وكان الأولان هما المحرضين والمنظمين . .

والخمسة الباقون هم الذين قاموا بالتنفيذ . .

وصدر الحكم فى ٧ يونيو ١٩٢٥ ، ودخل الرجال السجن ، وظلوا ينتظرون ما وعدوا به من تخفيف العقوبة . .

وجاءتهم بارقة أمل عندما صدر الأمر بتخفيف الحكم على عبد الفتاح عنايت ، وظلوا ينتظرون . . .

ولم يعلموا أن الخطة التى اتفق عليها الإنجليز والقصر هى إسدال الستار على الموضوع ، وقطع أى صلة للمحكوم عليهم بالناس حتى يوم التنفيذ ، وحتى لو أنهم تكلموا فى السجن فلن يسمع صوتهم أحد . .

ولهذا فإن أحداً من أقاربهم لم يسمح له بزيارتهم فى السجن . .

وحرص الإنجليز على ألا يتصل بهم صحفى واحد . .

وتولى الإشراف على حراستهم البكباشى إنجرام ، مساعد الحكمدار توماس وليام راسل . .

وفى ذات مرة كان إنجرام يطوف فى السجن ، فسمع شفيق منصور يقول لمحمود إسماعيل ما معناه : اعترف على من غرر بك وبنا . . هذه ليست رجولة أن يلقوا بنا جميعاً فى هذه المصيبة ثم يتخلوا عنا بهذا الشكل . . اعترف . . .

وهذا الخبر لم يبلغه إنجرام لرؤسائه إلا بعد أن نفذ الإعدام فى الرجل وزملائه . .

وطلب هؤلاء المساكين رفع قضيتهم إلى محكمة النقض ، ولكن النقض رفض . ولم يبلغ أمر الرفض إليهم ، فظلوا والأمل يراود قلوبهم . .

وفى ليلة ٢٣ أغسطس ١٩٢٥ زار نجيب الهلباوى شفيق منصور ومحمود إسماعيل فى السجن وقال لهما ما معناه : أبشرا بالخبر . . ستسمعان عما قريب بشرى سعيدة . .

وناما قريرى العين ربما لأول مرة منذ دخلا السجن . .

وفى السادسة من صباح اليوم التالى – الأحد ٢٣ أغسطس ١٩٢٥ – جاءت البشرى السعيدة !

نقر الباب مع أول أشعة الفجر ، ثم انفتح ورأى شفيق منصور مأمور السجن والطبيب وشيخاً وعدداً من الجنود . .

وفهم ، رفع بصره إلى مأمور السجن وقال : هذه هى البشرى السعيدة ؟ . .

وقال الشيخ : كلنا لها يا بنى . .

والتفت شفيق منصور إلى محمود إسماعيل وقال : هٰذه هى النهاية يا جبان . . اعترف على الذين ودوك فى داهية . .

وظل الرجل صامتاً ثم قال : ذنبى وذنب ابنى اليتيم فى رقبة من حرضونى . .

– من هم ؟

– ربنا يعلم . .

ولم يزد . . ما كان ليستطيع أن يزيد حرفاً ، ولو زاد لما أخر ذلك مصرعه دقيقة واحدة . ثم إنه كان يعلم أن المدبرين الكبار الذين حرضوه كانت لديهم صحيفة اتهام كاملة لأخيه أحمد أحمد إسماعيل . .

ولكى يبقى لابنه عم يرعاه ، أطبق الرجل شفتيه . .

وكانت السلطات البريطانية قد حرصت على ألا يحضر التنفيذ إلا

أقل عدد من الصحفيين ، فأبلغت الصحف لترسل مندوبيها فى الساعة السادسة من صباح يوم التنفيذ .

ولم يصل إلا صحفى واحد ، هو عبد الحليم الغمراوى مندوب الأهرام . وصل ساعة التنفيذ فلم يسمع شيئاً مما قال المساكين ، وكانوا جميعاً – فيما عدا شفيق منصور – فدائيين بواسل استقبلوا الموت بشجاعة وحضور ذهن وثبات . .

وكان أشجعهم محمود أحمد إسماعيل ، فقد تقدم إلى مصيره رابط الجأش طلق المحيا ، وأعلن على خشبة الإعدام أنه وطنى يحب مصر وأنه فعل مافعل فى سبيل مصر . .

بل كان بعضهم يذكر ما عليه من ديون وماله عند الناس – وكلها قروش – إبراءً للذمة . .

ولم يضعف ولم يبك إلا شفيق منصور . .

ولكن ذلك لا يمنعنا من القول بأنه كان فدائياً أصيلا ، فقد ظل نحو عشرين سنة يعمل فى صفوف الفدائيين ، وقد اشترك فى نحو خمسين عملية ، وكان منظماً ماهراً . .

وعندما أنزلت الراية السوداء من أعلى سجن الاستئناف المجاور لمبنى المحافظة القديم اطمأن قلب أحمد فؤاد وحسن نشأت وإنجرام وسليم زكى وراسل وكل من اشتركوا فى هذا العدوان البشع ، من قريب أو بعيد . .

وبعد مقتل السردار بقليل ، سافرت زوجته الليدى ستاك إلى لندن . .

ورفضت أن يودعها اللورد أللنبي ، فى محطة مصر ، وقالت : إن زوجى لم يقتله المصريون ، وإنما قتله الإنجليز ! . .

ورفضت أن تأخذ شيئاً من التعويض ، وقالت : لا آخذ من مال المصريين شيئاً ، إنهم لم يقتلوا زوجى !

وآلم ذلك أللنبى فى الصميم . .

شعر أن فى الأمر شيئاً لم يعرفه . .

ولكن الرجل كان قد كره مصر وكره العمل فيها ، فقد ظن أنه يخدم دولته بخداع المصريين بتصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ ، وسعى فى إصداره . . ثم رفض المصريون أن ينخدعوا ، فضاع كل شيء . .

وأخذ – بنفسه – يهدم ما بنى بيديه . .

ثم جاء مقتل السردار . . كان ضربة أليمة له أخرجته من طوره . .

وعندما سمع ما قالته الليدى ستاك أحس أن الشياطين الذين يعملون معه اشتركوا فى خداعه . .

وبعد صدور الحكم على المتهمين ، قدم استقالته فى يونيو ١٩٢٥ . .

وغادر مصر منهزماً حزيناً كاسف البال . .

وبعد أن عاد إلى إنجلترا عينوه عضواً فى مجلس إدارة قناة السويس ، بمرتب يزيد على راتبه كمندوب سام لمصر ، وفى هذا المنصب ظل يعيش على مال مصر إلى أن مات . .

* * *

ولكن إذا كان الإنجليز – برغم كل شيء – قوماً عقلاء يعرفون كيف يوقفون تيار عداوتهم عندما يشعرون أنهم بلغوا غايتهم ، فإن الملك أحمد فؤاد كان من طينة أخرى ، طينة الطغاة الآسيويين الذين لا يعرف حقدهم حداً معقولا أو غير معقول . .

لقد وصل إلى ما أراد : تخلص من سعد ، ومن الوفد ، ومن الدستور .

ولكن كل هذا لا يكفى . .

كان يحلم – مثله فى ذلك مثل طغاة الماضى – بإعدام الوزير . .

ولو فى زمان آخر ، لكان استدعى السياف « مسروراً » وأطار رأس سعد زغلول ، وجلس مع ندمائه يتلقى التهنئة ، كما فعل أبو جعفر المنصور بعد فتكه بأبى مسلم . .

ظل – طوال التحقيق – يجتهد فى إدخال سعد والوفد فى الجريمة . .

ولكن سعداً ورجال الوفد خرجوا أبرياء ، لأن اغتيال السردار بالذات كان موجهاً ضدهم ، فليس من المعقول أن تكون لهم يد فيه . .

وهذا كان ينغص عليه سعادته بنصره . .

وقد نشر محسن محمد نص برقية طريفة أرسلها المندوب السامى بالنيابة – نيفيل هندرسون – فى ٢٦ يونيو ١٩٢٥ إلى وزارة الخارجية البريطانية يصف فيها مقابلة جرت له مع أحمد فؤاد فى الإسكندرية يقول فيها الملك : « لقد تمت عرقلة سعد زغلول ، ولكن لم يقض عليه حتى الآن ... قبل أن تتمكن البلاد من دخول مرحلة الهدوء يجب قتل سعد أدبياً . . » . ثم شرح جلالته المراد بالقتل الأدبى : إرغام المتهمين – بالقوة – على الاعتراف بأن أحمد ماهر والنقراشى وفتح الله بركات – بل سعد نفسه – لهم ضلع فى الجريمة .. أو تزوير أى انتخابات قادمة حتى لا يحصل الوفد إلا على أقلية لا تذكر . .

باختصار . . القتل الأدبى الذى ذكره فؤاد يريد به إدخال سعد فى قفص الاتهام ، أى شنقه

لأن الحقيقة أن سعداً – بانتصاراته – جذب إلى الأرض هذا الألبانى المتسول الذى أصبح ملكاً ، وداسه بقدميه . .

وعندما نهض الملك على قدميه ، ونفض التراب عن نفسه ، لم يكن هناك شىء يشفى غليله إلا استدعاء السياف مسرور . . ولكن – لسوء حظه – مضت مع أمس الدابر أيام السياف مسرور . .

* * *

هكذا ، كلهم تآمروا على مصر . . كلهم أنزلوا الضرر بهذا البلد ، الذى تحمل من أذى الناس – على طول تاريخه – ما لم يتحمله بلد آخر على سطح هذا الكوكب . .

كلهم أكلوا خبزها وشربوا ماءها ، ثم خانوها . .

لقد كسب الإنجليز من مقتل السردار كسباً ضخماً . .

وكسب الملك فؤاد من الجريمة نفسها كسباً كبيراً : انطلقت يده فى مصر وأرضها وأموالها وحكومتها . .

حتى حسن نشأت كسب . .

فبرغم كل شىء ، وبرغم إصرار الجميع على ضرورة إبعاده ، عين فى صيف ١٩٢٥ سفيراً لمصر فى مدريد . .

والخاسرة الوحيدة هى مصر . .

خسرت السودان : نصف أرضها . .

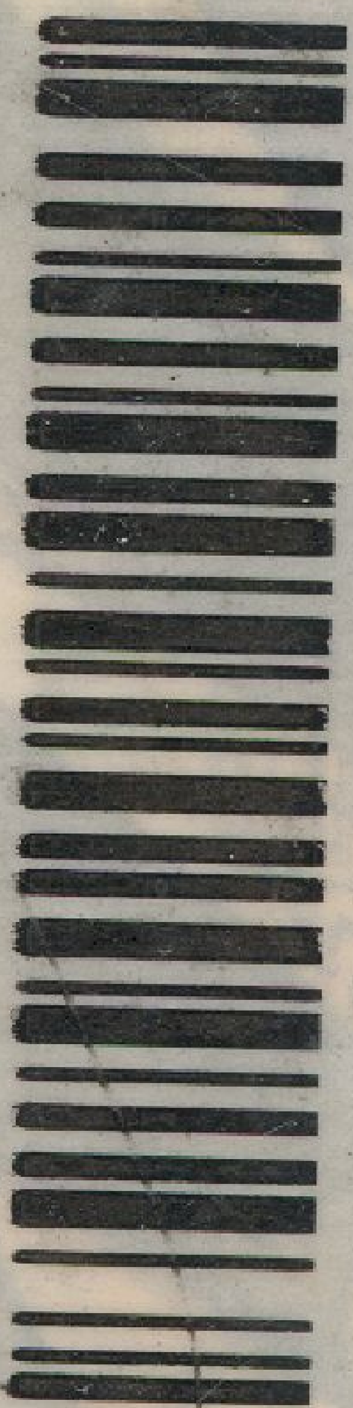
وعلى الله العوض ، ومنه العوض بإذن الله . .

فهرس

صفحة

رقم الإيداع	١٩٧٦/٥٣٦٤
الترقيم الدولى	٧ – ١٨١– ٦٤٢ – ٩٧٧ ISBN

١/٧٦/٤٧٩ مطابع دار المعارف–١٩٧٦


Bibliotheca Alexandrina
04123308

